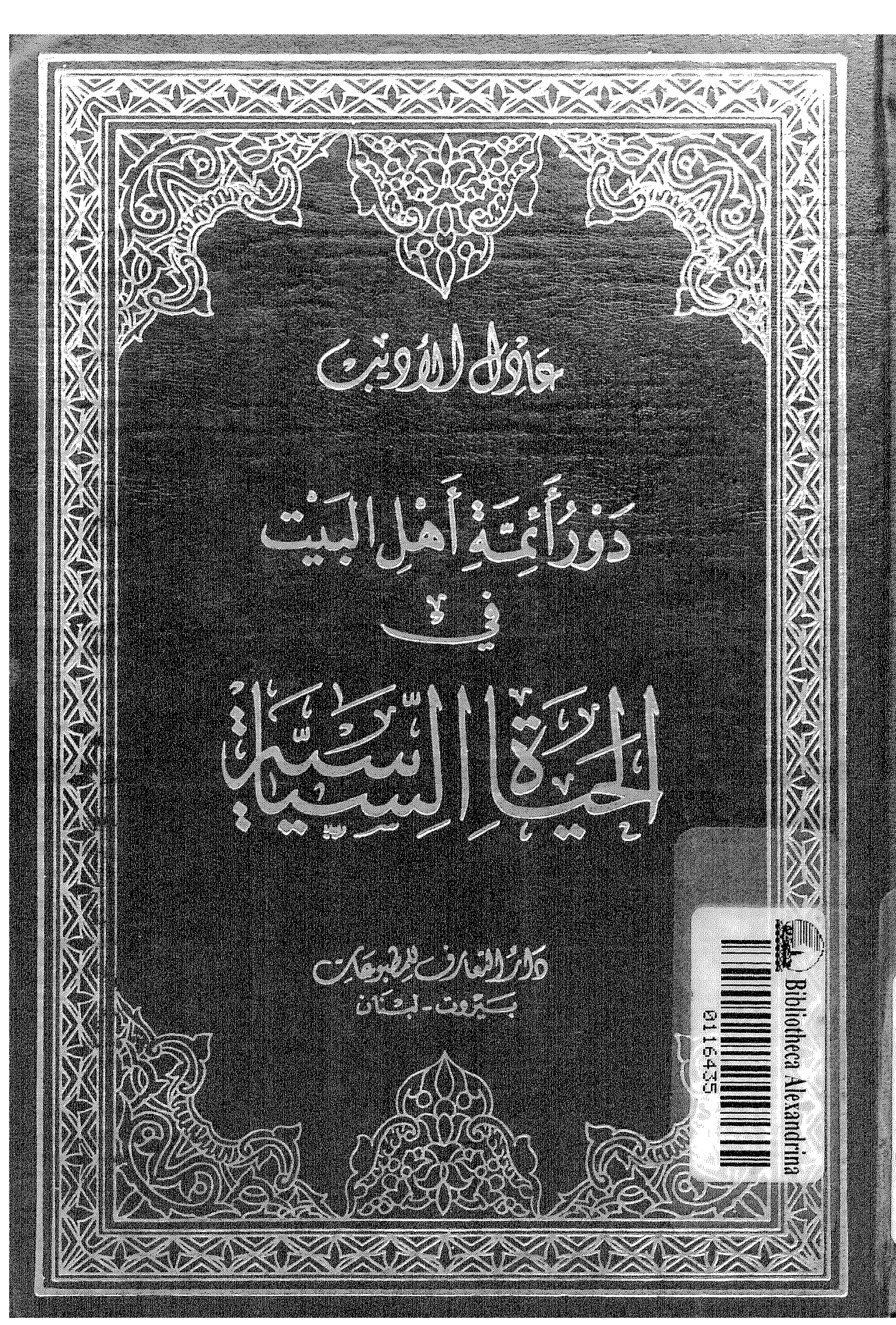


عادل الأديب

دور أئمة أهل البيت في الحياة السياسية

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان


Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)





عادل الأديب

دور أئمة أهل البيت في الحياة السياسية

دار التعارف للمطبوعات
بيروت - لبنان

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م



المكتب : شارع سوريا - بناية درويش - الطابق الثالث
الادارة والمعرض - حارة حريك - المنشية - شارع دكاش - بناية ابو علي طعام
ص - ب ٨٦٠١ - ١١
تلفون ٨٣٦٦٩٦ - ٨٣٧٨٦٨
تلكس تعارف ٢٣٦٤٤ - LE

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل
لدراسة تاريخ ائمة أهل البيت[٤]

توطئـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآل بيته الاطهار وصحبه الابرار وبعد:

- ١ -

لقد كان لكتاب الائمة الأثنى عشر، دراسة تحليليـة على اختصاره المكثف صدى استحسان لدى القراء الاعزاء، ربما لأنهم رأوا فيه منهجة بحث جديدة في تناول تأريخ أهل البيت (ع) حيث اعتمدنا في دراستنا لتأريخهم (ع) على المنهج المقترح للسيد الشهيد محمد باقر الصدر (رض) في بحثه القيم المنشـور بمجلة الأضواء بعنوان « دور الائمة في الحياة الاسلامية ومحاضراته التي القاها على طلبته في النجف الأشرف، وذلك باعتماد المنهج (الترابطي) الشمولي الذي يدرس حياة كل إمام وتأريخه على أساس النظرة الكلية بدلاً من النظرة التجزيئيـة، والنظر إلى

الائمة ككل مترابط ودراسة هذا الكل وكشف ملامحه العامة وأهدافه المشتركة، ومزاجه الأصيل وفهم الترابط بين خطواته، وبالتالي الدور الذي مارسه الائمة جميعاً في الحياة الاسلامية»[1].

وكان من المؤشرات على اقبال القراء للكتاب هو نفاذ الطبعة الأولى وتشجيع كثير من الأخوة القراء على طبعه وتطويره ونشره بشكل أكثر تفصيلاً من الطبعة الاولى؛ ورأينا وفاء للقارىء العزيز أن نباشر بكتابة تأريخ أهل البيت (ع) على شكل سلسلة «تأريخ ائمتنا» تصدر تباعاً وتحمل عنوان رئيسي« دور أئمة أهل البيت في الحياة الإسلامية»تيمنا بالتسمية التي أطلقها الشهيد الصدر (ق - س) على مقالته، آمل من الله دراسة تحليلية.

- ٢ -

كيف ندرس تأريخ أهل البيت (ع)؟

لقد كتب أهل البيت (ع) التأريخ وصنعوه، أما الآن وفي هذه المرحلة من سقوط الحكم الإسلامي على أثر الغزو الثقافي والعسكري للاستكبار العالمي، حاول المستكبرون عزل الإسلام واسقاطه عن جميع الحقول، حيث أقيمت بدلاً عن الإسلام قواعد فكرية أخرى تصوغ حياة المسلمين على أساسها، وضمن إطار محاولاتهم الدؤوبة والمدروسة لتحطيم الكيان التأريخي والاجتماعي والسياسي للأمة الإسلامية دأب المستكبرون الغزاة على التأكيد على الجوانب الفردية ودفع وتشجيع النظرة التبعيضية في فهم الإسلام.

ولكن بعد ان صحت الأمة الإسلامية على صيحات روادها ومفكريها، اخذت تعي وجودها وتفكر في رسالتها الحقيقية المتمثلة في الإسلام، بعد ان اكتشفت واقع القواعد الفكرية الجديدة ونوع التجارب الاجتماعية التي حملها عليها الاستعمار.

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية الشيعية / الامين ج٢، ص: ٩٤، يراجع مقال «دور الأئمة في الحياة الإسلامية للشهيد السيد الصدر».

ومن الطبيعي ان ينعكس هذا الوعي على مفكري الإسلام ويؤكد احساسهم الذاتي خلال التجربة المريرة التي عاشوها في عصر ما بعد الاستعمار، حيث السقوط والتخلف الحضاري وآثار الغزو الثقافي للمستكبر، وقراءة التأريخ الإسلامي بذهنية متأثرة بالحقد الصليبي والاستشراقي، أو العقلية المادية (اليسارية) حيث التفسير المادي للتأريخ وتصنيف ائمة أهل البيت (ع) إلى يميني ويساري[1]، وهو اسلوب خطير يمارس في انتقائه اللاموضوعي، وفي تزييفه وتحويره، منهجاً مادياً خاطئاً، اشد في بعده عن روح العلم ومسؤولية البحث الجاد أكثر من المناهج الاستشراقية كراهية للأسلام وحقداً على تأريخه المشرق، وإلى غير ذلك من المناهج المتهافتة الذي يكذبه واقع التأريخ الصحيح وتأباه عقيدتنا الإسلامية عن أهل البيت (ع).

لقد اصبح اعداء الإسلام هم الذين يكتبون تأريخنا، وهم يقرأونه لنا أيضاً ! حتى طبّعوا عقول ناشئتنا باعتقاد سائد بأن التمسك بتأريخ ائمتنا (ع) يعني التخلف والرجعية والجمود وان الايمان به يعني التواكل والغفلة والانعزال.

هذا الوعي الفذ هو الذي قاد السيد الشهيد الصدر (قده) إلى دراسة تأريخية جادة وإلى وضع مشروع قراءة ومنهج واعي في كتابه القيم (المدرسة القرآنية) ومن محاضراته عن سيرة الائمة الاثنا عشر (ع) وإعادة كتابة تأريخهم وتقديم هذه القراءة البكر أو التفسير الإسلامي الواعي إلى امتنا الإسلامية الناهضة.

وما أحوجنا نحن الآن إلى أمثال هذه الدراسات الواعية وذلك باغناء تصورنا بقراءة تأريخهم كجزء من العقيدة الإسلامية حتى نتمكن من امتلاك الرؤية الصحيحة، والحكم على واقعنا التأريخي من خلال منظور اسلامي صرف، وذلك ان الحكم على الشيء فرع عن تصوره، ولا يتحصل هذا التصور الا بقراءة متأنية وواعية للتأريخ الاسلامي، فعقيدتنا بأهل البيت (ع) وتأريخهم المشرق هو جزء من الاعتقاد الاسلامي بشكله العام.

ولكن رسوخ النظرة «التجزيئية» والنظر إلى تاريخ ائمتنا (ع) حيث التأكيد

---

(١) راجع كتاب اليمين واليسار في الإسلام / أحمد عباس صالح، ص: ١٤٢.

على الجوانب الفردية والمناقبية لهم، وبأهمال الدراسة الترابطية ـ التوحيدية ـ لتأريخ حياتهم أصيب القارىء المسلم بخيبة أمل وهزيمة نفسية، حطمت معنوياته، وألغت شخصيته وأخذ يحس بتفاهة تأريخ عظمائه وبتفوق تأريخ اعدائه من الغربيين صليبين ويهود.

إن الدروس المستفادة من تأريخ أهل البيت (ع) والعبر التي نتعلمها من ممارستهم فيها عظيم الفائدة لحاضرنا ومستقبلنا، وهذه هي فائدة دراسة التأريخ لكل أمة من الأمم لأن تأريخنا الماضي هو دعامة الحاضر وأمل المستقبل، فلا ينبغي إهماله أو الغاؤه، كما لا ينبغي استنساخه بدون ابراز دروسه وعبره النافعة، فالأمة التي لا تملك أو تفهم تأريخها، فهي كالشجرة التي لا جذور لها، تموت غداً، أن لم تكن قد ماتت اليوم.

- ٣ -

المنهج والأسلوب

لقد درج المؤرخون لسيرة ائمة أهل البيت (ع) على أن يستعرضوا حياتهم من خلال منهجين:

الأول: المنهج التحريفي: -

وقد تأثر هذا المنهج في تناول تأريخ أهل البيت (ع) بصبغة الانحراف والتشويه المتعمد وهذا ما درج عليه أغلب مؤلفي كتب التأريخ العام، كابن العربي، وابن حزم الاندلسي، وابن تيمية، وغيرهم، وهؤلاء كانوا غالباً على اتصال وثيق بالسلطان، أو أنهم من المؤيدين لوضع سياسي يتعارض مع مضمون اطروحة أهل البيت (ع) لذا نرى ان ابن حزم يعتبر «قاتل الإمام علي مجتهداً متأولاً وقد ضربه بالسيف في الصلاة وبمحراب مسجد الكوفة[1] وأما «قتلة عثمان (رض) فأنه لا مجال للاجتهاد في قتله، بل هم فسّاق محاربون سافكون دماً حراماً عمداً بلا تأويل على

---

(١) ابن حزم / المحلى ج ١٠/٤٨٤.

سبيل الظلم والعدوان فهم فساق ملعونون»[١].

وفي صواعق ابن حجر الهيثمي يقول «أن من اعتقاد أهل السنّة والجماعة أن معاوية (رض) لم يكن في أيام علي خليفة ، وإنما كان من الملوك وغاية اجتهاده أنه كان له اجر واحد على اجتهاده»[٢].

وفي نموذج آخر للمنهج الانحرافي نستمع لنصيحة ابن العربي للحسين (ع) إذ يقول «بأنه كان الأولى به ان يتبع حديث جده الذي قال (ص) ستكون هناك هنات، فمن أراد ان يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان، فكان أولى به ان يسعه بيته ويبايع ، ولم يكن يزيد هو الذي قتله ولا واليه عبيد الله بن زياد، بل قتله من استدعاه ثم اسلمه من أوباش أهل الكوفة»[٣].

لذا نرى ان هؤلاء اتبعوا منهجاً تحريفياً، في دراسة حياتهم (ع) فعّدوا الائمة من أهل البيت (ع) في قائمة القادة السياسيين التقليديين الذين يحترفون العمل السياسي لتحقيق مطالب شخصية أو عائلية أو حزبية وأبعدوا عنهم الصفة الرسالية التي تطبع حياتهم ولذا فقد اعتاد هؤلاء المؤرخون ان يصنفوا العمليات الاجتماعية والسياسية والفكرية التي اضطلع الأئمة (ع) بأعبائها حسب حالات الضعف أو القوة والصلابة أو المرونة ، وعلوّ الهمة وضعفها في شخص أي إمام دون سواه ومن هنا فقد صار «الإمام علي (ع) يفتقد إلى مزايا الزعامة السياسية من بعد نظر ويقظة وحنكة وحزم»[٤]، وجعلوا موقف الحسن (ع) من معاوية وأبرام الصلح بينهما من علامات الوهن والضعف وكانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية القيادية»[٥]، وفي حين يعدّ الحسين (ع) في عرف هؤلاء ذا شخصية تتسم بالصلابة وعلوّ الهمة وقريباً من ذلك تفسر كافة المواقف الرسالية التي وقفها أئمة أهل البيت (ع)، فلا تعدوا أن تكون

---

(١) الفضل لابن حزم/ ج٤/١٦١ .

(٢) الصواعق/لابن حجر الهيثمي ص: ٢١٦ .

(٣) العواصم من القواصم / لابي بكر بن العربي.

(٤) صانعوا التأريخ العربي /د. فيليب حتى/ص: ٦٣.

(٥) عقيدة الشيعة الإمامية/ رونلدنسن.

أساليبهم عبر حياتهم العملية سلسلة من الانتصارات أو الاخفاقات السياسية التي تكتنف حياة أي سياسي آخر سواهم تبعاً لعوامل ذاتية وموضوعية.

الثاني: المنهج التجزيئي: -

لقد تناول المؤرخون والكتّاب الشيعة تأريخ أهل البيت (ع)، وعرضوا لحياتهم ونشاطهم ولكنهم سجلوها كما وردت في المرويات التأريخية، في حالة تناثر مجزأ وتراكم عددي، والنظر إليها نظرة تجزيئية دون ان تكون عند أكثرهم القدرة والرؤية على النظر الشامل لتأريخهم العظيم، والخلوص إلى العبر أو إعادة ترتيب النصوص التأريخية وفق منهج محدد، بشكل يحقق العبرة والمثال للقارىء المسلم.

ونود ان نشير في معرض هذه الحقيقة أن المؤرخ ضمن إطار هذا المنهج التجزيئي «يقطع نظره عن سائر الاحداث التأريخية الأخرى ولا يستعين بها في فهم الحادثة أو القصة التأريخية المطروحة للبحث، بل قد يستعين ببعض الحوادث والمرويات التأريخية ولكن الاستعانة في الاعم الاغلب تتم بقصد الكشف عن مدلول الحدث التأريخي الخاص الذي تحمله الرواية التأريخية المطروحة للبحث»[1]، فالهدف في كل خطوة من النظرة التجزيئية للتأريخ، التي يواجهها المؤرخ بكل الوسائل الممكنة هو هدف تجزيئي «استاتيكي» يفصل الحادثة المفردة عن الترابطية الشمولية للتأريخ، وبذلك تضيع الكثير من الحقائق الموضوعية على القارىء عندما يطالع حياة ائمة أهل البيت (ع) بهذا الهدف المجزأ الناقص.

ولكن التفسير الشيعي - التجزيئي - حسبه انه قدم المعلومات بدقة وأمانة علمية، ليأتي الدارسون والمتخصصون بتأريخ أهل البيت (ع) للاستفادة منها وتسليط الأضواء عليها لتحصيل الفائدة لحاضر المسلمين ومستقبلهم.

والمنهج التجزيئي في دراسة حياة الائمة (ع) وإن كان ضرورياً لدراسة كل إمام بصورة مستقلة وكان يمتاز بسلامة القصد غالباً، إلا انه يعرض حياة الائمة (ع) كما لو كانت متباينة ومتناقضة، فالحسن يهادن، والحسين يثور، والسجاد يمارس

---

(١) راجع للاستفادة المدرسة القرآنية، للسيد الشهيد محمد باقر الصدر.

الدعاء، بينما الإمام الباقر تتسم حياته بالحديث والفقه.. الخ.

ولئن كانت خطورة المنهج التحريفي السابق تتجلى في فصل الائمة عن خطهم الرسالي الملتزم، فأن خطورة المنهج التجزيئي تتسم في عدم التصدي لاكتشاف العامل المشترك الذي يوحد بين اساليب الائمة (ع) منبعاً ومصباً، ودراستهم كوحدة مترابطة الاجزاء يواصل كل جزء في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمله.

وقد يؤدي المنهج التجزيئي في بعض الحالات إلى ظهور تناقضات شكلية في حياتهم (ع) يكتنفه الكثير من الغموض الذي يصعب فهمه على كثير من القراء والدارسين، فيما كان بالأمكان تفادي هذه التناقضات الشكلية بين الادوار التي مارسها الائمة (ع) لو إننا خطونا خطوة ثانية باتجاه المنهج الترابطي التوحيدي، حيث يبدو الاختلاف والتناقض على مستوى المنهج الترابطي مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، وإنما اختلف التعبير عنها وفقاً لاختلاف الظروف والملابسات التي مر بها كل إمام وعاشتها القضية الإسلامية في عصره عن الظروف والملابسات التي مرت بها الرسالة في عهد إمام آخر»[1].

أما المنهج التجزيئي في البحث، فهو يعتمد على السرد التأريخي للوقائع دون أن يدرس ويحلل الظروف الموضوعية، فاستجابة المؤرخ فيها استجابة سلبية، مهملاً توظيف الوقائع التأريخية المتنوعة لسيرتهم (ع) والتصدي لاكتشاف الخصائص العامة والدور المشترك للائمة، لأننا نعتقد بأن وجود دور مشترك مارسه الائمة ليس مجرد افتراض نبحث عن مبرراته التأريخية، وإنما هو ما تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الإمامة بالذات، لأن الإمامة واحدة في الجميع بمسؤولياتها وشروطها، إذ ليس هناك فارق بينهم في حساب الله عز وجل فإن كل واحد منهم إمام معصوم، فيجب ان تنعكس انعكاساً واحداً في سلوك الائمة وأدوارهم مهما اختلفت الوانها الظاهرية بسبب الظروف والملابسات.

---

(١) دور أئمة أهل البيت في الحياة الإسلامية، الشهيد السيد الصدر.

وقد اعتمد المنهج التجزيئي لدى مؤرخي حياتهم بالأساليب التالية : -

الأول: أسلوب السرد الروائي التأريخي:

وهو أسلوب تناول فيه المؤرخون الاحداث التأريخية وفقاً لتسلسل وقوعها زمنياً مع التركيز على إبراز جانب الاثارة العاطفية من تأريخهم، وإظهار الأئمة من أهل البيت (ع) وخصوصاً بعد مذبحة كربلاء، بأنهم اعتزلوا السياسية وانصرفوا إلى الإرشاد والعبادة والانقطاع عن الدنيا، وحاولوا معالجة المواقف السياسية التي اتخذها الأئمة (ع) باعتبارها مواقف استثنائية اقتضتها الظروف، وسرعان ما كان الأئمة (ع) يتراجعون إلى موقفهم الطبيعي وهو موقف من يهتم بابراز الاحكام الشرعية والتوعية العلمية، وغاب عن اذهانهم بأن أئمة أهل البيت (ع) - كما هو في تأريخهم الصريح- يمثلون الامتداد الطبيعي لمسيرة الانبياء ومسيرة الرسول (ص) بالذات، وان التأريخ الثابت لأئمة أهل البيت (ع) ينفي عنهم هذه التهم ويثبت ان حياتهم كانت سلسلة من التضحيات في سبيل الصالح العام «ويكفي هنا ان نذكر إضافة إلى التأريخ الثابت أن الإمام زين العابدين علي بن الحسين (ع) الذي شهد بنفسه فاجعة كربلا، وعاشها ساعة بعد ساعة بكل آلامها واحزانها، كان يدعو لأهل الثغور جنود النظام الأموي الذي ارتكب جريمة كربلاء والذي أسّره مع عماته وأخواته وما ذلك الدعاء من الإمام زين العابدين إلا وعياً فذاً منه لدور جيوش الثغور في حفظ المجتمع الاسلامي من اعدائه، وان كان هذا الجيش يحمي أيضاً نظام الامويين»[1].

الثاني: الأسلوب المناقبي التأريخي:

وهو اسلوب اعتنى بابراز مناقبية أهل البيت (ع) وذلك من خلال صراعهم وجهادهم مع الاعداء، بذكر فضائل أهل البيت (ع) وما يتمتعون به من رفعة في ميزان الاخلاق ومظاهر البطولة النادرة والسمو الانساني، وذكر رذائل أعدائهم وما يتصفون به من انحطاط في سلم القيم ولا بأس أن يتحول التأريخ عندهم إلى زهو تأريخي مجرد، محولاً تأريخهم العظيم إلى مجرد طبل أجوف لا تسمع منه إلا رنين

---

(١) راجع كتاب ثورة الحسين في الوجدان الشيعي / محمد مهدي شمس الدين، ص: ٣٩.

المديح والاعجاب والتقديس دون التأسي بسلوكهم واساليب عملهم، ويظل الانسان في ظل هذا الاسلوب من البحث يعيش في غيبوبة تأريخية صوفية حالمة بعيدة عن الواقع، مما يؤدي إلى الضعف الساحق الذي يفقد الانسان فيه الثقة بنفسه وبقدرته على الابداع والتركيز، عندما يتحول إلى عيون مفتوحة ومبهورة بالماضي، مغلقة عن الحاضر[1].

وقد حاول بعض المؤرخين من خلال هذا الاسلوب المناقبي إلى تصوير حياتهم (ع) بطريقة تضعهم في اعلى مستوى من القمة المثالية، بطريقة توحي لقارىء التأريخ باستحالة مجاراتهم أو محاكات تجاربهم القيمة، مستهدفين باسلوبهم المنفوخ هذا تحويل الأمة إلى ذيل للتأريخ، «وتتنوع على ضوء هذا الاسلوب الذي يضخم احداث هذا التأريخ وشخصياته إلى ما يشبه «التدرن العضوي» وإلى اعتبار أن تأريخهم فوق مستوى الأمة»[1].

الثالث: الاسلوب المعجزي أو التفسير الاسطوري: -

وهو اسلوب اعتنى بالتركيز وابراز الكثير من ممارساتهم وصراعهم (ع) مع اعدائهم على شكل معاجز (اسطورية) كانوا يحققون فتح مغاليق صراعهم وازماتهم السياسية من خلالها مع اعدائهم، ونحن بهذا الصدد لا نريد أن ننكر على ائمة أهل البيت (ع) كراماتهم، ولكن الذي نريد أن نؤكد القول عليه بأن المعجزات الكونية وما اجراه الله تعالى على ايدي انبيائه[2] كانت الوسيلة المثلى إلى اقناع الاقوام آنذاك، والاسلوب الذي اخذ الله به الكافرين من خسف، واغراق وصواعق، والله يقول **﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلّا أن كذّب بها الأولون﴾** الاسراء / ٦٩.

وعندما تحدى مشركو قريش النبي (ص) أن يأتي بالمعجزات الكونية كالانبياء السابقين، أجابهم الله تعالى في كتابه بالحوار التالي:

---

(١) راجع الإسلام ومنطق القوة / محمد حسين فضل الله، ص: ٦٩.

(٢) كعصا موسى، واستظلال ناقة صالح، حمار العزيز، والبحر الذي انشق لموسى وطوفان نوح.... الخ.

﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الانهار خلالها تفجيراً، أو تسقط السماء كما زعمت علينا خسفاً، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء، ولن نؤمن لرقيّك حتى تنزّل علينا كتاباً نقرأه، قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا﴾ الاسراء / ٩٠ ـ ٩٢.

وإذا كان العهد النبوي قد جمع بين المعجزة الاساسية القرآن وبعض المعجزات الهامشية الكونية[1] فقد ذهبت هذه المعجزات مع التأريخ كما ذهبت معجزات الانبياء السابقين، وبقي القرآن وحده معجزة غير مسبوقة ولا ملحوقة، معجزة لها صفة الاستمرار ما بقيت الحياة، وبقاء القرآن معجزة تنهي مراحل المعجزات الكونية، ولا يبقى أمام المسلم إلا ان يعتمد ـ مع إيمانه الراسخ والتسديد الالهي والمدد الغيبي ـ على جهده العلمي وتخطيطه لحاضره ومستقبله، فمع انتهاء عهد النبوات والمعاجز بقي ان يحسن الناس عملية التخطيط والاستفادة من الخطوط الرئيسية، مستفيدين من سنن التأريخ ومجريات القانون الكوني التي ذكرها القرآن الكريم ليصوغوا بها حياتهم ويصنعوا بها تأريخهم.

فالمسلمون انتصروا في بدر حينما كانت الشروط الموضوعية للنصر بحسب منطق سنن التأريخ تفرض ان ينتصروا، وخسروا المعركة في احد حينما كانت الشروط الموضوعية في معركة احد تفرض عليهم ان يخسروا المعركة: **﴿ان يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾** آل عمران/ ١٤٠.

«فالنصر ليس حقاً إليها، وإنما حق طبيعي، وذلك بقدر ما يمكن توفير الشروط الموضوعية لهذا النص بحسب منطق سنن التأريخ التي وضعها الله سبحانه وتعالى كونياً لا تشريعياً»[2].

«لذلك نحن نشعر إن علينا ان نخطط لعمل الدعوة، وان نطلق الفكرة، وبعد

---

(١) كتكثير الطعام بين يدي رسول الله (ص) وشق القمر، واستدعاء الشجرة... الخ.

(٢) المدرسة القرآنية/ السيد الشهيد الصدر.

ذلك هناك سنن الله في الأرض، التي تعطي الفكرة قوة تجعلها تتحول إلى الواقع، وقد لا تعطيها هذه القوة لأن طبيعة سنن الله التي أرادت للحياة ان تنطلق من خلال قانون السببية في الكون قد لا تمنح تلك الفكرة القوة، ونحن نلاحظ ان الانبياء كانوا يقتلون والمجاهدون والأئمة (ع)، كانوا يقتلون، ولم يتغير الكون في هذا المجال لأن الله لم يوجد الحياة على أساس المعجزة، ولهذا فأننا حين ندعو للإسلام لا ندعو له من خلال المعجزة، وإنما ندعو للإسلام كما يدعو الآخرون إلى غير الاسلام من خلال الوسائل التي نمتلكها الآن، ومن خلال الوسائل التي يمكن ان نحصل عليها الآن»[1]

وعلى ضوء هذه الحقيقة القرآنية، جاءت حياة أهل البيت (ع) تعبيراً حياً لانتقال التأريخ الانساني والإسلامي من عصور معجزات الانبياء إلى عصور جديدة، يحمل فيها الانسان مسؤولية عمله، ويخطط على هدى وبصيرة دون ان ينتظر مائدة من السماء، وانغلاق البحر أو تفجر الماء من الصخر، أو تحول العصا إلى ثعبان. . . الخ.

وقد اعطانا تأريخ أئمة أهل البيت (ع) النموذج التطبيقي الرائع للارتباط العضوي الحميم بين الاسباب والنتائج الملموسة لواقع عملهم العظيم.

فالنصر صناعة والهزيمة صناعة أيضاً، يقول الله في كتابه الكريم:

﴿ولما أصابتكم مصيبة ـ في احد ـ قد اصبتم مثليها ـ في بدر ـ قلتم انىّ هذا قل هو من عند انفسكم أن الله على كل شيء قدير﴾ آل عمران ١٦٥.

فالمنهج التجزيئي، مع الاعتراف بضرورته كخطوة اولى في اعتماده كمدخل لدراسة حياتهم (ع) لكنه يبقى «منهجاً عاجزاً عن تحقيق هدف معاصر له اهمية بالغة في تحقيق التكامل والوعي السياسي لدى الانسان المسلم، حيث ان الباحث لا يستطيع وفقاً لهذا المنهج أن يفهم ويقدم تأريخ أهل البيت (ع) إلى الانسان الحد...

---

(١) مجلة الشراع/ العلامة السيد محمد حسين فضل الله.

على ضوء المعطيات المعاصرة في المسألة الاجتماعية، لا يستطيع ان يكتشف عناصر الديمومة والاستمرار لتأريخ أهل البيت (ع) هذه العناصر التي تجعل من تأريخهم شيئاً ذا صلة بالحاضر الحي قادراً على اغناء الحاضر وتزويده بعناصر من الفكر والرؤية تجعل النضال في حقل المسألة الاجتماعية، يجمع إلى جانب الحداثة، الاصالة الضرورية للحفاظ على سلامة الشخصية الانسانية من التشويه والذوبان في غمرة المتغيرات المتسارعة لحضارة مادية غير انسانية، هي الحضارة المادية الحديثة[1].

أن النقص الذي يعاني منه المنهج التجزيئي، يعالجه ويتلافاه، المنهج الترابطي (التوحيدي)، والذي نحاول ان نترسم خطاه في هذه الدراسة المتواضعة ولو على صعيد التقسيم المرحلي، واكتشاف العامل المشترك الذي يوحد بين اساليب عمل أئمة أهل البيت (ع) ودراستهم كوحدة مترابطة الاجزاء يواصل كل جزء دور الجزء الآخر ويكمله.

والمنهج الترابطي هو المنهج المفضل والضروري لفهم الكثير والغامض من سيرة أهل البيت (ع) وابراز أهمية دورهم (ع) في الحياة الاسلامية، والتي من شأنها ان نلقي لنا الاضواء على دورهم العظيم في حياتنا الاسلامية المعاصرة.

الثالث: المنهج الترابطي (التوحيدي):

ثمة بعد مهم من أبعاد تأريخ أهل البيت (ع) لم يتناوله المؤرخون في دراساتهم للأئمة (ع) واعني به البعد الترابطي الشمولي والفهم المرحلي لتأريخهم، وأن دراسة هذا البعد من أبعاد تأريخهم ضروري لتحقيق الأهداف التالية: ـ

اولاً: معرفة العامل المشترك الذي يوحد بين اساليب عمل الأئمة (ع)، ودراستهم كوحدة مترابطة الاجزاء، يواصل كل جزء في تلك الوحدة دور الجزء الآخر ويكمله ومدى انسجام وتفاعل اسلوب كل إمام مع الآخر، تلك الاساليب التي تتواجد

---

(١) راجع ثورة الحسين ظروفها الاجتماعية/ محمد مهدي شمس الدين ص: ٥، ٩.

من خلال ظروف موضوعية يحتاجها العمل التنفيذي الآني مشروطاً ببيئته «الزمكانية».

ثانياً: الاحاطة التامة بطبيعة الحادثة التأريخية، ودراستها بشمولية مترابطة مع بقية الأحداث الأخرى في حياة الأئمة الآخرين بوجود الهدف الواحد الذي سعى الجميع إلى تنجيزه ، من خلال أدوار عمل بالغة الدقة في التخطيط ، مستفيداً من الظروف التي سبقتها والتي واكبتها، والتي تلاحقت بعدها اضافة إلى ربط الماضي بالحاضر.

ثالثاً: دراسة الواقع الخارجي المعاصر، بحصيلة التجربة البشرية حيث يتزود بكل ما وصلت إلى يده من حصيلة هذه التجربة التأريخية الثرة ومن افكارها ومضامينها، ثم يعود لممارسات وتأريخ أهل البيت (ع) ليستفيد ويستلهم من تأريخهم (ع) فيقف منه موقف المحاور، موقف من يطرح الاسئلة التأريخية التي ظهرت على ضوء تلك الحصيلة البشرية، وعلى ضوء التجربة التأريخية التي استطاع قراءتها في المنهج التجزيئي ليتم تلقي الاجوبة من خلال عمليةالحوار من ثنايا مواقفهم وممارساتهم التأريخية التي تتواجد من خلال ظروف موضوعية يحتاجها العمل التغييري.

رابعاً: إعتماد النصوص التأريخية الصحيحة الواردة في المنهج التجزيئي للتعرف على خصائص عملهم والمراحل التأريخية التي مروا بها، سعياً إلى تحطيم فكرة التقديس المفرط الذي اتبعته النظرة الساذجة للتأريخ ، والتي تعتبر نقد الماضي تحطيماً لقدسية التأريخ .

إن تأريخ أهل البيت في الواقع هو ضرورة متحركة متفاعلة مع عقل الأمة وعاطفتها وليس تراثاً محتطاً تربطنا به علاقة نظرية، بل هي علاقة متبادلة «ديناميكية» تعكس تفاعل الأمة بتأريخ أهل البيت (ع) في حركة أخذ وعطاء مستمرة.

خامساً: عدم الانجرار وراء النظرة التجزيئية في دراسة التأريخ ودون ان تدفعه الدراسة المتناثرة للنصوص والآثار التأريخية ونزعة الاتجاه «التبعيضي» إلى الانجرار وراء الفكر المذهبي المسبق ومحاولة فرضه على تأريخهم، كطريقة لبقة لاعطاء

تأريخهم الصفة المعجزية والمقدسة أو منح اساليبهم الدعوتية التي مارسوها صفة الاستيعاب والشمول لكل ما كان ويكون من اساليب العمل والتخطيط الدعوتي وتلك طريقة منحرفة تسيء إلى تأريخ أهل البيت (ع) أكثر مما تحسن إليه.

سادساً: التخلص من التناقض الظاهري «الشكلي» الذي تعكسه الدراسة التجزيئية لتأريخهم (ع) باعتبارها تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، فتباين اساليب العمل عند الائمة (ع) لا تعني اموراً مزاجية أو مصلحية، تخضع لأهوائهم ومشتهياتهم أو ميولهم العاطفية بل هي تعبير، عن الأخذ بشروط الحكمة فيما تمنحه لهم الفرص الموضوعية والاستعداد للقيام بهذا العمل أو ذاك ولهذا نرى ان الاسلوب المفضل لدعوة الأئمة (ع) في ابعادها «الزمكانية» والموضوعية، تكون معقولة ومجدية في وقت معين، ومفروغة من جدواها ومعناها في ظرف آخر، لأن هناك ظروفاً وملابسات تفرض اشكالاً مغايرة ومتنوعة في التنسيق والوعي العملي للتغيير.

ومن هنا تبرز أهمية الدراسة الترابطية التوحيدية لدور الأئمة في الحياة الإسلامية والتي من شأنها إبراز المكانة الحقيقية لدورهم العظيم، وهي دراسة اتبعت التقسيم المرحلي في اكتشاف أبعاد جديدة وأعماق بكر، ذات مضمون جديد، تنسجم مع التطلعات التي يحملها الانسان المسلم المعاصر إلى مجتمع تسوده دولة إسلامية كريمة.

وهذا كانت نتائج المنهج الترابطي نتائج مرتبطة دائماً بالصيرورة التأريخية وحركة التأريخ، لأنها تمثل المعالم والاتجاهات المعاصرة لحركة الانسان الداعية.

فوظيفة المنهج الترابطي دائماً وفي كل مرحلة، وفي كل عصر، تحمل بالضرورة تراث البشرية التأريخي الذي عاشته ويحمل أفكار عصره ويحمل المقولات التي تعلمها في تجربته العملية، ثم يضعها بين يدي تأريخ وممارسات الأئمة المعصومين (ع) ليحكم ويستنتج من خلال هذه الحصيلة على اختيار أقرب الاساليب العملية إلى نفوس الناس واذهانهم فقد يصلح الوعظ والإرشاد في بيئة اجتماعية، بينما يثمر العمل السياسي على ضوء الإسلام في بيئة أخرى، وقد يؤتي العمل المسلح ثماره اليانعة في مجتمع ووقت معين في حين لا يغني مثل هذا الاسلوب في مجتمع آخر.

وبهذه المنهجية الترابطية، نتعلم كيف يلتحم تأريخ أهل البيت (ع) بالواقع المعاش، يلتحم بالحياة، لأن صناعة التأريخ المعاصر تبدأ معايشته من خلال ممارسة الواقع المعاش، وتنتهي إلى تأريخهم المشرق (ع). وتاريخ ائمتنا (ع) بالنظرة التوحيدية ليس تأريخاً منعزلاً عن الواقع المعاصر وغير منفصل عن تراث البشرية، بل هو تأريخ يبدأ بالبحث في الواقع لينتهي مستنيراً بخطوات الحركة التغييرية التي مارسها خط الامامة، بالحدود التي تسمح بها ظروف الانسان في المرحلة الراهنة مستفيدين من تجارب الآخرين في العمل الاجتماعي، إسلاميين كانوا أم غير إسلاميين «ضمن اطر المبادىء الإسلامية طبعاً» لاغناء تجربتنا في العمل التغييري بذلك.

وبهذا الفهم والقراءة يبقى لتأريخهم (ع) حينئذ قدرته على القيمومة دائماً على حركتنا التأريخية، وقدرته على العطاء المستجد دائماً وقدرته على الابداع، فمن هنا كان المنهج الترابطي قادراً على أثراء وتطوير تجربتنا التأريخية المعاصرة، بعد المعاناة والتأمل الجيد على ضوء التجربة العملية المعاصرة، ويجعل هذا الثراء محمولاً إلى فهم دقيق لتأريخ الأئمة المعصومين من أهل البيت (ع)

هل المنهج الترابطي يلغي المنهج التجزيئي؟

المنهج الترابطي لم يكن بديلاً يستغنى به عن المنهج التجزيئي، بل ان المنهج التجزيئي هو خطوة اولى ضرورية للانتقال بها إلى النظرة الترابطية (التوحيدية).

فالنظرة التجزيئية تمثل (الثابت) في فهم العرض التأريخي ونصوصه، في حين يمثل المنهج الترابطي الخطوة (المتغيرة) والشمولية كخطوة تالية لها، وبتفاعل المنهجين «الثابت والمتغير» والجدل بينهما، يكون قد ارسينا العلاقة الصحيحة والرؤية المثلى لعلاقة المؤرخ بالماضي للوصول إلى الحاضر، وجعل التأريخ ودراسته أداة فعالة «تغييرية» في يد الانسان الثوري.

فالمنهج الترابطي خطوة متقدمة، في ـ سياق التحليل التأريخي ـ تلي المنهج التجزيئي الذي يكتفي ـ عادة بإبراز الاحداث التأريخية التفصيلية، ليحاول بعدها المنهج الترابطي ان يستحصل أوجه الارتباط بين مدلولات الاحداث التأريخية

وتطورها عبر مراحل عمل تتميز باهداف موحدة تعززها ضرورات تطور حركة التأريخ، بفعل عملهم وتخطيطهم (ع) واكتشاف دور مشترك مارسه الأئمة (ع) جميعاً ضمن ابعاد البيئة (الزمكانية) باعتبارهم سلسلة متصلة الحلقات «كتاب الله الناطق» ولأنهم يحملون همّ رسالتهم الأمر الذي جعل من ممارساتهم وحدة متكاملة تهدف إلى بناء العقيدة وتكريس دورها في الحياة، وهذه المنهجية هي التي تجعل كل إمام يحتل موقعه المناسب من تلك الحلقات المتسلسلة.

فالمنهج التوحيدي يتقدم خطوة على المنهج التجزيئي بقصد الحصول على الدور الواحد والهدف المشترك، وهناك الكثير من الجوانب والدراسات التي يمكن ان يتناولها أو أن يكشف عنها المنهج الترابطي كدراسة محاولة الأئمة (ع) في شد الأمة إلى الإسلام وممارستهم لتحقيق ظاهرة التفاعل بين الأمة والإسلام والتركيز على ظاهرة الاسلوب لتحقيق هذه الدراسة وبشكل متكامل لدى كل إمام من الائمة (ع)، فعلى سبيل المثال موقف الإمام علي (ع) إزاء الحكم، الذي تمثل بموقف الصبر والمداراة ودعم التيار السياسي حتى اصبح بمثابة السلطة التشريعية للخلفاء طيلة خمس وعشرين سنة، وليس هذا من باب إقرار سياسة الأمر الواقع أو الميكافيلية السياسية، وإنما هو الاسلوب الأمثل الذي حقق بـه المصلحة الاسلامية العليا، والموقف الأفضل من طبيعة الواقع الفكري والنفسي الذي عاشته الأمة الإسلامية آنذاك طيلة هذه الحقبة من حياتها.

وكان هناك اسلوب آخر في موقف الإمام علي (ع) بعد مصرع الخليفة عثمان ابن عفان، لأن الواقع الفكري والنفسي للأمة، قد استجدت فيه متغيرات بحيث اصبحت هذه الأمة قادرة على تشخيص الخطأ ومواجهة انحراف الحكام؛ وقد أدركت وظيفتها الحقيقية؛ ودورها الفاعل الذي أراد لها الإسلام أن تلعبه، فتغيير الممارسات والاساليب العملية لدى الإمام (ع) إنما جاء تبعاً لطبيعة الظرف الجديد والتي آلت إليه حالة الأمة.

أما عندما وصلت الخلافة إلى الإمام الحسن (ع) وتصديه لمسؤولية الحكم، كانت الأمة آنذاك بفعل ظروف موضوعية سابقة لحكمه، وقد انهكتها الحروب الداخلية، حيث اصبحت الحرب لأول مرة في تأريخ المسلمين حرباً إسلامية -

اسلامية بين وجوه المسلمين انفسهم «طبعاً البغاة منهم» فأصيبت الأمة بحالة من الشك العاصف مغبّشاً الرؤية على المسلمين «غير الواعين» حيث اصبحوا لا يميزون الحق من الباطل فجاء الإمام الحسن (ع) بصلحه وقراره الصائب بأن يهادن مؤقتاً ، ويفسح المجال لمعاوية يستولي على العالم الإسلامي لكي يكشفه، ويكشف واقعه الجاهلي للجماهير المسلمة، ويمارس بعد ذلك اسلوباً لشد الأمة بالإسلام الحقيقي البعيد عن الغبش معرّفاً بذلك اولئك المسلمين البسطاء والذين لم يكونوا يعرفون إلا ما يرون بأعينهم وحواسهم من هو معاوية؟ وما هو واقعه وواقع حكمه، ومن كان علي ابن أبي طالب؟ وماذا كانت اطروحته؟هذا الاسلوب الذي مارسه الإمام الحسن (ع) مع معاوية كان بمثابة خيبة أمل معاوية في تحقيق سياسته الماكرة، في دعوته الخادعة للمصالحة مع الحسن (ع) الذي أراد ان يتلبس وجه من يريد حقن دماء المسلمين، بعد ان أدرك أنّ نتائج الحرب ستكون لصالحه، وهو يرى تصلب الحسن (ع) وإصراره على خوض المعركة، بهذا الاسلوب تمكن الحسن (ع) ان يخلص الأمة من حالة الشك، ولكنها لم تقو بعد على مجابهة الظالم، لأنها لم تمتلك قوة الإرادة الحقيقية التي امتلكها المسلمون من جيل الخليفة عثمان ، عندما واجهوا الانحراف بقوة السيف وبعدها يأتي دور الإمام الحسين (ع) الذي يشترك مع سابقيه من أئمة أهل البيت (ع) في شد الأمة إلى الإسلام فأقدم على تحريك الضمير الثوري وممارسة تأنيب الضمير باستشهاده الفاجع ، من خلال احداث هزة عنيفة في الأمة، لاحياء واقعها على مواجهة واقع الانحراف ، فما كان من امامنا الحسين (ع) إلا أن يمارس اسلوب العطاء الدموي في هذه المرحلة.

وعندما تصدّى الإمام السجاد (ع) إلى تربية الأمة وشدها بالإسلام فأنه استثمر شفاء الأمة من مرحلة الشك وايقاظ ضميرها مرفداً الأمة بالمفاهيم الفكرية والعاطفية عن طريق الدعاء والتضرع إلى الله، لترسيخ المفهوم الإسلامي في وجدان الأمة، أي أنه استثمر الحالة النفسية والفكرية لما كانت عليه الأمة بعد ثورة الحسين (ع) فأختار الاسلوب الأمثل لمواجهة مثل هذه الحالة.

وفي زمن الإمامين الباقر والصادق (ع) تحول الاسلوب إلى ثورة تنظيمية في رص صفوف الشيعة كطليعة للأمة الاسلامية وإلى مدرسة علمية متعددة الجوانب،

في ظرف حاولت فيه السياسة الغاشمة ابعاد الأمة عن اسلامها بالاساليب الفكرية الدخيلة واغراقها بمدارس فقهية منحرفة ومدسوسة، والمترجمة ، والتصورات الخاطئة، حتى اصبحت في وضع تحتاج فيه إلى تيار علمي يعمل على شدها بعقيدتها ويفند كل المزاعم الفكرية والمقولات الوافدة ، وبقي تيار الإمامة والقيادة الحقيقية الكفوءة يقود الأمة باتجاه تمسكها بالإسلام وفق الاساليب النافعة التي تحقق مثل هذا الهدف الكبير، وحتى عندما وصل الأمر إلى الإمام المهدي (عج) فأنه لم يترك الفرصة دون التأكيد على دور القيادة في حياة الأمة، فمهد لها بظاهرة السفراء الاربعة ، ثم ربط الأمة بعد ذلك بتيار العلماء الواعين القادرين على تحقيق الأهداف الكبيرة والتي نذر الأئمة الأطهار (ع) حياتهم من أجلها.

وهنا لابد من الإشارة إلى ان الفصل بين المنهجين المذكوريين، ليس حدياً على مستوى الواقع العملي لعملية دراسة التأريخ ، على ضوء حاجة المنهج الترابطي إلى نظرة تجزيئية للتأريخ لتحديد نظرته الشمولية في استيعاب المدلولات التجزيئية التي ينبغي التعامل معها ضمن إطار الموضوع الذي يريد درسه وبحثه.

المنهج التجزيئي عامل إعاقة!

إن الاكتفاء بالطريقة التجزيئية في دراسة تأريخ أهل البيت (ع) تشكل عامل إعاقة باتجاه النمو، وتوسيع نطاق حركة الابداع والاجتهاد، لأن النظرة التجزيئية، تمثل موقفاً سلبياً، دون أي افتراض لدور مشترك، وعامل موحد لاساليب عملهم المترابطة الاجزاء، وباعتبارهم إمتداداً رسالياً لمواصلة القيادة الإسلامية في بناء الأمة، بل تقتصر النظرة التجزيئية بالوقوف في حدود دراسة كل إمام ، باعتبارهم حلقات منفصلة وهذه قد تظهر للوهلة الاولى تبايناً في السلوك ـ من الناحية الشكلية ـ بين الأدوار التي مارسها الائمة (ع) دون ان يدرك القارىء، لماذا هادن الحسن (ع) ولماذا ثار الحسين (ع) . . . الخ ، وهنا تظهر خطورة الاكتفاء بالمنهج التجزيئي في دراسة تأريخ أئمتنا (ع)، حيث انها ستقدمهم للقارىء كقادة من السياسيين التقليدين الذين يحترفون العمل السياسي لتحقيق مطالب شخصية، أو عائلية ، أو حزبية، إضافة إلى انه قد يوقعنا هذا الفهم في تبرير التعامل مع الواقع الفاسد.

المنهج الترابطي الأسلوب الامثل

لقد تبين قصور الاكتفاء بالمنهج التجزيئي في دراسة تأريخ أهل البيت (ع)، ورأينا ضرورة ان نخطو الخطوة الثانية باتجاه المنهج الترابطي، الذي يكشف لنا العامل المشترك لاساليب عملهم ودراستهم كوحدة مترابطة الاجزاء، باعتبار تأريخهم الإسلامي حركة منسابة في سياق المرحلية التأريخية التي عاصروها، فيحيل المنهج الترابطي مجموعة الأخبار والاحداث التأريخية المتناثرة في كتب التأريخ إلى مركبات ومجاميع تأريخية هادفة ومتناغمة مع استراتيجية اهداف عملهم المرحلي لتغيير الواقع الفاسد الذي عاشوه.

وبهذا المنهج نزيل من ذهن القارىء أي تصور ضيق لتأريخ أئمة أهل البيت (ع) ونصحح كل الآثار السيئة وانعكاساتها على المسلمين الذين رأوا في صلح الإمام الحسن (ع) مهادنة وتنازلاً مذلاً، ورأوا في الإمام السجاد (ع) انعزالاً وابتعاداً عن الحياة السياسية.

وبهذا المنهج التوحيدي يظهر تأريخ الأئمة (ع) كوحدة واحدة على اعتبار انهم يمثلون كتاب الله الناطق، وفي عقيدتنا ان وجود دور مشترك مارسه الأئمة جميعاً ليس مجرد افتراض نبحث عن مبرراته التأريخية، وإنما هو ما تفرضه العقيدة نفسها وفكرة الإمامة كامتداد لمفهوم النبوة ومواصلة دورها القيادي في الأمة الإسلامية بعد الرسول (ص).

وهذا المنهج يزيل لنا كل التناقضات الشكلية والاختلافات الظاهرية، لأنها تبدو وعلى ضوء هذا المنهج مجرد تعابير مختلفة عن حقيقة واحدة، وإنما اختلف التعبير عنها وفقاً للظروف الموضوعية التي عاشتها القضية الإسلامية، والتي مرت بها الرسالة في عهد كل إمام من أئمة أهل البيت (ع).

وعلى ضوء هذا المنهج الترابطي نضع أيدينا على حقيقة تأريخية، بأن الاساليب العملية التي يجب تبنيها هي ذات طابع «متغير» تبعاً للظروف التي تمر بها الأمة وبناء على بعدها أو قربها من الرسالة الإسلامية.

وهذا التبدل والتنوع لاساليب عمل الأئمة (ع) يأتي بفعل الظرف الموضوعي الذي يعاصره كل إمام وتشمل هذه الظروف على ما يلي:

(١) حالة الأمة الفكرية والعقلية والنفسية.
(٢) حالة الأمة السياسية والاجتماعية.
(٣) درجة وعي الأمـة.
(٤) علاقة الأمة برسالتها وبقيادتها الشرعية.

وهناك قضية أخرى بالغة الأهمية يتناولها المنهج الترابطي، بالالتفات والاهمية الا وهي إدراك المتغيـرات المطردة والصيـرورة المتجددة في حيـاة النـاس ووعي حاجاتهم والعمل على اجتياز اقرب الاساليب العملية إلى نفوسهم واذهانهم، وقد تكون هناك ظروف أخرى قد تساهم في تحديد السلوك العملي التي تفرض نفسها على ممارسات أئمة أهل البيت (ع).

وفي إعتقادي ان إهمال المنهج الترابطي في دراسة الائمـة (ع) والاكتفاء بالمنهج التجزيئي، يجعل الصورة التأريخية لعملهم وجهادهم مشوهة وقلقة وناقصة، «ومن هنا» اضحى التأريخ عندنا ـ بالنسبة إلى الجماهيـر ـ مجرد انعكـاس لحياة ـ سابقة لا يسهم في تكوين الشخصية الانسانية المتكاملة»[1]، ويبدو لي ان اعتماد المنهج الترابطي هو المنهج الأمثل في التعامل مع تأريخ الائمة (ع)، فأن تأريخهم قد تعرض إلى الكثير من التشويـه والتمزيق من المؤرخين قـديماً، والـذين كانـوا يتملقون السلطة أو يخـافون منها، ومن المستشرقين حديثاً وتلامذتهم، حيث الغزو الثقافي الاستعماري.

خـلاصة البحـث:

نستخلص من المنهج الترابطي، بأن هناك دوراً مشتركاً في تأريخ الائمة (ع) وموقفاً عاماً وقفوه في خضم الأحداث والمشاكل التي اكتنفت الرسالة بعد انحراف التجربة الإسلامية واقصائهم عن مركزهم القيادي في زعامتها، وأن اساليب العمل الرسالي في التغيير ليس اسلوباً جاهزاً نتلقاه مباشرة وبصورة حرفية من خلال الأخبار والمرويات المنقولة في كتب التأريخ بشكلها المجزأ أو ان نلغي وعي عقولنا تجاه

---

(١) ثورة الحسين (ع)/ محمد مهدي شمس الدين، ص: ٢٩٣.

تأريخهم (ع) وإنما المطلوب هو أثراء تجاربنا واساليبنا العملية من معطيات تجاربهم العملية الثرة، لأن اساليب العمل تتنوع دائماً حسب اختلاف الواقع الموضوعي الذي تعيشه الدعوة وتتكيف لاجوائه.

ومن هنا كان لزاماً على الدعوات التغييرية ان تمتلك منهجاً تتبعه في فهم وتحليل التأريخ حتى تتمكن من استخدامه كأداة فعالة، لادراك ما حولها من مواقف وظروف موضوعية، وتضعها موضع التخطيط المدروس من اساليبها العملية والاهتداء بتجارب عمل الائمة (ع) دون الجمود أو الوقوف على تجربة بعينها من تجارب الائمة (ع) متجاوزة بذلك الواقع الموضوعي الذي تعيشه، وما تفرضه علينا حاجتنا العملية للتغيير والاستفادة من كل اسلوب ينسجم مع ما نتبناه في طريق عملنا للتغيير الاسلامي الشامل.

والدراسة الترابطية لاعمال الائمة (ع) تدلنا على حقيقة أخرى، تظهر من خلال مباشرتهم لعملية التغيير إلا وهي فشل كل الاعمال الفردية المبعثرة والمعزولة عن ساحة الجماهير العريضة، والتي لا تتفق في خط تغييري واحد، بل لابد من صفوة داعية واعية تهيء الأمة لمسيرة التغيير الإسلامي الكبير، بعد ان تلاحظ واقعها الخارجي الذي تعيش فيه وتدرس ظروفه العقلية والفكرية والنفسية والاجتماعية وتضع كل ذلك في حسابها قبل ان تبدأ بالعمل.

أما تقييد عواطف الجماهير الملتهبة واستغلال ظروف الساحة الآنية وتحويل الفكرة للافراد لصفاتهم الشخصية دون العمل الشامل والمتفاعل مع قوى الساحة الفاعلة فهي بالضرورة من الاعمال الجزئية التي لا تحمل إلا بذور فشلها وسقوطها.

فعملية التغيير التي مارسها الائمة (ع) لم تقم في يوم من الأيام على الجمع العددي المشحون بعواطف ومشاعر خادعة ومهزوزة تلهبهم الخطابات الرنانة وتمحصهم التجربة الصعبة بالأنهزام والانكفاء عن التضحية، وإنما لابد للاعداد هذه من ان تجسد عمق الفكرة، وان تدك عواطفها بمفاهيم الرسالة ونبل اخلاقيتها حتى تحركها التضحية والاخلاص من اجل سيادة الفكرة والوصول إلى نيل رضوان الله تعالى.

فالنظرة التوحيدية للعمل، ترتبط دوماً وابداً بالواقع الموضوعي المعاش وتخضع بالتالي للشروط الخارجية فهي ترتبط وبشكل ادق وتتوحد بمنطقة العمل الدعوتي والأمة التي نريد ان نعمل في صفوفها ووسطها.

والأمة على ضوء المنهج التوحيدي، لا يمكن ان تثبت على حالة واحدة بحيث نتجه إليها باسلوب عمل واحد لا يتغير ولا يتجدد.

فمعادلتنا إذن تقوم على أساس الأمة تتغير «الجانب المتغير» والإسلام لا يتغير «الجانب الثابت» والأمة اليوم ليست الأمة بالأمس بمستواها الفكري والاخلاقي وعلائقها النفسية والاجتماعية واوضاعها الاقتصادية ، وفي كل ظروفها التفصيلية الاخرى.

وعليه فلا يجوز للداعية ان يتعامل مع الأمة اليوم كما يتعامل مع الأمة بالأمس بل عليه ان يأخذ في عين الاعتبار كافة الظروف والتغييرات التي تحيط بالأمة، لأن مضمون تطوراتها وتغييراتها هو الذي يحدد جوهر التخطيط السليم للعمل ، منفتحاً من خلاله على طاقات الأمة الخلاقة ولابد من التحرر من نزعة التمسك الحرفي باساليب العمل، والتي تجعلنا نعيش مع أمة قد مضى وقتها وانتهت بظروفها وملابساتها.

ولكي نتجه اتجاهاً سليماً في تفكرنا يلزمنا اعتماد المنهج التوحيدي (الترابطي) وان نتجاوز طريقة الطرح والتفكير المجزأ وان نعتمد على الشمولية في التفكير وذلك عن طريق تعميق خبراتنا وتجاربنا.

وبهذا المنهج الشمولي يمكن تقديم تأريخ اهل البيت (ع) من تأريخ معزول سياسياً عن حياة المسلمين إلى تأريخ فاعل وإلى حركة تغييرية مجاهدة تستهدف تقديم الإسلام كرسالة حاكمة في دولة كريمة تعزّ الإسلام وأهله وتذل النفاق وأهله، جاعلة من الإسلام رسالة منفتحة على كل مجالات حياة الأمة وآمالها وآلامها.

والمنهج (الترابطي) هو المنهج المفضل - والذي - سنترسم خطاه بقدر الامكان - بالاستعانة من المنهج التجزيئي أيضاً في دراستنا لهذه السلسلة من تأريخ

أئمتنا ـ التي بين يديك ـ قارئي العزيز ـ وهو الكتاب الأول والثاني، وهي محاولة جديدة ـ بكر ـ نترسم بها خطا المنهج الترابطي لأعادة قراءة تأريخ أهل البيت (ع).

والمهم في محاولتنا هذه، هو اعتماد المعلومات الواردة عن حياة أهل البيت (ع) في المصادر التأريخية الإسلامية الموثوقة وعدم تشويهها أو بترها أو اقحام معلومات جديدة على تأريخهم لم تقع أبداً بحجة أو بأخرى، الأمانة الإسلامية في نقل المرويات مطلوبة للغاية، ونحن مسؤولون في محاولتنا هذه تصنيف المعلومات الواردة وتحليلها واستنتاج الدروس والعبر التي تفيد امتنا الإسلامية حاضراً ومستقبلاً.

ونستطيع ان نقول ان مكتبتنا الإسلامية، ما زالت فقيرة إلى الدراسات المتعمقة في مجال المنهج الترابطي الشمولي، وإلى القراءة الإسلامية الجادة لحياة ائمتنا العظام (ع).

ومن هنا تأتي ميزة المحاولات ذات المنهج الترابطي في فترة نحن احوج ما نكون فيها للتعرف على كنوز تأريخنا وتلمس عوامل الصحوة الإسلامية في بناء الدولة الكريمة.

ـ ٤ ـ

الهدف من هذه الدراسة:

أما العظة التي نستلهمها من خلال دراسة «سيرة الائمة» (ع) في العمل من أجل الرسالة، فتندرج تحت النقاط التالية: ـ

اولاً: إن الرسالة الإسلامية بمتبنياتها المختلفة في الفكر والعمل ذات طابع حضاري ثابت لا تخضع للمساومات والتغيرات في دنيا الانسان.

ثانياً: انه يجب الفصل بين ما هو فكر إسلامي عملي (ثابت) وما هو اسلوب من اساليب العمل (المرن) التي سلكها الرسول (ص) أو أحد الائمة (ع) من بعده «ويعني ذلك ان النبي (ص) والائمة لهم شخصيتان، الأولى بوصفهم مبلغين للفكر الإسلامي» «العناصر الثابتة في التشريع الإسلامي» عن الله تعالى، والآخر بوصفهم حكاماً وقادة للمجتمع الإسلامي يضعون الاساليب العملية» العناصر المتحركة

المرنة التي يستوحونها من المؤشرات العامة للإسلام ، والروح الاجتماعية والإنسانية للشريعة على ضوء ادراكهم للواقع.

وعلى هذا الأساس كان النبي (ص) والائمة (ع) يمارسون تحديد الاساليب العملية في مختلف شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وغيرها، وهذه الاساليب بحكم صدورها عن صاحب الرسالة أو ورثته المعصومين ، تحمل بدون شك الروح العامة لموقف الإسلام! وتعبير عن تطلعاته في واقع الحياة وعلى العاملين الإسلاميين الاستفادة من هذه الاساليب بقدر ما لا يكون مشدوداً إلى طبيعة المرحلة الاجتماعية والسياسية التي رافقتها»[1].

هذا اللون من التميز الذي اشرنا إليه يعيننا على التخلص من ظاهرة الجمود الحرفي عند بعض المواقف التي كانت تجسد الطريقة المثلى في وقتها وفي الظروف التي ساهمت في وجودها.

ثالثاً : ان ندرك بعمق ان الاساليب العملية التي تجب تبنيها هي ذات طابع متغير، تبعاً للظروف العقلية والفكرية والنفسية للأمة ، وبناءً على بعدها أو قربها من الرسالة من الوجهة الألتزامية وطبقاً لبعد الأمة أو قربها من السلطة الزمنية.

رابعاً: إدراك التغيرات المطردة في حياة الناس ووعي حاجاتهم الآنية والعمل على اختيار احسن. واقرب الاساليب العملية إلى نفوسهم واذهانهم.

خامساً: الاستنارة بخطوات الحركة التغييرية التي مارسها خط الإمامة بالحدود التي تسمح به ظروف الانسان في المرحلة الراهنة، لأن تأريخهم (ع) بهذا الاعتبار شيء متحرك في عقل الأمة وعاطفتها، وليس لوناً من الحركة العاطفية أو موقف حماس وخطابة أو تعاملاً مع سنن خارقة ومعجزات ، بل إنها عقيدة راسخة، ونظرة معصومة وخطط محكمة، ودراية متبصرة، وحسن قراءة للظروف والإمكانات وانسجام بين السنن والقوانين التي شرعها الله تعالى :

---

(١) الإسلام يقود الحياة/ السيد الشهيد الصدر، ص: ٤٧.

وفي الختام، نرجو من الله تعالى ان يكون بحثنا هذا بمنهجيته الشمولية ان يثير الرغبة في المزيد من البحث، والمزيد من تسليط الضوء على حقيقة تأريخهم العظيم (ع) راجين من القراء الكرام ان يتفضلوا علينا بالتوجيه أو الأقتراح على ما ورد في الكتاب من خطأ أو عيب أو نقص «فالمؤمن مرآة المؤمن».

ونسأل الله تعالى ان يجعل عملنا هذا مرضياً لديه وان ينفع به.

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

١٥/شوال/١٤٠٣



(الكتـاب الثانـي)

دور أئمة أهل البيت في التأريخ الإسلامي

من غير المشكوك فيه أبداً أن الرسول (ص) رحل إلى جوار ربه تعالى، وهو لما يستوف بعد المهمات التأريخية المناطة بالرسالة الإسلامية على المستوى النظري والعملي معاً.

«فعلى الصعيد النظري لم يتسن للرسول (ص)، أن يبين للأمة الإسلامية سوى الخطوط العريضة للتشريع الإسلامي مضافاً إليها بعض التفصيلات الفقهية لعدد من المسائل الحياتية لانسان الاسلام»[1] فرداً وجماعة.

أما على المستوى العملي فإن الدعـوة الانقلابيـة التي كان الـرسول (ص) يباشرها لتغيير الواقع الاجتماعي فكراً وعملاً، وانشاء الانسان الرسالي الجديد في فكره ومفاهيمه وأنماط سلوكه، هذه المهمة لم تتحقق هي الأخرى للرسول (ص) حتى على مستوى مجتمع عاصمة الدولة (المدينة المنورة) فضلاً عن أقاليم الدولة الإسلامية الأخرى كما يتضح ذلك من مجموع الأخطاء والسلبيات التي طفحت على سلوك عدد من الصحابة فضلاً عن عامة الناس «إذ لم يمض ربع قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجربة الإسلامية التي تولى جيل المهاجرين والأنصار قيادتها تنهار تحت وقع الضربات الشديدة التي وجهها أعداء الإسلام القدامى، ولكن من داخل

(١) الإمامة في التشريع الإسلامي/ الاصفي، ص: ٣٣.

اطار التجربة الاسلامية لا من خارجها، إذ استطاعوا أن يتسللوا الى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ويستغفلوا القيادة غير الواعية، ثم صادروا بكل وقاحة وعنف تلك القيادة، وأجبروا الأمة وجيلها الطليعي الرائد على التنازل عن شخصيته وقيادتـه، وتحولت الزعامة الى ملك مـوروث يستهتر بـالكرامـات، ويعطل الحـدود ويجمد الاحكام وأصبحت الخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أمية»[1].

ومن المقطوع به أن قصر الفترة التي عاشها الرسول (ص) بين ظهراني مجتمع المدينة لم تكن فيها الكفاية لتحقيق العملية التغييرية في ذلك المجتمع، ومن هنا فإن من بداءة الأمور أن يتخذ الإسلام موقفاً ايجابياً لضمـان سلامـة خط سير الحـركة الإسلامية التأريخية وصحّة بناء الأمة الإسلامية وتعميق وعيها وانفتاحها على مطالب الرسالة الإلّهية. . . وهذا لا يتأتى بطبيعة الحال ان لم تعهد القيادة الفكرية والسياسية الى أشخاص ينهضون بالدور الذي نهض به الرسول القائد (ص) ويكون لهم من المؤهلات والصلاحيات ما يمكنهم من مواصلة الحركة التغييرية التي بدأها الرسول (ص) في الأمة على الصعيد العملي وبيان الاحكام الإسلامية التفصيلية في الحوادث المستجدة في مسيرة الأمة على الصعيد الفكري والتشريعي.

ومن خلال هذا الوعي ينبثق خط الإمامة في الإسلام ليقوم الأئمة من خلاله بدورهم الطبيعي في دفع حركة الاسلام التأريخية باتجاه تحقيق أهدافها التغييـرية الكبرى في دنيا الناس.

ومما تجدر الاشارة إليه هنا أن خط الإمامة لم تكن لنعيه من خلال الضرورة التأريخية التي تفرضه كامتداد طبيعي للرسالة لا بد منه لحماية الإسلام والأمة فحسب ولكنه إلى جانب ذلك يظل خطاً تشريعياً ذا أبعاد محددة طرحته الشريعة الإسلامية من خلال موقفين للرسول (ص):

أحدهما: (عملي): تمثل في تبنيه لـلإمام علي (ع) منـذ طفولتـه واعداده اعداداً روحياً ورسالياً خاصاً، ومارس توعية الإمام على المستوى القيادي للدعوة من

---

(١) بحث حول الولاية/ الشهيد الصدر.

بعده ليكون أهلاً لتولي مهام القيادة الفكرية والسياسية في الأمة بعد غياب الرسول (ص) «فقد كان النبي (ص) يخصه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها ويبدؤه بالعطاء الفكري والتثقيف إذا استنفذ الامام اسئلته ويختلي به الساعات الطوال في الليل والنهار يفتح عينيه على مفاهيم الرسالة، ومشاكل الطريق ومناهج العمل الى آخر يوم من حياته الشريفة»[1].

روى الحاكم في المستدرك بسنده عن أبي إسحاق:

«سألت قثم بن العباس كيف ورث علي رسولِ الله قال: لأنه كان اولنا به لحوقاً وأشدنا به لزوقاً».

وروى عن النسائي عن الامام، أنه يقول:
«كنت إذا سألت رسول الله أعطيت وإذا سكت ابتدأني» ورواه الحاكم في مستدركه ايضاً.

وقال الإمام علي (ع) في خطبته القاصعة الشهيرة، وهو يصف ارتباطه الفريد بالرسول القائد وعناية النبي باعداده وتربيته:

«وقد علمتم موضعي من رسول الله (ص) بالقرابة القريبة والمنزلة وضعني في حجره، وأنا ولد يضمني الى صدره ويكنفني في فراشه ويمسني جسده، ويشمني عرفه، وكان يمضغ الشيء ثم يلقمينه وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل، ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله وخديجة وأنا ثالثهما، أرى نور الوحي والرسالة واشم ريح النبوة».

وثانيهما: (فكري) تمثل بالبينات الرسمية التي أطلقها الرسول (ص) في

---

(١) ن. م المصدر السابق.

ظروف ومناسبات مختلفة، لابراز خط الإمامة في الحياة الإسلامية، كحديث المنزلة:

«أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، الا انه لا نبيّ بعدي»[1].

وخطبة الغدير التي جاء بها:
«من كنت مولاه فهذا علي مولاه»[2].
وحديث الثقلين:
«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وأهل بيتي وانهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض»[3].

وكذلك تأكيداته المتكررة (ص) تصريحاً أو تلويحاً على الدور الذي كان ينتظر الإمامان الحسن والحسين حتى ليطرح بأنهما عليه السلام «امامان قاما أو قعدا»[4] كما انه يقول لهما: أنتما الإمامان ولأمكما الشفاعة[5].

وهكذا يفرض خط الإمامة في الحياة الإسلامية حتمية من خلال الضرورات التأريخية والشرعية ليكون متمماً لخط الرسالة فيها في الجانب النظري والعملي على حد سواء.

وكان من المفروض أن القيادة الإسلامية لهذه التجربة ان تواصل على يد الإمام علي (ع) ويد خلفائه من أئمة أهل البيت (ع) نموها الثوري واحد بعد الآخر، وتقترب نحو اكتمال هدفها التغييري في اجتثاث كل رواسب الماضي الجاهلي وجذوره وبناء أمة جديرة على مستوى متطلبات الدعوة ومسؤولياتها.

وهكذا برزت أهمية خط الإمامة ـ بغض النظر عما ذكرنا في التأريخ الإسلامي عملياً بعد الحيلولة دون مباشرته لمهامه التأريخية على نطاقين:

---

(١)، (٢)، (٣) المراجعات/ شرف الدين.
(٤)، (٥) راجع كتاب الحسن/ للعاملي، ص: ١١.

أحدهما: النطاق التشريعي: فإن مواجهة الأمة لحاجات جديدة لا عهد لها بمثلها أيام التنزيل المبارك، قد حتم على ولاة الأمر بعد الرسول (ص) أن يضعوا حلولاً ويقترحوا تشريعات تحمل الطابع الذاتي في الأعم الأغلب، فالتجأوا إلى (الرأي) فيما لا نص فيه من خلال مفاهيم الاستحسان والقياس والمصالح المرسلة وغيرهما[1]، التي قادت إلى تبني احكام مخالفة لمفاهيم اسلامية اصيلة، وقد صدرت تلك من صحابيين كبار ثم تتابع مسير العملية المذكورة، فأدى إلى تحريفات خطيرة في التشريعات الاسلامية كما في العهد الأموي، على أن هذا اللون من الاجتهاد قد تحوّل الى مدرسة معروفة كان قوام تفكيرها «العمل بالرأي»[2] وقد جوبهت مدرسة الرأي برد فعل عنيف في الأوساط الفكرية مما أدى الى ظهور مدرسة «الحديث» في الحجاز «والتي كانت تفضل أن تظل محافظة على المأثور من الحديث واجتهادات الصحابة والتابعين من بعدهم»[3]، ولاعتقاد روادها ان العودة إلى الحديث كافية وحدها لتحقيق حماية الرسالة من التمييع الذي عانته من انصار مدرسة الرأي.

وللمرء أن يقدر خطورة الموقف الذي عانت منه الشريعة وهي تعيش بين مدرستين احداهما ذات طابع يتخذ الذاتية والرأي قاعدة له ومبرراً «دون ان تتقيد بما يعتبره الشارع في الاجتهاد، وكان في ذلك شيء كثير من الجرأة على الشريعة والتصرف بموازينها ومقاييسها التي تخرج عن متناول الفكر والرأي»[4].

وأخراهما: ذات طابع جامد لم يلق للحوادث المستجدة في حياة الانسان بالا وانما تتوقف عند النصوص فحسب دون الأخذ بنظر الاعتبار ظلالها وايحاءاتها وتطورات الحياة «والاعراض عن كل شيء ما عدا الكتاب والسنة كما يذهب الى ذلك داود وغيره من الظاهرية»[5] الأمر الذي يبرز أهمية خط الإمامة في الحياة الإسلامية

---

(١) راجع سلم الوصول الى علم الأصول/ عمر عبدالله، ص: ٢٩٥.

(٢) مجلة النجف/كلية الفقه/عدد ٩٢٨، ص: ٨٢ وما بعدها.

(٣) الأصفي/في مقدمة كتاب الاجتهاد والتقليد/ميرزا غلام رضا، ص: ٨.

(٤) ن. م، ص: ١٩.

(٥) ن. م، ص: ١٩.

على الصعيد التشريعي لحماية الرسالة من مزالق الاتجاهين اتجاه «ادخال عنصر الرأي في مصادره التشريعية حيث يفقد التشريع صلابته وقوته واصالته الإسلامية التي هي من خصائص التشريع الإسلامي، واتجاه «مدرسة الحديث» التي ذهبت الى تجميد الشريعة والأخذ بظاهر النصوص، حيث افقدت التشريع خاصيته على المرونة وقابليته لمسايرة الظروف الاجتماعية المختلفة»[1].

ثانيهما: النطاق العملي:

من المعلوم ـ تأريخياً ـ أن الإسلام جابه، بعد وفاة الرسول (ص) انحرافاً خطيراً ومبكراً في صميم التجربة الاجتماعية والسياسية التي أنشأها النبي (ص) للمجتمع والأمة الاسلامية وما كاد خط الإمامة في الحكم يقصى عن الحياة الإسلامية ويستبدل بأطروحة جديدة في الحكم «اطروحة السقيفة»* حتى بدأ الانحراف عن الخط الإسلامي يتسرب إلى مراكز التوجيه الفكري والاجتماعي والسياسي، حتى وئدت التجربة الإسلامية الأصيلة، واستبدلت بحكم قبلي وراثي بدأ بتعطيل الحدود ومصادرة روحية الشريعة وتكدير صفائها وقد تجسد ذلك بالحكم الأموي والعباسي وما تمخض عنهما من مآسي وويلات ومزالق خطيرة وابعاد للأجيال عن أهداف الرسالة وطابعها السماوي الصميم.

وكان من المتوقع ـ بحسب طبيعة الأشياء ـ ان يتسع ويتعمق الانحراف بالتدريج وذلك بمرور الزمن، لأن الانحراف يبدأ صغيراً ثم تنفرج الزاوية في كل خطوة تزداد وتكبر وكلما تحققت مرحلة من هذا الانحراف، مهدت إلى مرحلة أوسع منها، في المراحل التي تتلوها.

وبحسب منطق الأشياء، كان من المفروض أن يصل هذا الانحراف ويتنامى في خط منحن ضمن عملية تأريخية وزمنية «طويلة المدى» إلى الهاوية والانهيار التام، بحيث تصبح التجربة الإسلامية للمجتمع والدولة مليئة بالتناقضات، حتى

---

(١) ن. م، ص: ١٩ ـ ٢٠.

(*) راجع ما كتبناه في موضوع منطق السقيفة من هذا الكتاب، ص:

تكون التجربة عاجـزة كلية عن تلبيـة الحد الأدنى من حـاجات الأمـة ومصالحهـا الحيوية.

ومعنى انهيار «التجربة الإسلامية» بالتدريج ـ ودون أن يقهر انحرافهـا أحد ـ اثبات عجزها وقصورها مرة تلو اخرى، حتى تصل إلى اعـلان افلاسهـا وعجزهـا الكامل عن مواكبتها للحد الأدنى للقضايا التي تتبناها أمام الجماهير وللرسالة التي تعلن عن مضمونها.

وحينما يتفاقم أو يتسلسل الانحراف في خط تصاعدي فمن البديهي أن يصبح فهم تسلسل الاحداث لهذه التجربة بأنها ستتعرض بالضرورة عاجلاً أم آجلاً لانهيار كامل ومحقق، أي أن الدولة والمجتمـع والحضارة الإسـلامية، كقيـادة للمجتمع ستتعرض للانهيار والسقوط، لأن التجربة عندما تصبح مشحونة بالتناقضات تكون عاجزة حتماً عن مواجهة وظائفها الحقيقية في حماية نفسها وفي بناء الدولة والمجتمع المنشود.

وحينما تصل التجربة إلى هذا الوضع المتردي من السقوط تصبح عاجزة عن حماية نفسها، وتصبح الأمة بدورها أيضاً عاجزة عن حماية هذه التجربة في مكتسباتها الإلّهية.

ومعنى ان تكون التجربة عاجزة عن حماية نفسها لأنهـا تكون في وضـع قد استنفذت اهدافها وامكانياتها على الـديمومـة والبقاء على مسـرح التأريـخ، لأنها أصبحت مفضوحة في عجزها وعقمها وواضحة الخطأ، والتجربة الفاشلة لا يمكن ان تستمر على مسرح التاريخ لأنها لا تستحق الحياة.

ومعنى أن الأمة ليست على مستوى حماية التجربة، لأن الأمة لا ترى أي فائدة منها ولا تجني منها خيراً أو بركة ودون أن تحقق لها الآمال التي كانت تصبو إليها.

ولهذا لا ترتبط، هذه التجربة، بأي ارتباط حقيقي مع الأمة، والأمة على غير استعداد لأن ترتبط بالتجربة ارتباطاً مصيرياً يقودها إلى تكرار الفشل والسقوط.

وعلى ضوء ما سبق نصل إلى نتيجة مفادها بأن التجربة لا بد لها أن تنهار في

مدى من الزمن، وذلك كنتيجة نهائية وحتمية لبذرة الانحراف التي غرست فيهـا، وانهيارها يعني انهيار الدولة الاسلامية وقيمها الحضارية، وتخليها بالضروة عن قيادة المجتمع الإسلامي والعالمي معاً واقصـائها عن مـركزهـا كقائـد للمجتمع والأمـة الإسـلامية. . ولكن الأمـة الإسلاميـة ـ كأفـراد ـ ستبقى ـ طبعاً ـ لأن التجـربة في المجتمع والدولة هي التي تفشل وتخطىء وبالتالي تنهار امام أول من يغزوها ويخطط لمهاجمتها، كما حصل معها امام الغزو التتري الذي واجه الخلافة العباسية، ولكن الأمة بقيت كأفراد (مسلمين) ولكن ـ بحسب منطق ـ الاحداث وتسلسله. سنرى ان الأمة ستنهار هي الأخرى تبعاً لانهيار تجربتها الحاكمة.

ونحن نسأل هنا لماذا يا ترى ان الأمة التي تدين بالإسلام وتؤمن به وتتفاعل معـه هي الأخرى تنهار تبعاً لانهيار تجربتها؟ والجواب جد بسيط، لأن هذه الأمة لم يتح لها أن تعيش الاسلام الصحيح بصيغته الكاملة للحياة فترة طويلة من الزمن ـ بل عاشت الإسلام الصحيح فترة وجيزة من الزمن، وهي الفترة التي مارس فيه الرسول (ص) قيادة التجربة، وبعد غيابه (ص) عاشت الأمة تجربة منحرفة، لم تستطع وهي تعيش الانحراف ان تعمق مضمون الرسالة في الأمة وتجذر فيه روح المسؤولية اتجاه عقيدتها، ولم تتمكن من تثقيفها وتحصينها وتزويدها بالضمانات الكافية بمنع الانهيار امام حضارة وافكار جديدة يحملها الغازي الذي يضع في قائمة اولويـاته تحـطيم التجربة ومجتمعها الاسلامي مستبدلاً إياها بتقاليده ومفاهيمه الحضارية البديلة.

كل هذا سيؤثر على الأمة الاسلامية تأثيراً بـالغاً، لأن الأمـة لم تتعرف على اسلامها معرفة حقيقية واعية طيلة سني التجربة المنحرفة ولن تجد الأمة في نهـاية ممارستها للتجربة المنحرفة ، بعد ان نفذت روحها واهينـت كرامتها وحطمت ارادتها وغلت اياديها من قبل زعاماتها المنحرفين ـ ما تحصن به نفسها ضد ما يطرأ بعد انهيار التجربة، وحينئذ ستنهار الأمة أيضاً وسوف تندمج بالعالم الكافر الذي غزاها وفتحها وسيطر عليها، وسوف تصادر رسالتها وتميع عقيدتها، وتصبح الأمة في ذمة التأريخ بعد أن كانت وجوداً حقيقياً فاعلاً على مسـرح التأريـخ وبهذا ينتهي دور الإسـلام كتجربة حضارية منقذة للبشرية؟

هذا هو التسلسل المنطقي والبديهي لانهيار الحضارات والدول، بقطع النظر عن دور قادتها اتجاهها.

والآن نتطرق بالتحليل الى دور الائمة (ع) اتجاه هذا التسلسل الانحرافي، ونتعرف على طريقة معالجتهم لها وموقفهم منها، باعتبارهم مسؤولين شرعاً عن قهره ومواجهته لصالح الرسالة الاسلامية.

لقد واجه الأئمة اهل البيت (ع) هذه المسألة بأمرين:
الأمر الأول: المهمة عاشها الأئمة (ع) في حياتهم الجهادية، هي محاولة التصدي والقضاء على الإنحراف الموجود في تجربة المجتمع الإسلامي، وإرجاع التجربة الإسلامية إلى وضعها الطبيعي، وذلك باعداد خطة طويلة الأمد، وبتهيئة ظروفها الموضوعية التي تتناسب وتتفق مع إرجاع التجربة إلى وضعها الصحيح فمتى ما كانت الظروف الموضوعية مهيئة كان ائمة أهل البيت (ع) على إستعداد كامل لتحمل مسؤ ولياتهم في إرجاع التجربة إلى مسارها الطبيعي، وهو ما فعله الإمام علي (ع) وكما هو واضح من قوله (ع):

«بأن الله أخذ عهداً على الانسان أن لا يقر على الظلم مع وجود الناصر»[1].

ويفهم من هذا القول بأنه عندما تتهيىء الظروف الموضوعية للتحرك والتي تجعل في قدرة الإنسان (الإمام) أن يحاول ويعمل على اعادة التجربة الإسلامية إلى وضعها الطبيعي والصحيح، وهذا يعني، الاعداد والعمل لتهيئة المقدمات والظروف الموضوعية للتمكين من اعادة التجربة واستئنافها في واقع حياة الأمة.

ولدينا نصوص عديدة من الأئمة (ع) توضح أن أئمة أهل البيت (ع) كانوا دائماً على استعداد كامل لخوض عمل مسلح إذا وجدت لديهم القناعة بتوفر الظروف الموضوعية وذلك بوجود الانصار، والقدرة على تحقيق الاهداف الاسلامية من وراء ذلك العمل المسلح.

---

(١) راجع نهج البلاغة (جزء من الخطبة الشقشقية).

يقول الإمام الحسن (ع) بهذا الصدد: «والله إني ما سلمت الأمر إلا لأني لم أجد أنصاراً، ولو وجدت انصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه»[1].

ومن الملاحظ أن أئمة أهل البيت (ع) كانوا يؤمنون بأن تسلم السلطة وحده لا يكفي لتحقيق الأهداف ما لم تكن هذه السلطة مدعمة بقواعد شعبية واعية تعي أهداف تلك السلطة، وتؤمن بنظريتها في الحكم وتعمل في سبيل حمايتها وتفسير مواقفها للجماهير وتصمد في وجه الأعاصير»[2].

الأمر الثاني: والأمر الآخر الذي كان يمارسه الأئمة (ع) - وهو في حالة ادراكهم وشعورهم بعدم توفر أو تحقق هذه - الظروف الموضوعية - التي تهيئهم لخوض معركة في مقام تسلم زمام الحكم من جديد - هو ممارسة العمل على تعميق الرسالة فكرياً وروحياً وسياسياً في ذهن الأمة ووعيها، بغية ايجاد الحصانة الكافية في قواعد الأمة، وذلك من أجل أن يؤثر هذا التحصين في منح الأمة، المناعة الكافية في مواجهة مصير الانهيار بعد تردي التجربة وسقوطها. خصوصاً بعد حرمان الأمة الإسلامية - بوقت مبكر - من أن تعيش التجربة الصحيحة بصيغتها الكاملة للحياة الإسلامية بعد وفاة رسول الله (ص) والذي كان من الضروري واللازم من ان تدعم وتغذي رسالياً بالإسلام في جميع مجالاته الروحية والفكرية والاجتماعية والسياسية، لكي تعرف الاسلام وتستوعبه بوعي حقيقي كامل.

وليس المقصود بتعبئة الأمة - هنا - مجموع الأمة لأن التعبئة والتغيير الرسالي الواعي لا يمكن أن يتحقق بالنسبة لمجموع الأمة إلا في حالة واحدة، وهي حالة وجود قيادة سياسية تمارس التجربة على مستوى الحكم في دولة ومجتمع، ولكن المقصود من تعبئة الأمة هو ايجاد قواعد واعية في الأمة وخلق روح رسالية فيها وايجاد عواطف اتجاه هذه الرسالة لدى الأمة.

فأئمة أهل البيت (ع) في حالة شعورهم، بعدم امكان استرجاع مركزهم القيادي من - الغاصبين - حتى وهم في هذه الحالة، كانوا يعملون بدأب من اجل

---

(١)، (٢) بحث حول الولاية/ الشهيد الصدر، ص: ٩٣ - ٩٤.

انقاذ وجود الأمة في المستقبل وضمان عدم انهيارها وتشرذمها كأمة بعد سقوط التجربة وفشلها وذلك من خلال عملهم المخلص الدؤوب باعطاء التحصين الكامل والمستمر لهذه الأمة[1].

المرحلية في عمل أهل البيت (ع)

قبل أن نتكلم عن مراحل عمل أئمة أهل البيت (ع) نود التمهيد ببعض الملاحظات التالية:

١ ـ ان عناوين التقسيمات المرحلية التي سنوردها في البحث تؤكد عادة وتؤخذ عنوانها من أهم محاور العمل المركزية وأشدها الحاحاً لعمل أئمة المرحلة الواحدة، دون ان تنفي وجود مهمات دعوتية اخرى اقل مركزية.

٢ ـ التقسيم المرحلي الذي نتبناه في بحثنا ليس تقسيماً حدياً بل نسبياً يتداخل احياناً، لأن المؤرخ لا يمكنه أن يقف على اللحظة التأريخية، فيدعي بأن هذه اللحظة هي نهاية المرحلة وبداية اخرى، وإنما هذه التقسيمات تتفق مع طبيعة الاحداث المتصورة في خط التأريخ الإسلامي.

٣ ـ ان اختصاص بعض مراحل عمل الأئمة (ع) بممارسات معينة لا يتعارض مع وجود نشاطات وممارسات أخرى من التحرك المشترك مع بقية ائمة المراحل الأخرى.

٤ ـ واقع الأمة السياسي والفكري والنفسي المعاصر لأئمة المرحلة والملابسات الاجتماعية المحيطة بها، كل ذلك يرسم معالم المرحلة ويؤثر على مظاهر التحرك عند أئمة المرحلة الواحدة، وكذلك نضج الأمة الاسلامية يعتبر عنصراً مهماً في تفاعل ائمة أهل البيت (ع) معها.

٥ ـ ان أي خطأ في تحديد المرحلة التي يمر بها الإمام (ع) يؤدي إلى الخطأ

---

(١) اعتمدنا في هذا الفصل على تحليلات السيد الشهيد الصدر في محاضراته على طلبته في النجف الاشرف.

في تفسير مواقف ذلك الامام، وعدم الاحاطة بالظرف المعاصر له.

مراحل عمل أئمة اهل البيت (ع)

المرحلة الأولى

ويمكن تسمية هذه المرحلة بمرحلة: مجابهة انحراف الحكام أو «مواجهة صدمة الانحراف».

وفي اعتقادنا أن تأريخ الأئمة (ع) يمثل امتداداً رسالياً لمواصلة القيادة الاسلامية في بناء الأمة، ومن خلال هذه العقيدة، يعتبر عمل الأئمة (ع) يمثل اطروحة الإسلام في حماية مستقبل الدعوة الإسلامية بعد النبي (ص).

ولكن منطق السقيفة وروحها القبلية التي تمظهرت وتحكمت بمنطق المتنافسين المجتمعين في سقيفة سعد بن عبادة، لاختيار خليفة رسول الله (ص)، والإمام علي (ع) وغيره من الصحابة بعيدون عنهم لانشغالهم بجثمان النبي (ص) الذي كان لم يدفن بعد[1] هذا المنطق وهذه الروح القبلية، هي التي فتحت على المسلمين باباً من أبواب الفتنة، كما يصرح الخليفة عمر بن الخطاب، معلقاً على نتائج اجتماع السقيفة وبيعة أبي بكر بقوله:

> «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه!»[2].

وهكذا كتب على الأمة الاسلامية، ان تعيش الحكم الإسلامي المنحرف بشكل مبكر عقيب وفاة الرسول (ص) مباشرة منذ أن نجحت السقيفة في تمرير أهداف «الفتنة» وبعد ان اضطلع بمسؤولية الخلافة أناس لم تنضج فيهم الرسالة الإسلامية.

وعلى ضوء نتائج اجتماع السقيفة وافرازاتها، يمكن أن نقول ان الاسلام الذي

---

(١) سيرة الرسول/ لابن هشام/ ج ٢ - ١٠١٨.

(٢) ابن أبي الحديد/ ٨/١١١.

تعطيه السقيفة بامتدادها التأريخي، اسلام مشوه ممسوخ، لا يحفظ الصلة العاطفية والفكرية بين الأمة وبين الرسالة.

وهكذا منيت الأمة الإسلامية وبوقت مبكر من حياتها الرسالية (بصدمة الانحراف) وهو الانحراف عن الخط الرسالي الذي رسمه لها النبي (ص)، بعد أن وقعت التجربة السياسية بيد اشخاص لم يتفهموا (بعمق) الرسالة الإسلامية بصيغتها الشاملة للحياة ولم يعيشوا همومها أو يذوبوا في غاياتها.. إلى أن اتسعت رقعة الانحراف وزاويتها وأصبح من السهل اليسير مشاهدة هذا التحول بوضوح أكثر، منذ بداية النصف الثاني من عهد عثمان بن عفان إلى أن آل باقصاء الاسلام فيه من الواقع المعاش في زمن معاوية وابنه (الفاجر) يزيد.

ولما كانت امامة أهل البيت (ع) تمثل الامتداد الروحي والعقائدي لخط الأنبياء، ووريثاً شرعياً لرسالات السماء، انبرت لتضطلع بدورها الرسالي الذي استهدف تصحيح المسار واعادته الى الاتجاه النبوي المطلوب، وكان محور نشاط ائمة المرحلة الأولى، يشتمل على التخطيط والأخذ بكل الاحتياطات الممكنة لتطويق (صدمة الانحراف) وتحصين الاسلام كشريعة منها، والحفاظ على الرسالة الاسلامية نقية بعيدة عن التشويه.

وقد حفلت مواقف الأئمة (ع) من أجل هذا الهدف بزخم هائل من الجهود التخطيطية الحافلة بالتضحيات والرامية الى بناء الأمة على قاعدة فكرية تؤهلها من الناحية النفسية والسياسية أن تحمل مشعل الثورة وتدير الدرب للثائرين، وترخص من أجل أهدافها كل غال ونفيس.

هذه الحقائق، دعت قادة الرسالة من أئمة أهل البيت (ع) - في هذه المرحلة المصيرية من تأريخ الأمة، للوقوف ومواجهة الصدمة التي وقعت متحدية الأمة الإسلامية عقيب وفاة الرسول (ص)، والتي كانت من الممكن أن تمتد وتقضي على الإسلام ومصالحة الأمة الإسلامية، فتصبح أثراً في التأريخ، دون أن يبقى له وجود في خط الزمن المستمر.

وخلاصة الأمر كان أئمة هذه المرحلة، يتصدون بشكل رئيسي لمواجهة

ومجابهة (انحراف الحكام) وتحصين الأمة ضدها، والعمل على الاحتفاظ بالاسلام كشريعة مستمرة دون أن يطالها التحريف والتشويه، ان لم يكن من المتيسر الحفاظ عليه كمجتمع وتجربة سياسية حاكمة.

ولذا حاول أئمة هذه المرحلة على العمل الدائب بتفهيم الاسلام للأمة ومحاولة تعميق مضامينه في نفوسهم، حتى تعرف الأمة دينها، وتتمسك به، وبنفس الوقت تتحصن ضد الانحراف وتقاومه وتتصدى له حالة نشوءه.

لقد ركز الأئمة (ع) على مكمن الخطر هذا، وأخذوا يعملون لتوضيح وتوعية الأمة على الفرق بين الحكام الشرعيين والحكام القائمين (المغتصبين)، وكان هدفهم في هذه المرحلة هو كشف زيف الحكام أمام الأمة وتوضيح انحرافهم عن الإسلام، وقد أثمرت جهود أئمة هذه المرحلة بفصل السلطة الزمنية الحاكمة عن منصب الخلفاء الرساليين وتعرية انحراف الحكام عن رسالة الاسلام.

وقد أخذت الأمة تميز بين نوعين من الحكام، حكاماً منحرفين، وهم الذين اغتصبوا السلطة والخلافة، وحكاماً رساليين تمثل فيهم عدل الإسلام واستقامته، كما لمسوا ذلك عملياً من خلال تجربتي حكم الامام علي (ع) وولده الحسن (ع).

وكذلك دأب أئمة هذه المرحلة بايقاظ الأمة وتوعيتها باتجاه معرفة قيادتها الشرعية المتمثلة بامامة اهل البيت (ع).

وكانت معالجة افرازات هذه المرحلة من مهام أربعة أئمة وهم:

الإمام علي بن أبي طالب (ع)، والإمام الحسن بن علي (ع)، والإمام الحسين بن علي (ع) والإمام علي بن الحسين (ع).

المرحلة الثانية:

وهي المرحلة التي جابه فيها أئمة أهل البيت (ع) انحراف العلماء والمدارس الفقهية المنحرفة بتحديد معالم الكتلة الشيعية وايجاد الطابع المميز لها.

بعد أن أنجز أئمة المرحلة الأولى مهمة تحصين الإسلام بتعرية انحراف الحكام والاحتفاظ بالإسلام كتشريع بصيغته الكاملة للحياة، وبعد أن وضعوا كل

التحصينات اللازمة وفرغوا من الضمانات الأساسية ضد (صدمة الانحراف)، بدأت مرحلة عمل جديدة، بجهود ثلاثة أئمة (ع) وهم:

الإمام محمد بن علي الباقر (ع)، والإمام جعفر بن محمد الصادق (ع)، والإمام موسى بن جعفر الكاظم (ع).

وقد تميزت جهودهم (ع) وتمحورت حول ابراز وتحديد الاطار التفصيلي الخاص بالكتلة الشيعية، بوصفهم الكتلة المؤمنة والمحافظة على الخط الحقيقي للإسلام أمام الخطوط المنحرفة الأخرى.

فالاطار التفصيلي الخاص للكتلة الشيعية، لم يكن متميز المعالم محدد الاطار لكل الناس أيام أئمة المرحلة الأولى الذين اتجهوا بنشاطهم الرئيسي لمعالجة (صدمة الانحراف) وحماية الاسلام دون تحريف يشوه محتواه، والعمل على اعادة الصحوة والروح النضالية التي افتقدتها الأمة عبر سنوات الانحراف بعد وفاة الرسول (ص).

فالعمل في تفادي (صدمة الانحراف) عند أئمة المرحلة الأولى لم ينقطع أو انتهى في المرحلة الثانية، بل ان هذا العمل استمر، لكن حيث ان (صدمة الانحراف) كان قد أمكن تقليل خطرها، بجهود أئمة المرحلة الأولى، بما بذلوه من جهود وتضحيات في سبيل حفظ الاسلام، وحمايته من التحريف.

أما المرحلة الثانية، فكانت مجالاً خصباً، للأئمة (ع)، لايجاد الطابع المميز للكتلة الشيعية، وذلك ببناء الجماعة الصالحة من مجموع هذه الأمة التي حصنت بالحد الأدنى من التحصين، وانتخاب مجموعة من هذه الأمة، وتحصينهم بأعلى درجة ممكنة من التحصين والوعي، حتى تكون هذه الجماعة هي الرائدة والقائدة والحامية للوعي الإسلامي لمجموع الأمة التي حصنت بالحد الأدنى من التوعية الإسلامية.

ظهور هذا الهدف المرحلي بابراز الاطار التفصيلي للتشيع مقابل المدارس المنحرفة الأخرى، دفع ببعض المؤرخين إلى «الاساءة في فهم فكرة التشيع، واعتبروها ظاهرة طارئة في التأريخ الإسلامي، مستندين في قولهم هذا إلى بروز

التشيع متدرجاً ومتطوراً من خلال احداث اجتماعية دفعت بها في التأريخ الاسلامي، الى أن انجلت مظاهره ابان هذه المرحلة.

أما التشيع في واقعه الصحيح، فقد وجد في اطار الدعوة الإسلامية متمثلاً في الأطروحة النبوية التي وضعها الرسول (ص) بأمر من الله للحفاظ على مستقبل الدعوة وهكذا وجد التشيع لا كظاهرة طارئة على مسرح الاحداث بل كنتيجة ضرورية بطبيعة تكوّن الدعوة وحاجاتها وظروفها الأصلية، وبمعنى آخر كانت تفرض على الإسلام أن يلد التشيع، وبمعنى آخر كانت تفرض على القائد الأول للتجربة أن يعد للتجربة قائدها الثاني الذي تواصل على يده ويد خلفائه نموها الثوري»[1].

والفرق بين المرحلتين، هو أن أئمة المرحلة الأولى أظهروا معنى التشيع بالنطاق الضيق والخاص، لأنهم انشغلوا بمعالجة هدفهم الرئيسي وهو (تحصين الإسلام من صدمة الانحراف)، فيما جاء أئمة المرحلة الثانية، كي يمنحوا الكتلة الشيعية، وعلى المستوى العام اطارها التفصيلي الشامل، ولا يعني هذا، أن أئمة المرحلة الأولى لم يعملوا لابراز الكتلة الشيعية، بل انّ نشاطهم في هذا المجال كان ثانوياً وعلى مستوى خاص، وقد سبق للإمام علي (ع) هذا النشاط وعلى المستوى الخاص جداً من كتلته من امثال سلمان الفارسي، وأبي ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، ومالك الأشتر وغيرهم.

وقد جاء تخطيط أئمة المرحلة الثانية، مختلفاً في اتجاهاته وتركيبه وتكوينه وذلك وفقاً لمتطلبات الحاجة المرحلية للقضية الاسلامية ومستلزماتها (الموضوعية) والتي اتجهت إلى توضيح الاطار التفصيلي للتشيع، وكشف ملامحه المتميزة، واخراج العمل من اجله من مستوى اشخاص معدودين الى مستوى ارحب بتنمية الكتلة كمياً ونوعياً، وتمثيلها للإسلام الحقيقي ومعالجتها لشؤون الحياة كافة، ليواجهوا بها محاولات النظام المنحرف بتغذية الاتجاهات الفقهية والكلامية المناهضة للتشيّع مكونين بذلك وضعاً طائفياً، ببعض الفقهاء والمحدثين والمتكلمين وادعياء العلم الى ارضاء غرائز الحكام المنحرفين.

---

(١) بحث حول الولاية/ السيد الشهيد الصدر.

وقد أعطى أئمة هذه المرحلة جهودهم لابراز الاطار التفصيلي للكتلة الشيعية لمواجهة انحراف العلماء والمدارس الفقهية المنحرفة، ومن خلال ظروف اجتماعية دقيقة بأروع ما يكون التخطيط.

المرحلة الثالثة:

وهي مرحلة اتساع النشاط والممارسة السياسية والتوسع في بناء القواعد الشعبية وترشيد تحركها ضمن توجهات الخط الرسالي الثوري، وارسال الوكلاء وانتشارهم في العالم الاسلامي وتنضيج خطوط تحرك الخواص من أبناء الأمة.

فبعد انتهاء وتنجيز اهداف المرحلة الثانية، وذلك بتخطيط ائمتنا (ع) ببناء الكتلة الشيعية المرتبطة بهم، بتربية سلوكها، وحماية وجودها من الذوبان، وتنمية وعيها ورصف قواعدها وتوسيعها واعطائها اطارها ومعالمها الفكرية والاجتماعية في ارجاء العالم الاسلامي، تلتها مرحلة عمل جديدة ابتدأها ثامن الأئمة الإمام علي بن موسى الرضا (ع) حيث أصبحت في مرحلة الكتلةَ الشيعية، وقواعدها الشعبية العريضة، بمستوى يقربها من تسلم زمام الحكم، وممارسة العمل السياسي، حتى باتت تشكل خطراً داهماً على الحكام، وقد ارتفع رصيد مدرسة الامام علي (ع) في العالم الاسلامي، وتحددت فيها ملامح الكتلة الشيعية المجاهدة واطروحتها المتمثلة بالإسلام الصحيح.

وقد اتسمت المرحلة الثالثة من حياة أهل البيت (ع) بازدياد التلاحم بين الإمام كقائد وقواعده التي شهدت الواناً من التنكيل والقتل والتشريد والمؤمرات الماكرة التي خرج بها الحكام آنذاك، في محاولاتهم الدنيئة لعزل امام اهل البيت (ع) واحراجه أمام قواعده الشعبية، وبالتالي فضّ الناس عنه بكل الطرق الممكنة.

وقد جاءت مكاسب هذه المرحلة نتيجة لجهدين متوازيين، عاشها التخطيط عند أئمة المرحلة الأولى والثانية وذلك من خلال الصيغ والأشكال العملية المتعددة، نذكر منها التالي:

الأول: جهد التخطيط الفكري والتوعية العقائدية والتثقيف الرسالي التي

مارسها الأئمة (ع) ممارسة مباشرة من خلال اعمالهم وأنشطتهم (الواجهية) والتي اكتسبت الطابع العلني، (كالمدارس العلمية)، حيث أعطت الكتلة الشيعية معالمها وخصائصها الفكرية ونتاجها الروحي ومفاهيمها لكل جوانب الحياة، ولكي تتهيىء منها ارضية صالحة لتسلم السلطة.

الثاني: خط تحريك الضمير الصوري عند الأمة، وهو جهد سار موازياً للجهد الأول، وهو الجهد الذي استمد ثوريته وانطلاقته من دم الحسين (ع) واستشهاده الفاجع والذي تكفل بتسلم زمام الثورة والمقابلة السياسية للأوضاع الحاكمة المنحرفة.

وباستمرار هذين الخطين المتوازيين في المرحلتين الاولى والثانية، أمكن لمدرسة الإمام علي (ع) وأطروحته ان تتخذ، رصيداً ضخماً وواسعاً يغطي كل ارجاء العالم الإسلامي ولا أدل على هذا من النواحي الكثيرة. الفكرية منها والروحية والاجتماعية التي كانت تخرج على الأمة الإسلامية في بداية المرحلة الثالثة في عصر الإمام الرضا (ع) والتي شهدت عدة ثورات وانتفاضات قام بها تلامذة من ـ مدرسة الإمام علي (ع) ـ وحملة اطروحته، وقد ملؤا العالم الإسلامي من الكوفة والبصرة والمدينة ومكة حتى اليمن، رفعوا فيها شعارات مدرسة الإمام علي (ع) وحكموا مناطقها باسمه، وذلك بالرغم من ان من بغداد كانت تحت تبعية الخلافة العباسية إلا انها طوقت بهذه الحركات الثورية وهددت حكمهم.

ولكن الذي يجدر ذكره والتأكيد عليه، أن نمو هذه القواعد وتعاطفها مع قضية أئمة هذه المرحلة، لم تكن تعني تسلم زمام الحكم، بالرغم من كل هذا النمو المتزايد والعريض في القواعد الشعبية للإمام (ع)، لأن حركة إمام أهل البيت (ع) لم تكن على مستوى تسلم زمام الحكم، لأن الحكم الذي يريده الإمام (ع) غير الحكم الذي يمتلك مثل هذه القواعد الشعبية، نشرح المسألة للقارىء بشكل اوضح ونقول، بأن هذه القواعد الشعبية العريضة الموجودة في العالم الإسلامي والموالية لأهل البيت (ع) كانت تهيىء الإمام (ع) لأن يتسلم زمام الحكم على مستوى ما يتطلبه أو يريده أي طالب للحكم، أي انه (ع) بامكانه ان يتسلم زمام الحكم على النحو الذي يتسلمه المنصور أو المأمون.

هذا اللون من الحكم، كان بامكان إمام أهل البيت (ع) الوصول إليه، حـ القواعد الضخمة التي تسنده . وتواليه لكن مثل هذه القواعد لم تكن تصلح قاعدة لحكم الإمام (ع) لأن ارتباطها به كان ارتباطاً فكرياً غامضاً وعاماً متسماً بالحماس العاطفي، هذه العاطفة الحرارية (المتزأبقة) كانت في يومها هي القاعدة التي استند اليها بنو العباس وركبوا موجها للوصول إلى الحكم.

ولكن طبيعة هذه القواعد وأمثالها لا يمكن ان تمهد لحكم الإمام (ع) واستلامه لزمام السلطة السياسية، ولهذا السبب رأينا أن أغلب الثورات التي وقعت في هذه المرحلة والتي عاشها المسلمون المخلصون لأطروحة الإمام علي (ع) كانت في كثير من الاحيان تتخبط في تناقضات داخلية حتى من قبل قواعدها الشعبية، والتي كثيراً ما تصدعت وانشقت على نفسها، وذلك بسبب بسيط، هو ان القاعدة ليست واعية لاطروحتها وظروفها الموضوعية وعياً كاملاً، بل كانت تأتي ثوراتهم عاطفية حارة ولم تكن واعية مستوعبة ، والعاطفة بطبيعتها ـ وكما هو معروف ـ لا تنتج بناء حقيقياً للإسلام . ، وإنما البناء الحقيقي يقوم على اساس الوعي الكامل لاهداف الدولة الإسلامية، والإيمان بواقع أهميتها التأريخية[1].

وكانت معالجة اهداف هذه المرحلة من مهام، الإمام علي بن موسى الرضا (ع) والإمام محمد بن علي الجواد (ع) والإمام علي بن محمد الهادي (ع).

المرحلة الرابعة:

استمر توجه أئمة أهل البيت (ع) في مجال الاشراف على القواعد الشعبية وحماية وجودها، وتنمية وعيها، ومدها بكل اساليب الصمود والارتفاع إلى مستوى الطليعة المؤمنة ومقابل هذا استمرت محاولات السلطة الغاشمة بعزل اطروحة الإمام

---

(١) هذه المرحلة لم تحدد بشكل بارز من قبل الأئمة (ع) انفسهم ، بل تحددت من خلال موقف الحكم المنحرف من الأئمة، وذلك لأن الجماعة التي نشأت ونمت في ظل المرحلة الثانية والتي وضعت بذرتها في المرحلة الاولى، هذه الجماعة انتشرت وغزت العالم الإسلامي وقتئذ، وبدا لخلفاء بني العباس، ان قيادة اهل البيت (ع) اصبحت على مستوى تسلم زمام الحكم، والعودة بالمجتمع الإسلامي إلى حضيرة الإسلام الحقيقي وهذا خلف بشكل رئيسي ردود الفعل للخلفاء تجاه الأئمة (ع) في اواخر ايام الإمام موسى بن جعفر (ع).

وقيادته عن المسرح الاجتماعي والسياسي، ومحاسبتهم على كـل بادرة نشـاط أو تحرك، حتى ولو كانت وشاية تافهة أو خبر صغير عن نشاط إمام أهل البيت (ع)، وهذا التصاعد الحاقد في محاربة الإمام (ع) كان احد الاسباب والدوافع الرئيسية المباشرة لحدوث الغيبة.

ولهذا رأينا الإمام الحسن بن علي العسكري (ع)، يسعى وهـو يعيش جو الارهاب الشديد، إلى حجب الإمام المهدي (محمد بن الحسن (ع) عن اعين الناس، مع اظهاره لبعض خاصته فقط مع شن حملة توعية (لفكرة الغيبة)، وتوعية الناس بضورة تحملهم لمسؤولياتهم الإسلامية تجاهها وتعويدهم على متطلبـاتها، وتهيئة ذهنياتهم لتقبل القيادة النائبة، وهذا ما قام به الإمام المهدي (عج) بنفسه وذلك ضمن مرحلتين من الغيبة والاحتجاب، وهي ما تسمى بالغيبة الصغرى والغيبة الكبرى.

وفي زمن الغيبة الصغرى، تصدى الإمام المهدي (عج) بتعين وتحديد اسماء سفرائه ونوابه الأربعة لقيادة الأمة حيث تولوا الوكالة الخاصة عنه (عج) خلال غيبته الصغرى وقد اضطلعوا بمهمة قيادة قواعد الإمام المهدي (ع) من الناحية الفكرية والسلوكية طبقاً لتعليمات الإمام (ع) والتوسط بينه وبينها في إيصال التبليغـات، واخراج التوقيعات وحلّ مشاكلها، وتذليل العقبات التي تصادفهم، وكانت مهمة غيبة الإمام واحتجابه ترمي إلى بناء الجهاز الغائب لتولي العمل القيادي عنه، والعمل على تصعيد واكتمال بناء الأمة الطليعي (الشيعي) لتأهيلهم لممارسة دورهم الرسالي في حماية الرسالة الإسلامية ونشرها في ارجاء العالم، والعمل على إعداد الأمة والأجيال التالية على غيبة الإمام (عج) الكبرى، وتعويدهم عن حالة الانتظار الايجابي، والتمهيد لظهوره من قبل شيعته بالعمل السياسي والجهادي.

المرحـــلة الخامسـة:

وهي مرحلة ظهور القائم (عج) الإمام الثاني عشر من أئمة أهل البيت (ع) محمد بن الحسن، المهدي (ع) وقيام الدولة الاسلامية العالمية، «يملأ الأرض قسطاً وعدلاً بعد ان ملئت ظلماً وجوراً».

* * * *

تمهيــد

خـلافة النبي (ص) ومستقبل الدعوة: (*)

بعد ان انتهينا من حديث المراحل ، نود أن نعالج مسألة هامة وحساسة، وهو بمثابة مدخل ضروري لفهم الظروف والملابسات الاجتماعية والسياسية التي عاشها الإمام علي (ع) وأئمة أهل البيت من بعده وأعني بها مسألة خلافـة النبي (ص) ومستقبل الدعوة وقيادتها.

«من المعروف ان النبي (ص) لم يفاجئه الموت مفاجأة ، وكان يدرك منذ فترة قبل وفاته ان اجله قد دنا ، وقد اعلن ذلك بوضوح في حجة الوداع، وهذا يعني انه كان يملك فرصة كافية للتفكير في مستقبل الدعوة بعده، هذا إذا لم ندخل في الموقف (النصوص التشريعية) أو عامل الاتصال الغيبي والرعاية الالهية المباشرة للرسالة عن طريق الوحي... وخصوصاً ان النبي (ص) كان يدرك جيداً، بأن الساحة الإسلامية سوف تتعرض لاكبر الاخطار إذا خلت من قائدها او تركت دون أي تخطيط، فسوف تواجه الأمة ولاول مرة مسؤولية التصرف بدون قائدها تجاه اخطر مشاكل الـدعوة، وهي لا تمتلك أي مفهوم مسبق بهذا الصدد وسوف يتطلب منها الموقف تصرفاً سريعاً وآنياً، لأن الفراغ السياسي لا يمكن ان يستمر وسوف يكون هذا التصرف السريع في

(*) اعتمدنا في هذا البحث بصورة رئيسية وبتصرف، ما جاء بكتاب بحث حول الـولاية للسيـد الشهيد الصدر.

لحظة الصدمة التي تمنى بها الأمة وهي تشعر بفقدها لقائدها الكبير هذه الصدمة التي تزعزع بطبيعتها سير التفكير وتبعث على الاضطراب، حتى انها جعلت عمر بن الخطاب يعلن بفعل الصدمة، ان النبي لم يمت ولن يموت.

وكذلك هنالك الأخطار التي تنجم عن عدم النضج الرسالي، والاخطار اتي تنشأ من (المنافقين)، وإذا أضفنا إليهم عدداً كبيراً ممن اسلم بعد الفتح استسلاماً للأمر الواقع لا انفتاحاً على الحقيقة، نستطيع ان نقدر الخطر الذي يمكن لهذه العناصر أن تولده وهي تجد فجأة فرصة لنشاط واسع في فراغ كبير مع خلو الساحة من رعاية القائد.

فلم تكن إذن خطورة الموقف بعد وفاة النبي (ص) شيئاً خافياً على النبي . . . ولذا رأينا ان الرسول (ص) لما حضرته الوفاة وفي البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب قال:

«ايتوني بالكتف والدواة اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده أبداً»[1].

«وكان النبي (ص) يريد أن يضع حداً للخلاف في مسألة الخلافة من بعده ويعهد إلى المسلمين الا يتجاوزوا حدود هذا العهد، فاختلف في ذلك نفر من الصحابة بمحضر صاحب الرسالة، حتى نسبوا إليه الهجر، فادرك النبي (ص) حراجة الموقف، وشعر بأن الخلاف يكاد ان يمس اصل التشريع، ويجري المسلمون على التشكيك في نصوص الكتاب والسنة، فقطع الخلاف وقال بلهجة حاسمة «قوموا، لا ينبغي عند نبي نزاع»[2].

وما ان التحق النبي (ص) بالرفيق الأعلى، حتى ثار الخلاف بين المسلمين واشتد النزاع بينهم.

---

(١) مسند أحمد: ١/٣٠٠ وصحيح مسلم، وصحيح البخاري ج١ كتاب الصلح . . . راجع بحث حول الولاية/ الشهيد الصدر، ص: ٢٤.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح النهج ج٣ ، ص: ٩٧، راجع للتوسع كتاب الإمامة/ الاصفي ص ١٠.

اجتماع السقيفة:

«وحينما تجمع أنصار السقيفة لتأمير سعد بن عبادة، وعلي بن أبي طالب وغيره من الصحابة بعيدون عنهم لانشغالهم بجثمان النبي (ص) الذي لم يدفن بعد[1] قال منهم قائل:

««إن ابت مهاجرة قريش، فقالوا: نحن المهاجرون ونحن عشيرته وأولياؤه، قالت طائفة منهم، إذا نقول منا أمير ومنكم امير لن نرضى بدون هذا ابداً» ، وحتى نودى على سعد بن عبادة: (اقتلوا سعداً، قتله الله انه منافق، صاحب فتنة»[2].

واخترط الزبير سيفه وهو يقول «والله لا اغمده حتى يبايع علي» فيقول عمر: (عليكم بالكلب) فيؤخذ سيفه من يده أو يضرب به الحجر حتى يكسر»[3].

وأخذ قيس بن سعد بلحية آخر قائلاً «والله لو خفضت منه شعره ما رجعت وفيك جارحة»[4].

وانقضى الحباب بن المنذر سيفه على أبي بكر قائلاً:
«والله لا يرد على أحد ما أقول إلا حطمت أنفه»[5].

وحينما خطب أبو بكر فيهم قائلاً:
«كنا معاشر المسلمين والمهاجرين اول الناس اسلاماً والناس لنا في ذلك تبع، ونحن عشيرة ، رسول الله واوسط العرب انساباً».

---

(١) سيرة الرسول/ لابن هشام، جـ ٢/١٠١٨.
(٢) الطبري، ج٣ ص: ٢١٠.
(٣) الإمامة والسياسية، ج ١، ص: ١١.
(٤) الطبري/ج ، ص: ٢١٠.
(٥) مسند أحمد/ ج١ ، ص: ٥٦.

واقترح الانصار ان تكون الخلافة دورية بين المهاجرين والانصار رد أبو بكر قائلاً:

«إن رسول الله (ص) لما بعث عظم على العرب أن يتركوا دين ابـائهم فخالفوه وشاقوه وخص الله المهاجرين الأولين من قوم بتصديقه، فهم أول من عبد الله في الأرض، وهم اولياؤه وعترته وأحق الناس بالأمر بعده ولا ينازعهم فيه إلا ظالم».

وقد اندفع عمر بن الخطاب بأبي بكر واعلن بيعته له وتبعه الآخرون، وحين بلغ الإمام علي بالنبأ رفض البيعة[1] وآثر الإمام ان يعتزل اطراف الفتنة ولا يخوضها، حتى تهدأ الأحوال وتستقرّ الأمور.

وقد علق عمر بن الخطاب على نتائج اجتماع السقيفة وبيعة أبي بكر، بقوله «ان بيعة أبي بكر كانت فلتة، وقى الله شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه».

«وكان الخلاف باديء الأمر يدور حول مسائل تتعلق بشؤون الزعامة والمصالح الشخصية، أكثر مما تتعلق بشؤون الفكر والعقيدة، ولكن الخلاف اتسع فيما بعد واكتسى ثوباً عقائدياً «إذ لم يمض ربع قرن حتى بدأت الخلافة الراشدة والتجـربة الإسلامية التي تولى جيل المهاجرين والانصار قيادتها تنهار تحت وقـع الضربـات الشديدة التي وجهها اعداء الإسلام القدامى، ولكن من داخل إطار التجربة الإسلامية لا من خارجها إذ استطاعوا ان يتسللوا إلى مراكز النفوذ في التجربة بالتدريج ويستغلوا القيادة غير الواعية ثم صادروا وبكل وقاحة وعنف تلك القيادة واجبروا الأمة وجيلها الطليعي الرائد على التنازل عن شخصيته وقيادته، وتحولت الزعامة إلى ملك موروث يستهتر بالكرامات ويعطل الحدود ويجمد الاحكام واصبحت الخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني امية»[3].

---

(١) النزاع والتخاصم/ للمقريزي، ص: ٤٨.

(٢) ابن أبي الحديد /١١١/٨.

(٣) بحث حول الولاية/ الصدر.

«ولابد من القول بأن النبي (ص) كان يتوقع حصول مثل هـذا الخلاف بين المسلمين بعد وفاته، ولهذا فقد وضع النبي (ص) مخططاً تشريعياً وسياسياً واسعاً للمنع من وقوع أمثال ذلك، فوضع النبي (ص) خططاً وقائية وعلاجيـة للمنع عن الاختلاف قبل ان يحصـل الخلاف، فمن الخـطط الوقـائية التي رسمهـا الإسلام توجيهات عامة كان يسديها القرآن الكريم والنبي (ص) في التحذير عن الاختلاف.

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم اعداء، فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخواناً﴾ آل عمران: ٩٩.

واطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا، فتفشلوا وتذهب ريحكم﴾ الانفـال: ٤٩.

وانسياقاً مع هذا الجانب وضع النبي (ص) قبيل وفاته خطة محكمة لمنع وقوع الاختلاف بين المسلمين، فقد قدّر (ص) ان الخلاف سيقع بعد وفاته بشأن الخلافة، فحاول أن يقصي وجوه الأصحاب ساعة وفاته عن المدينة المنورة، خلا علي (ع) ليخلو جو المدينة من المعارضة التي يثيرها وجوه الأصحاب بعد وفاته، ويفرغ علي (ع) للأمر من دون معارض ولكن لم تقدر لهذه الخطة ان تنفذ، فتوفى النبي (ص)، ووجوه الاصحاب في المدينة ويضع الإسلام بعـد ذلك خـططاً علاجيـة لمعالجـة الخلاف وذلك بوضع موازين دستورية لمعرفة الجانب الحق من المسألة إذا التبس الأمر بغيره.

والميزان الأول لمعرفـة الحق هو القـرآن الكريم، ومـا تجاوزه فهـو زخرف وباطل: **﴿هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾** الأعراف: ٢٠٣.

ولكن القرآن الكريم ذاته فيه محكم ومتشابه، ومتشابه القرآن يتعرض عـادة لاختلاف الاهواء، فيتعرض القرآن ذاته لمثل هذا الاختلاف والتضارب... فلابد ان يشفع الكتاب الكريم بميزان تشريعي آخر يكمل مهمة الكتاب في علاج التضارب والخلاف الذي يحصل في الشؤون الدينية»[١].. وإلى هذا المعنى تشير الأحاديث

---

(١) الإمامة في التشريع الإسلامي/ الآصفي، ص: ١٢.

النبوية التي تربط بين الكتاب وأهل البيت (ع) مما اتفق المسلمون على صدوره عن النبـي (ص) من ذلك قوله (ص):

«اني اوشك ان ادعى فأجيب، واني تارك فيكم الثقلين كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض وعترتي اهل بيتي، وان اللطيف الخبير اخبرني انهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1].

«هذا هو الجانب العلاجي من الخطة الحكيمة التي وضعها النبي (ص) للمنع عن وقوع الخلاف بين المسلمين».

لماذا وقع الخلاف؟ وكيف نشأ الانقسام في الأمة؟*

«إن من يتتبع المرحلة الأولى من حياة الأمة الإسلامية في عصر النبي (ص) يجد بأن اتجاهين رئيسيين مختلفين قد رافقا نشوء الأمة وبداية التجربة الإسلامية منذ السنوات الأولى وكانا يعيشان معاً داخل إطار الأمة الوليدة التي أنشأها الرسول القائد وقد أدى هذا الاختلاف بين الاتجاهين إلى انقسام عقائدي عقيب وفاة الرسول (ص) مباشرة شطر الأمة الاسلامية إلى شطرين قدّر لاحدهما ان يحكم، فاستطاع ان يمتد ويستوعب أكثرية المسلمين، بينما اقصي الشطر الآخر عن الحكم، وقدر له ان يمارس وجوده كأقلية معارضة ضمن الإطار الإسلامي العام، وكانت هذه الأقلية هي (الشيعة).

والاتجاهان الرئيسيان اللذان رافقا نشوء الأمة الإسلامية في حياة النبي (ص) منذ البدء هما:

اولاً: ـ الاتجاه الذي يؤمن بالتعبد بالدين وتحكيمه والتسليم المطلق للنص

(١) اخرجه الحاكم في مستدركه على الصحيحين والترمذي، والنسائي، واحمد بن حنبل وغيرهم من الحفاظ، عن أكثر من عشرين صحابياً.

(*) راجع بحث حول الولاية/ السيد الصدر، ص: ٧٣، حيث اعتمدنا، بتصرف على ما جاء في الكتاب المذكور.

الديني في كل جوانب الحياة.

ثانياً: ـ الاتجاه الذي لا يرى ان إيمانه بالدين يتطلب منه التعبد الا في نطاق خاص من العبادات والغيبيات ويؤمن بامكانية الاجتهاد، وجواز التصرف على اساسه بالتغيير والتعديل في النص الديني وفقاً للمصالح في غير ذلك النطاق من مجالات لحياة.

وبالرغم من ذلك، من الضروري التسليم بوجود اتجاه واسع منذ كان النبي (ص) على قيد الحياة، يميل إلى تقديم الاجتهاد في تقدير المصلحة واستنتاجها من الظروف على التعبد بحرفية النص الديني، وقد تحمل الرسول المرارة في كثير من الحالات بسبب هذا الاتجاه حتى وهو على فراش الموت في ساعاته الأخيرة، كما ان هناك اتجاهاً آخر يؤمن بتحكيم الدين والتسليم له والتعبد بكل نصوصه في جميع جوانب الحياة.

وقد يكون من عوامل انتشار الاتجاه الثاني (الاجتهادي) في صفوف المسلمين انه يتفق مع ميل الانسان بطبيعته إلى التصرف وفقاً لمصلحة يدركها ويقدرها، بدلاً عن التصرف وفقاً لقرار لا يفهم مغزاه.

وقد قدّر لهذا الاتجاه ممثلون جريئون من كبار الصحابة من قبيل عمر بن الخطاب الذي ناقش الرسول (ص) واجتهد في مواضع عديدة خلافاً للنص، إيماناً منه بأن له مثل هذا الحق.

وبهذا الصدد يمكن ان نلاحظ، موقفه من صلح «الحديبية» واحتجاجه على هذا الصلح، وموقفه من الأذان وتصرفه فيه باسقاط «حي على خير العمل»، وموقفه من النبي (ص) حين شرع متعة الحج.. إلى غير ذلك من مواقفه الاجتهادية.

وقد انعكس كلا الاتجاهين في مجلس الرسول (ص) في آخر يوم من أيام حياته فقد روى البخاري في صحيحه عن أبي عباس، قال: «لما حضر رسول الله(ص) الوفاة وفي البيت رجال، فيهم عمر بن الخطاب قال النبي: هلم اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده، فقال عمر: ان النبي (ص) قد غلب عليه الوجع، وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله، فاختلف اهل البيت فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم

النبي كتاباً لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما اكثروا اللغو والاختلاف عند النبي قال لهم قوموا: لا ينبغي عند نبي نزاع»[1].

وهذه الواقعة وحدها كافية للتدليل على عمق الاتجاهين ومدى التناقض والصراع بينهما.

ويمكن ان نضيف إليها ـ لتصوير عمق الاتجاه ورسوخه ـ ما حصل من نزاع وخلاف بين الصحابة حول تأمير «اسامة بن زيد» على الجيش بالرغم من النص النبوي الصريح على ذلك، حتى خرج الرسول (ص) وهو مريض، وخطب الناس، وقال:

«يا أيها الناس ما مقالة بلغتني عن بعضكم من تأمير أسامة، ولئن طعنتم في تأمير ابيه من قبل «وايم الله انه كان لخليقاً بالإمارة وان ابنه بعده لخليق بها»[2].

وهذان الاتجاهان اللذان، بدأ الصراع بينهما في حياة النبي (ص) قد انعكسا على موقف المسلمين من أطروحة زعامة الإمام للدعوة بعد النبي (ص).

فالممثلون للاتجاه التعبدي وجدوا في النص النبوي على هذه الأطروحة سبباً ملزماً لقبولها دون توقف او تعديل واما الاتجاه الثاني فقد رأى انه بامكانه ان يتحرر على الصيغة المطروحة من قبل النبي (ص)، إذا أدى اجتهاده إلى صيغة آخرى أكثر انسجاماً في تصوره مع الظروف.

وهكذا نرى ان الشيعة ولدوا منذ وفاة الرسول (ص) مباشرة، متمثلين في المسلمين الذين خضعوا عملياً لاطروحة زعامة الإمام علي (ع) وقيادته التي فرض النبي (ص) الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة.

---

(١) اخرجه البخاري/ باب مرض النبي (ص) مجلد٣، وروى هذه الرواية ابن سعد في طبقاته، والطبري بتاريخه، وابن كثير في بدايته، ومسلم في صحيحه.

(٢) انظر سيرة ابن هشام، وشرح النهج المجلد الثالث، ص: ١٧٢.

وقد تجسّد الاتجاه الشيعي منذ اللحظة الاولى في انكار ما اتجهت إليه السقيفة من تجميد لاطروحة زعامة الإمام علي (ع) واسناد السلطة إلى غيره(*).

وقد تقول: إذا كان الاتجاه الشيعي يمثل التعبد بالنص والاتجاه الآخر المقابل له يمثل الاجتهاد ، فهذا يعني ان الشيعة يرفضون الاجتهاد، ولا يسمحون لأنفسهم له، مع انا نجد ان الشيعة يمارسون عملية الاجتهاد في الشريعة دائماً.

والجواب: ان الاجتهاد الذي يمارسه الشيعة ويرونه جائزاً بل واجباً وجوباً كفائياً، هو الاجتهاد في استنباط الحكم من النص الشرعي، لا الاجتهاد في رفض النص الشرعي لرأي يراه المجتهد أو لمصلحة يخمنها، فإن هذا جائز، والاتجاه الشيعي يرفض أي ممارسة للاجتهاد بهذا المعنى ونحن حينما نتحدث عن قيام اتجاهين منذ صدر الإسلام:

احدهما: اتجاه التعبد بالنص، والآخر: اتجاه الاجتهاد. نعني بالاجتهاد الاجتهاد في رفض النص أو قبوله.

وقيام هذين الاتجاهين شيء طبيعي في ظل كل رسالة تغييرية شاملة تحاول تغيير الفاسد من الجذور، فأنها تتخذ درجات مختلفة من التأثير حسب حجم الرواسب المسبقة ومدى انصهار الفرد بقيم الرسالة الجديدة، ودرجة ولائه لها.

وهكذا نعرف ان الاتجاه الذي يمثل التعبد بالنص يمثل الدرجة العليا من الانصهار بالرسالة والتسليم الكامل لها وهو لا يرفض الاجتهاد ضمن إطار النص وبذل الجهد في استخراج الحكم الشرعي منه.

هذه هي الخطوط العامة عن تفسير ظاهرة التشيع بوصفه ظاهرة طبيعية في إطار

(*) ذكر الطبرسي في الاحتجاج عن ابان بن تغلب قال: قلت لجعفر بن محمد الصادق: جعلت فداك هل كان أحد في اصحاب رسول الله انكر على أبي بكر فعله؟ قال: نعم كان الذي انكر عليه اثني عشر رجلاً من المهاجرين: خالد بن سعيد بن أبي العاص، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري ، والمقداد بن الاسود وعمار بن ياسر، وبريدة الاسلمي. ومن الأنصار: أبو الهيثم التيهان ، وعثمان بن حنيف، وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين، وأبي بن كعب، وأبو أيوب الانصاري.

الدعوة الإسلامية، وتفسير ظهور الشيعة كاستجابة لتلك الظاهرة الطبيعية.

وإمامة أهل البيت، والإمام علي (ع)، التي تمثلها تلك الظاهرة الطبيعية تعبر عن مرجعيتين:

احدهما: المرجعية الفكرية.

والأخرى: المرجعية في العمل القيادي والاجتماعي.

وكلتا المرجعيتين كانتا تتمثلان في شخص النبي (ص).وكان لابد ـ على ضوء مادرسنا من ظروف ـ ان يصمم الرسول الاعظم (ص) الامتداد الصالح له لتحمل كلتا المرجعيتين، لكي تقوم المرجعية الفكرية بملأ الفراغات التي قد تواجهها ذهنية المسلمين وتقديم المفهوم المناسب، ووجهة النظر الاسلامية فيما يستجد من قضايا الفكر والحياة وتفسير ما يشكل ويغمض من معطيات الكتاب الكريم الذي يشكل الصدر الأول للمرجعية الفكرية في الإسلام، ولكي تقوم المرجعية القيادية الاجتماعية بمواصلة المسيرة وقيادة التجربة الإسلامية في خطها الاجتماعي.

وقد جمعت كلتا المرجعيتين لأهل البيت (ع) بحكم الظروف التي درسناها، وجاءت النصوص النبوية الشريفة تؤكد ذلك باستمرار، ومن الاحاديث التي تؤكد على المرجعية الفكرية، حديث الثقلين إذ قال رسول الله :

«إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله... وعترتي أهل بيتي... إنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1].

والمثال الآخر على المرجعية في العمل القيادي الاجتماعي، حديث الغدير، حيث خطب الرسول (ص) بغدير خم فقال:

«أيها الناس يوشك ان ادعي فأجيب، واني مسؤول وإنكم مسؤولون، فماذا انتم قائلون؟ قالوا نشهد انك قد بلغت وجاهدت ونصحت فجزاك الله خيراً. فقال: اليس تشهدون ان لا إله إلا الله وان محمداً عبده

---

(١) انظر الحاكم في مستدركه على الصحيحين الترمذي والنسائي، واحمد بن حنبل.

ورسوله، وان جنته حق، وان ناره حق وان الموت حق، وان البعث حق بعد الموت، وان الساعة آتية لا ريب فيها. وان الله يبعث من في القبور؟ فقالوا بلى نشهد بذلك. قال: اللهم اشهد، ثم قال: يا أيها الناس ان الله مولاي وانا مولى المؤمنين وانا اولى بهم من أنفسهم فمن كنت مولاه فهذا مولاه - يعني علياً - اللهم وآل من والاه وعاد من عاده»[1].

وهكذا جسد هذان النصان النبويان الشريفان في عدد كبير من امثالهما كلتا المرجعيتين في أهل البيت (ع)، وقد اخذ الاتجاه الإسلامي القائم على التعبد بنصوص النبي (ص) بكلا النصين، وآمن بكلتا المرجعيتين، وهو اتجاه المسلمين الموالين لأهل البيت، ولئن كانت المرجعية القيادية الاجتماعية لكل إمام تعني ممارسته للسلطة خلال حياته، فإن المرجعية الفكرية حقيقة ثابتة مطلقة لا تتقيد بزمان حياة الإمام، ومن هنا كان لها مدلولها العملي الحي في كل وقت فما دام المسلمون بحاجة إلى فهم محدد للإسلام وتعرف على أحكامه وحلاله وحرامه ومفاهيمه وقيمه فهم بحاجة إلى المرجعية الفكرية المحددة ربانياً المتمثلة، اولاً: في كتاب الله تعالى. وثانياً: في سنة رسوله (ص) والعترة المعصومة من أهل البيت التي لا تفترق عن الكتاب كما نص الرسول الاعظم.

وأما الاتجاه الآخر في المسلمين الذي قام على الاجتهاد بدلاً عن التعبد بالنص فقد قرر في البدء عند وفاة الرسول (ص) تسليم المرجعية القيادية التي تمارس السلطة إلى رجالات من المهاجرين وفقاً لاعتبارات متغيرة ومتحركة ومرنة. وعلى هذا الاساس تسلم أبو بكر السلطة بعد وفاة النبي مباشرة على أساس ما تم من تشاور محدود في مجلس السقيفة، ثم تولى الخلافة عمر بنص محدّد من أبي بكر، وخلفهما عثمان بنص غير محدد من عمر، وأدت المرونة بعد ثلث قرن من وفاة الرسول القائد إلى تسلل ابناء الطلقاء الذين حاربوا الإسلام بالأمس إلى مراكز السلطة.

هذا فيما يتصل بالمرجعية التي تمارس السلطة، وأما بالنسبة إلى المرجعية

---

(١) حديث الغدير حديث مستفيض في كتب الحديث عند الشيعة والسنة معاً. رواه اكثر من مائة صحابي واكثر من ثمانين تابعياً ومن حفاظ القرن الثاني قرابة ستين شخصاً.

الفكرية فقد كان من الصعب اقرارها في أهل البيت، بعد ان أدى الاجتهاد انتزاع المرجعية القيادية منهم، لأن اقرارها كان يعني خلق ظروف الموضوعية التي تمكّنهم من تسلم السلطة والجمع بين المرجعيتين، كما انه كان من الصعب أيضاً من الناحية الأخرى الاعتراف بالمرجعية الفكرية لشخص الخليفة الـذي يمارس السلطة، لأن متطلبات المرجعية الفكرية تختلف عن متطلبات ممارسة السلطة فالاحساس بجدارة الشخص لممارسة السلطة والتطبيق لا يعني بحال الشعور بإمكانية نصبه إماماً فكرياً ومرجعاً أعلى بعد القرآن والسنة النبوية لفهم النظرية، لأن هذه الإمامة الفكرية تتطلب درجة عالية من الثقافة، والاحاطة واستيعاب النظرية، وكان من الواضح ان هذا لم يكن متوفراً في أي صحابي بمفرده ـ إذا قطع النظر عن أهل البيت ـ.

ولهذا ظل ميزان المرجعية الفكرية يتأرجح فترة من الزمن، وظل الخلفاء في كثير من الحالات يتعاملون مع الإمام علي على اساس قريب من ذلك، حتى قال عمر مرات عديدة: «لولا علي لهلك عمر، ولا ابقاني الله لمعضلة ليس لها أبوحسن»[1].

ولكن بمرور الزمن بعد وفاة النبي (ص) وتعود المسلمين تدريجاً على النظر إلى أهل البيت والإمام علي بوصفهم اشخاصاً اعتياديين ومحكومين أمكن الاستغناء عن مرجعيتهم الفكرية أساساً وإسنادها إلى بديـل معقول، وهـذا البديـل ليس هو شخص الخليفة بل الصحابة، وهكذا وضح بالتدريج مبدأ مرجعية الصحابة ككل بدلاً عن مرجعية أهل البيت (ع) وهو بديل يستسيغه النظر بعد تجاوز المرجعيـة المنصوصة، لأن هؤلاء هم الجيل الذي رافق النبي (ص) وعـاش حياته وتجربته ووفي حديثه وسنته.

وبهذا فقد أهل البيت عملياً امتيازهم الربـاني واصبحوا يشكلون جـزءاً من المرجعية الفكرية بوصفهم صحابة، وبحكم ما قدّر ان عاشه الصحابة انفسهم من اختلافات حادة وتناقضات شديدة بلغت في كثير من الاحيان إلى مستوى القتـال، وهدر كل فريق دم الفريق الآخر وكرامته واتهامه بالانحراف والخيانة ، أقول بحكم

---

(٢): راجع كتاب بحث حول الولاية/ للسيد الشهيد الصدر. ص: ٧٣ ـ ٨٩

هذه الاختلافات والاتهامات بين صفوف الإمامة الفكرية والمرجعية العقائدية نفسها، نشأت ألوان من التناقض العقائدي والفكري في جسم الأمة الاسلامية كانعكاسات لا وجه التناقض في داخل تلك الإمامة الفكرية التي قررها الاجتهاد»[1] .

* * *

تعريف بشخصية الإمـام:

نسبـه:

هو علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هشام بن عبد مناف.

أبوه (أبو طالب) هو أخو عبدالله أبي النبي (ص) لأمه وأبيه، وأبو طالب هو الذي كفل رسول الله صغيراً، وقام بنصره ومنعه من أذى المشركين، وكان أبو طالب مسلماً لا يجاهر بإسلامه ولو جاهر لم يمكنه ما أمكنه من نصر رسول الله (ص).

أمه: فاطمة بنت اسد بن هاشم، وكانت لرسول الله (ص) بمنزلة الأم، وكان يسميها أمي.

مولده ووفاته: ولد يوم الجمعة ١٣ رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة وقبل بعثة النبي (ص) باثنتي عشرة سنة، ويمكن تقدير تاريخ مولده بين ٦٠٠ أو ٦٠٤ ميلادية وكانت ولادته بمكة في الكعبة المشرفة، وهو أول مولود ولد في الكعبة. [2].

ولقد اغتيل الإمام (ع) وهو في أفضل ساعة عبادته، حيث يقوم بين يدي الله، حيث امتدت إليه يد الأثيم (ابن ملجم المرادي) فضرب الإمام (ع) بسيف وهو في سجوده عند صلاة الفجر وفي مسجد الكوفة، وذلك في صبيحة اليوم التاسع عشر من شهر رمضان المبارك عام ٤٠ هـ.

---

(١) راجع كتاب بحث حول الولاية/ للسيد الشهيد الصدر. ص: ٧٣ - ٨٩.

(٢) راجع دائرة المعارف الإسلامية الشيعية، حسن الأمين، ص: ٦٨ المجلد الاول، وكذلك كشفة الغمة ج١، والغدير/ الامين ج٦، ص: ٢٢ - ٣٨.

مكـانته من خـلال الكتـاب والسنـة :

١ ـ الكتـــاب :

﴿إنمـا يريـد الله ليذهب عنكم الـرجس أهل البيت ويـطهـركم تـطهيـراً﴾ الأحزاب : ٣٣

ذكر المفسرون والرواة في سبب نزولها، انها نزلت في رسول الله (ص) وعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع)، ولما نزلت الآية قالت أم سلمـة زوجة الـرسول (ص): هل انا من أهل البيت؟ «قال: لاولكنك على خير»[1].

﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً واسيراً، إنما نطعمكم لوجه الله لا نـريد منكـم جـزاء، ولا شكوراً انا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرور﴾ سورة الدهر: ٧ ـ ١١ .

ولقد اجمع المفسرون بأنها نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين (ع) .

وكان ذلك عندما مرض الحسنان، فنذر علي (ع) وفاطمـة وفضة ان شفي الحسنان، فإن علياً والزهراء يصومون لله تعالى ثلاثة أيام، وبعد شفاء الحسنيين صام أهل البيت (ع) وعند غروب شمس اليوم الأول طرق الباب عليهم مسكين يشكو جوعه، فأعطوه ما عندهم من خبز الشعير وفي اليوم الثاني استطعمهم يتيم فأطعموه .

وفي ثالث أيام النذر سألهم أسير، فقدموا له طعامهم وهكذا بقي اهل البيت (ع) ثلاثة أيام لم يذوقوا فيها غير الماء وأنزل الله هذه الآيات الكريمة اعظاماً لشأنهم وأكباراً لعملهم ليكونوا القدوة والمثال[2].

---

(١) راجع صحيح مسلم ، في كتاب فضائل الصحابة، والحاكم في مستدرك الصحيحين جـ ٣ ص: ١٤٧ والبيهقي في سننه جـ٢، ص: ١٤٩، والسيوطي في الدر المنثور في تفسير الآية، وصحيح الترمذي جـ ٢، ص: ٢٠٩ وابن حجر في تهذيب التهذيب جـ ٢ ص: ٢٩٧ وغيرهم نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة جـ ١، ص: ٢٢٤ وما بعدها.

(٢) الزمخشري/ الكشاف ج٢، ومجمع البيان / الطبرسي في تفسيره سورة الدهر وابن عبد ربه في العقد الفريد ج٣، ص: ٤٢ ـ ٤٧، والحاكم النيسابـوري في الكفايـة، وأبي إسحاق الثعلبي في تفسيـره «الكشف والبيان» والالوسي في روح المعاني، والطبـري في الريـاض ج٢، ص: ٢٠٧، نقلاً عن الغدير/الاميني ج٣ ص: ١٠٧ ـ ١١١.

«فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم! ، فقل تعالوا ندع ابناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين».

اجمع أهل التفسير بأنها نزلت، حين خرج رسول الله (ص) بعلي وفاطمة والحسن والحسين (ع) لمباهلة نصارى نجران، فلما رآه النصارى قد خرج بأهل بيته خافوا العاقبة واعتذروا عن مباهلته، فدفعوا الجزية خصوصاً منهم لسلطان دولة الرسول (ص)(١).

﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ المائدة: ٥٥.

ذكر المفسرون ان الآية نزلت في علي (ع) وحينما تصدق (ع) على مسكين بخاتمه اثناء ركوعه، وهي آية تؤكد إمامة الإمام، وضرورة الالتزام به مرجعاً فكرياً وسياسياً للأمة(٢).

٢ - في السنة الشريفة:

عن البراء بن عازب قال: «أقبلنا مع رسول الله (ص) في السنة التي حج، فنزل في بعض الطريق، فأمر: الصلاة جامعة، فأخذ بيد علي فقال: «ألست اولى بالمؤمنين من أنفسهم؟»».

قالوا: بلى.

قال (ص): الست أولى بكل مؤمن من نفسه؟

---

(١) صحيح الترمذي ج٢ ص: ٣٠٠ واحمد بن حنبل في المسند ج١، ص: ١٨٥ والسيوطي في الدر المنثور، والزمخشري، في كشافه، والفخر الرازي في تفسيره الكبير وغيرهم نقلاً عن فضائل الخمسة من الصحاح الستة، ص: ٢٤٤ وما بعدها.

(٢) راجع تفسير البيضاوي ومجمع البيان للطبرسي، وأبو إسحاق الثعلبي في تفسيره، والطبري في تفسيره ج٦، ص: ١٦٥، والواحدي في اسباب النزول، ص: ١٤٨ والخازن في تفسيره ج١، ص: ٤٩٦، والرازي في تفسيره ج٣، ص: ٤٣١ والنيسابوري في تفسيره ج٣، ص: ٤٦١ وابن حجر في الصواعق ص: ٢٥ وغيرها نقلاً عن اعيان الشيعة ج٣، ص: ١٣٠ - ١٣٤ وخلفاء الرسول الاثنا عشر، ص: ١٠٣ وما بعدها.

قالـوا: بلـى.

قال (ص): «فهذا ولي من انا مولاه، اللهم وال من والاه، اللهم عاد من عاده» ورواها أحمد بن حنبل «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم وآل من والاه وعاد من عاداه»[1]

وقـال (ص): «علي مع الحق والحق مـع علي لن يفتـرقـا حتى يـردا عليّ الحوض[2].

وقال (ص): لكل نبي وصي وأن علياً وصيّي ووارثي[3].

وفي حديث لرسول الله (ص) يخاطب به عمار بن ياسر (ره) جاء فيه: «ان سلك الناس كلهم وادياً فأسلك وادياً سلكه علي وخلّ الناس طـرا»[4].

الإمـام ومـوقفـه مـن الخلفـاء

ومـا أن فاضت نفس رسـول الله (ص)، واشتغل الإمـام وأهل البيت (ع) بتجهيزه وتشييعه إلى مثواه الأخير، حتى بادر الانصار وبعض المهاجرين إلى اجتماع في سقيفة سعد بن عبادة لتنصيب من يخلف النبي (ص) في قيادة المسلمين.

وبعد مناقشات، وصراع ساده جو من التوتر والقلق والتهديد باستعمال العنف، بادر عمر بن الخطاب إلى بيعة أبي بكر بالخلافة[5]، والإمام علي (ع) بعيد عنهم مشغول بتجهيز فقيد الأمة العظيم رسول الله (ص). إذ ظل (ص) جثمانه الطاهر ثلاثة

---

(١) مسند ابن حنبل ج٤، ص: ٢٨١، صحيح ابن ماجه، ص: ١٢، الترمذي والطبري وكنز العمال ج١، ص: ٤٨، ومستدرك الصحيحين وسواهم، نقلاً عن كتاب الغدير/ للأميني ج١.

(٢) تاريخ البغدادي ج١٤، ص: ٣٢١ والهيثمي في مجمعه ج٧، ص: ٢٣٥ وكنز العمال ج٦، ص: ١٥٧ وتفسير الرازي ج١، ص: ١١١ نقلاً عن علي والوصية، ص: ١١٣.

(٣) أحمد بن حنبل، وكنز العمال ج٦، ص: ١٥٤، والمعجم الكبير للطبراني نقلاً عن علي والوصية / للعسكري، ص: ١٩٤.

(٤) تـاريخ الخطيب البغدادي ج١٣، ص: ١٨٦ والهيثمي في مجمعه ج٧، ص: ٢٣٦ وكنز العمال ج٦، ص: ١٥٥.

(٥) راجع صحيح البخاري ج٤، ص: ١٩٤/ والسقيفة/ للمظفر.

أيام[1] دون دفن ليتسنى للمسلمين توديعه والصلاة عليه.

ولعدم قناعة الإمام (ع) بما جرى ظل مؤمناً بحقه في الخلافة، واعتزل الوسط الاجتماعي، وما هم فيه ستة شهور، ولم يسمع له صوت في ما يسمى بحروب الردة ولا سواها[2].

ولقد تعامل الإمام (ع) مع الخلافة، حسب ما تحكم به المصلحة الإسلامية حفظاً وصوناً للوحدة الإسلامية من التمزق والضياع، وتحقيقاً للمصالح العليا الإسلامية التي جاهد من أجلها.

وللإمام (ع) تعليق بهذا الصدد يقول:

«فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد (ص) فخشيت ان لم انصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً، تكون المصيبة به عليّ أعظم من فوت ولا يتكم التي إنما هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب أو كما ينقشع السحاب فنهضت في تلك الاحداث حتى زاح الباطل وزهق واطمأن الدين وتنهنه»[3].

لقد رفض الإمام (ع) - بعد السقيفة - ان يستجيب لدعوة أبي سفيان التي آزره فيها العباس بن عبد المطلب ودعاه فيها ان يعارض النتيجة التي اسفر عنها اجتماع السقيفة وقال: «سلامة الدين أحب إلينا»[4]، كما انه أعلن قبوله للنتيجة التي اسفرت عنها الشورى وان كان قد سجل عدم رضاه عنها، فقال: «لأسلّمن ما سلمت امور المسلمين، ولم يكن فيها جور الا عليّ خاصة»[5].

---

(١) تأريخ ابن كثير ج ٥ ص: ٢٧١ وتاريخ أبي الفداءج١، ص: ١٥٢ نقلاً عن الغديرج٧، ص: ٧٥.
(٢) السقيفة/ المظفر، ص: ١٦٠.
(٣) نهج البلاغة / تبويب، د. صبحي الصالح، ص: ٤٥١.
(٤) نهج البلاغة، بيروت.
(٥) نهج البلاغة، ١/٥١.

«بيد ان صوت علي (ع) كان يعلو عندما يستشار ويجهر عندما يستفتي، وقد تصدى ـ في هذا المضمار ـ لتوجيه الحياة الإسلامية، وفقاً لما تقتضيه رسالة الله تعالى في الحقول التشريعية والتنفيذية والقضائية.

ومن أجل ذلك فإن الباحث التأريخي في حياة الإمام (ع) لا يلبث إلا ان يلتقي مع مئات المواقف والاحداث، في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، التي لا تجد غير الإمام (ع) مدبراً لها ومعالجاً وقاضياً بأمر الشريعة فيها.

والخلفاء الثلاثة لم يروا بداً من استشارته. إذا التبست عليهم الأمور، وهكذا تجده ـ مرة ـ مرشداً إلى الحكم الإسلامي الصحيح في امر ما ومرة تجده قاضياً في شأن من شؤون الأمة، وأخرى موجهاً للحاكم الوجهة التي تحقق المصلحة الإسلامية العليا»[1].

ولقد نبه الخليفة عمر بن الخطاب مشيداً بفضل علي (ع) ومنوها بأهميته في مسيرة الخلافة بقوله: «اعوذ بالله ان اعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن»[2].

شخصيته وأخلاقه الاجتماعية:

لقد عبرت الكثير من النصوص عن شخصية الإمام ومكانته في دنيا الاسلام: فهو المطهر من الرجس، وهارون الأمة، وكفه ككف النبي (ص) في العدل، وهو رفيق الحق لا ينفك أحدهما من الآخر، وهو باب العلم الإلّهي، وفاروق الأمة وو.. الخ.

عبادته:

لكثرة تعاهده لأمر الصلاة والتضرع إلى الله تعالى يروي عروة بن الزبير في حديث له عن أبي الدرداء:

---

(١) راجع للأستفادة أمير المؤمنين/علي بن أبي طالب / لجنة التأليف في دار التوحيد ج١، ص: ٥٧ ـ ٥٨.

(٢) الدر المنثور / السيوطي ج٣، ص: ١٤٤، وسيرة عمر لابن الجوزي، صفحة ١٠٦ والفتوحات الإسلامية لدهلان جـ٢، ص: ٤٨٦ نقلاً عن الغدير ج٦ وج ٧.

قال: «شهدت علي بن أبي طالب. . وقد اعتزل عن مواليه، واختفى ممن يليه. . وبعد عن مكانه، فقلت الحق بمنزله، فإذا انا بصوت حزين ونغم شجيّ، وهو يقول: «إلّهي كم من موبقة حلمت عن مقابلتها بنقمتك، وكم من جريرة تكرمت عن كشفها بكرمك، إلّهي ان طال في عصيانك عمري، وعظم في الصحف ذنبي، فما أنا مؤمل غير غفرانك، ولا أنا براج غير رضوانك».

فشغلني الصوت، واقتفيت الأثر، فإذا علي بن أبي طالب (ع) بعينه، فاستترت له وأخملت الحركة، فركع ركعات في جوف الليل الغامر، ثم فرغ من الدعاء والبكاء والبث والشكوى فكان مما ناجى به الله تعالى، أن قال: «إلّهي أفكر في عفوك، فتهون عليّ خطيئتي، ثم اذكر العظيم من أخذك فتعظم عليّ بليتي».

ثم قال: «آه إن أنا قرأت في الصحف سيئة أنا ناسيها وانت محصيها، فتقول: خذوه فيا له من مأخوذ لا تنجيه عشيرته، ولا تنفعه قبيلته، ولا يرحمه الملأ إذا أذن فيه بالنداء».

ثم قال: «آه من نار تنضج الاكباد والكلى، آه من نار نزاعة للشوى، آه من لهبات لظى».

قال أبو الدرداء: ثم أمعن في البكاء. فلم اسمع له حساً، ولا حركة. . فأتيته فإذا هو كالخشبة الملقاة فحركته، فلم يتحرك، وزويته فلم ينزو.

ثم أتوه بماء فنضحوه على وجهه، فأفاق، ونظر إليّ وأنا أبكي فقال: مما بكاؤك يا أبا الدرداء؟

فقلت: مما أراه تنزله بنفسك.

فقال: يا أبا الدرداء، فكيف لو رأيتني، ودعي بي الى الحساب، وأيقن اهل الجرائم بالعذاب، واحتوشتني ملائكة غلاظ وزبانية فظاظ، فوقفت بين يدي الملك الجبار، قد أسلمني الأحباء ورفضني أهل الدنيا، لكنت أشد رحمة لي بين يدي من لا تخفى عليه خافية».

فقال أبو الدرداء: «فوالله ما رأيت ذلك لأحد من أصحاب رسول الله (ص)[1]
وحول التزامه بقيام صلاة الليل طول عمره الشريف، يروي لنا ابو يعلى ـ في المسند ـ عنه (ع) قال: «ما تركت صلاة الليل منذ سمعت قول النبي (ص): صلاة الليل نور»[2].

وكان يقول (ع) موضحاً علاقته بالله تعالى:
«إلّهي ما عبدتك خوفاً من عقابك، ولا طمعاً في ثوابك ولكن وجدتك اهلاً للعبادة فعبدتك»[3].

وهكذا كان علي (ع) في شدة تعلقه بالله، وعظيم تمسكه بمنهج الأنبياء (ع). انه ترجمة صادقة لعبادة محمد (ص) وزهد المسيح (ع).

زهده:

كان (ع) أشبه الناس طعمة برسول الله (ص) يأكل الخبز والخل والزيت ويطعم الناس الخبز واللحم»[4].

وعن سفيان الثوري عن عمرو بن قيس قال: «رؤى على علي (ع) أزار مرقوع فعوتب في ذلك؟

فقال: يخشع له القلب ويقتدي به المؤمن[5].
وعن الغزالي يقول: «كان علي (ع) يمتنع من بيت المال حتى يبيع سيفه، ولا يكون له الا قميص واحد في وقت الغسل ولا يجد غيره»[6].

ويقول الإمام (ع): «على ائمة الحق أن يتأسوا بأضعف رعيتهم في الأكل

---

(١) بحار الأنوار، ج ٤١، ص: ١١ ـ ١٢.
(٢) بحار الأنوار، ج ٤١، ص: ١٧.
(٣) نفس المصدر، ص: ١٤، وتذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي، ص: ١٤٤.
(٤) نفس المصدر، ج ٤٠، ص: ٣٣٠.
(٥) تذكرة الخواص، ص: ١٢٠.
(٦) مناقب ابن شهر اشوب، ج ١، ص: ٣٦٦ عن الاحياء للغزالي.

واللباس ولا يتميزون عليهم بشيء لا يقدرون عليه ليراهم الفقير فيرضى عن الله تعالى بما هو فيه ويراهم الغني فيزداد شكراً وتواضعاً»[1].

أخلاقه:

دخل ضرار على معاوية ـ أيام استكان الناس وأسلموا لمعاوية القياد ـ فألح على الرجل أن يصف له علياً فتردد ضرار كثيراً، فلما مضى معاوية في اصراره قال ضرار:

أما إذا لا بد «فكان والله بعيد المدى، شديد القوى، يقول فصلاً، ويحكم عدلاً، يتفجر العلم من جوانبه وتنطق الحكمة من نواحيه، يستوحش من الدنيا وزهرتها ويستأنس بالليل وظلمته.

كان والله عزيز الدمعة، يقلب كفه ويخاطب نفسه، يعجبه من اللباس ما خشن ومن الطعام ما جشب.

كان والله كأحدنا، يجيبنا إذا سألناه، ويبتدئنا إذا أتيناه ويأتينا اذا دعوناه.. ونحن والله مع قربه منا، ودنوه الينا لا نكلمه هيبة له ولا نبتديه لعظمته فإن تبسم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم. يعظم أهل الدين ويحب المساكين، لا يطمع القوى في باطله ولا ييأس الضعيف من عدله[2] وكان (ع) يوصي الناس بأخلاق الاسلام بقوله:

«سع الناس بوجهك ومجلسك وحكمك وإياك والغضب فإنه طيرة من الشيطان، واعلم أن ما يقربك من الله يباعدك من النار، وما باعدك من الله يقربك من النار»[3].

تواضعه:

---

(١) تذكرة الخواص، ص: ١١٨.
(٢) تذكرة الخواص، ص: ١٢٧ ـ ١٢٨.
(٣) نهج البلاغة.

فعن الصادق (ع) يقول: «كانَ علي (ع) يحطب ويكنس، وكانت فاطمة تطحن وتعجن وتخبز»[1].

ومن تواضعه (ع) انه خرج يوماً على أصحابه، وهو راكب فمشوا خلفه، فالتفت اليهم فقال: ألكم حاجة؟ قالوا: لا يا أمير المؤمنين، ولكنا نحب أن نمشي معك. فقال لهم: انصرفوا فإن مشي الماشي مع الراكب مفسدة للراكب ومذلة للماشي»[2].

ومن تواضعه الجم أكله خبز الشعير واللبن، ولبسه ابسط انواع اللباس، وترقيعه لثوبه البالي، وبساطته في مسكنه، ووقوفه بين يدي القاضي مع رجل من عامة الشعب الذي يضطلع الامام (ع) بقيادته[3].

وكان الإمام (ع) سهلاً قريباً متواضعاً، يلقي أبعد الناس وأقربهم بلا تصنع ولا تكلف ولم يحط نفسه بالألقاب ولا بأبهة الملك بل كان يتعامل مع الأمة كفرد منها، يعيش مشاكل الضعفاء ويتودد للفقراء ويعظم أهل التقوى من الناس.

ومن تواضعه (ع) مقابلته لمن يلقاه من البشر وطلاقة المحيا والابتسامة الحلوة وبشر الوجه، الغاء منه للحواجز والرسميات بين القيادة والأمة، وانهاء لدور الزخرف والألقاب التي تحيط بها الامراء والقادة انفسهم عبر تعاملهم مع الناس»[4].

حلمه:

ولقد اشتهر (ع) بحلمه وعفوه عمن يسيء الأدب معه، فهو لا يعرف الغضب الا حين تنتهك للحق حرمته أو تتعدى حدود الله تعالى، أو يتعدى على حقوق الأمة وتضر مصلحتها وهذه بعض نماذج عفوه وحلمه.

أسر مالك الاشتر (ر ه) مروان بن الحكم يوم الجمل، فلما مثل مروان بين يدي

---

(١) مناقب آل أبي طالب ج ١ ص: ٣٧٢.
(٢) البحار، ص: ٥٥ عن المحاسن.
(٣) بحار الأنوار ج ٤١، ص: ٥٦.
(٤) راجع للتوسع/ امير المؤمنين علي بن أبي طالب/ لجنة التأليف في دار التوحيد ج ٣، ص: ٧٣ - ٧٥.

الإمام (ع) لم يستقبله بسوء قط، وإنما عاقبه على موقفه الخياني اللئيم فحسب،[1]، ثم أطلق سراحه ومروان هو في حقده على الإسلام والإمام (ع) وهو في دسائسه ومكره، ودوره الخبيث في تأجيج الفتن في وجه الامام (ع) اشهر من أن نذكره، فهو الذي عارض البيعة للإمام (ع) وهرب من المدينة بعد البيعة مباشرة، وهو الذي ساهم في فتنة البصرة وألهب الناكثين وأغراهم بالتعجيـل بها. . الى غير ذلك من مواقفه الخسيسة.

ولقد عفا الإمام (ع) كذلك عن عبدالله بن الزبير[2] بعد أن اسره يوم الجمل وهو الذي كان يقود الفتنة في حرب الجمل.

وقد خلى سبيل موسى بن طلحة بن عبيد الله، وكان طرفاً في فتنة الجمل، فلما جيء به للإمام، طلب منه ان يستغفر الله ويتوب إليه ثم قال:

«اذهب حيث شئت، وما وجدت لك في عسكرنا من سلاح أو كراع (جمع الخيل) فخذه واتق الله فيما تستقبله من امرك وأجلس في بيتك»[3].

وهناك شواهد ومفردات كثيرة تروى لنا حلم الإمام وعظيم صفحه منها:

«دعا الإمام (ع) غلاماً له مراراً فلم يجبه، فخرج فوجده على الباب فقال: ما حملك على ترك اجابتي؟ قال:

كسلت عن اجابتك، وأمنت عقوبتك، فقال (ع):

الحمد لله الذي جعلني ممن يأمن خلقه، امض فأنت حرّ لوجه الله»[4].

«وقد خاطبه رجل من الخوارج بقوله: «قاتله الله كافراً ما أفقهه».

فوثب أصحاب الإمام (ع) ليقتلوه، فقال الإمام (ع): «إنما هو سبّ بسب أو عفو عن ذنب[5]

---

(١) المناقب ج ١، ص: ٣٨ ونهج البلاغة نص ٧٣.

(٢) شرح نهج البلاغة ج ١، ص: ٢٢.

(٣) بحار الأنوار ج ٤١، ص: ٥٠ نقلاً عن أمير المؤمنين/ دار التوحيد، ص: ٨٢.

(٤) المناقب ج ١، ص: ٣٧٩.

(٥) نفس المصدر، ص: ٢٨٠ وبحار الأنوار ج ٤١، ص: ٤٩.

وموقف الإمام (ع) مشهور من ابن ملجم المرادي الذي اغتاله في مسجد الكوفة حيث اوصى في آخر حياته ولديه الحسن والحسين (ع) بقوله:

«احبسوا هذا الأسير، وأطعموه وأسقوه، واحسنوا اساره فإن عشت فأنا أولى بما صنع فيّ، ان شئت استقدت وان شئت صالحت وان مت فذلك إليكم، فإن بدا لكم ان تقتلوه فلا تمثلوا به»[1].

***

(١) بحار الأنوار ج ٤١، ص: ٢٠٦ باب ١٢٧.

حياة الإمام علي (ع) السياسة

مدخل :

قبل الحديث عن مواقف الإمام (ع) من الاحداث، وكيفية معالجته لها، علينا أن نلم بشيء موجز عن تلك الظروف والملابسات الاجتماعية والاتجاهات الفكرية والسياسية التي سبقت حكمه، والتي بدأت الأمة الاسلامية تشهد فيها انحرافاً صريحاً عن مبادىء الاسلام وتعاليمه .

قلنا سابقاً بأن الأمة الإسلامية في عصر نبيها محمد (ص) انفرز فيها اتجاهان رئيسيان، رافقا نشوء الأمة، وبداية التجربة الإسلامية منذ السنوات الأولى، والاتجاهان الرئيسيان هما :

الأول : الاتجاه الذي يؤمن بالتعبد بالنص الديني ، وبالتالي تحكيمه والتسليم المطلق في كل مجالات الحياة .

الثاني : الاتجاه الذي يرى أن إيمانه بالاسلام لا يتطلب منه التعبد والتسليم الا في نطاق خاص من العبادات والغيبيات ، ويؤمن بجواز التصرف والتغيير والتعديل في النص الاسلامي»[1] .

وقد انعكس كلا الاتجاهين في مجلس الرسول (ص) «في آخر يوم من أيام حياته عندما طلب (ص) من الحاضرين، وفيهم عمر بن الخطاب، «أن يكتب لهم

(١) راجع للاستزادة بحث حول الولاية/ السيد الشهيد الصدر ـ وابن كثير في بدايته ومسلم في صحيحه.

كتاباً، كي لا يضلوا بعده» فكان رد عمر على طلب الرسول (ص) «بأن النبي (ص) قد غلب عليه الوجع وحسبكم والقرآن» فاختلف أهل البيت واختصموا «حتى قال لهم (ص) قوموا لا ينبغي عند نبي نزاع»[1].

وقد بدأ الصراع بين ممثلين هذين الاتجاهين في حياة النبي (ص)، وقد انعكسا على موقف المسلمين من اطروحة زعامة الامام علي (ع) للدعوة بعد النبي (ص)، فكان ممثلي الاتجاه (الاجتهادي) انه بالامكان التحرر من الصيغة المطروحة. من قبل النبي (ص) إذ أدى اجتهاده الى صيغة أخرى اكثر انسجاماً في تصوره مع الظروف وملابسات الواقع.

أما الاتجاه (التعبدي) فقد اتجه ممثله الامام علي (ع) منذ اللحظة الأولى إلى استنكار ما اتجهت إليه مقررات السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام (ع)، واسناد السلطة الى غيره.

ويمكن أن نشهد التحول والانحراف بوضوح، في حياة الأمة الإسلامية، منذ بداية النصف الثاني من عهد الخليفة عثمان بن عفان، هذا الانحراف نفسه صار فيما بعد أساساً للظروف والملابسات الاجتماعية والسياسية التي عاشها الامام علي (ع) فتصدى لها (ع) منذ اللحظة الأولى لتسلمه لزمام مسؤولية الخلافة في الدولة الإسلامية، محاولاً تحصين الأمة ضد صدمة انحراف (الحكام) والعودة بها إلى الحياة الإسلامية الكريمة.

ونشير هنا إلى أهم تلك الاحداث والظروف التي ساهمت في التمهيد للتطورات الكبرى في عهد عثمان بن عفان والتي عاش اثارها السيئة الامام علي (ع) وهي:

---

(١) راجع النص في صحيح البخاري/ باب مرض النبي/المجلد الثالث، وابن سعد في طبقاته، والطبري بتاريخه.

(٢) راجع للتفصيل فتوح البلدان، ص: ٤٣٧، وابن حديد شرح نهج البلاغة ج ٢٠، ص: ١٧ - ٢١.

١ ـ منطق السقيفة*:

نعني به الروح القبلية التي سادت وتحكمت بمنطق المتنافسين والاتجاه نحو تعزيز مبدأ انحصار السلطة بكـل واحد منهم وعـدم مشاركـة الآخرين في الحكم والتأكيد على المبررات الوراثية.

«من ينازعنا سلطان محمّد ونحن اولياؤه وعشيرته».

وحينما تجمع أنصار السقيفة لتأمير سعد بن عبادة قال قائل منهم: «ان ابت مهاجرة قريش، فقالوا: نحن المهاجرون ونحن عشيرته وأولياؤه، قالت طائفة منهم: إذا نقول منا امير ومنكم امير، لن نرضى بدون هذا أبداً».

وقال الحباب بن المنذر وهو يشجع الأنصار على التمسك: «املكوا عليكم أيديكم، إنما الناس في فيئكم وظلكم، فإن أبى هؤلاء فمنا أمير ومنهم امير».

فردّ عليه عمر قائلاً: هيهات لا يجتمع سيفان في غمد، من ذا يخاصمنا في سلطان محمد وميراثه ونحن أولياؤه وعشيرته ببـاطل أو متجـانف لاثم أو متورط في هلكه»[1].

هذا اللون من التفكير القبلي، واستعداد كثير من الانصار لتقبل فكرة اميرين احدهما من الأنصار والآخر من المهاجرين، حتى كان يرى كل جناح انه أحق من غيره بالأمر»[2] وعلي بن أبي طالب وغيره من الصحابة بعيدون عنهم لانشغالهم بجثمان النبي (ص) الذي كان لم يدفن بعد[3] حيث اندفع عمر بأبي بكر وتقديمه في اجتماع السقيفة، ليبتوا في أمر الخلافة، وحين بلغ النبأ الإمام علي (ع) رفض البيعة[4] ورفضها معه انصاره واستمروا هكذا ممتنعين عن البيعة ستة اشهر كاملة بل ان علياً اعتبر اجتماع السقيفة في غيبته تآمراً.

(*) راجع للاستفسار والتوسع ثورة الحسين/لمحمد مهدي شمس الدين، ص: ١٥.

(١) راجع في نصوص يوم السقيفة شرح نهج البلاغة ٦/٦ ـ ٩.

(٢) الطبري ج ٣١/٥، الكامل لابن الأثير ج ٣١/٣.

(٣) سيرة الرسول/لابن هشام ج ١٠١٨/٢.

(٤) انظر النزاع والتخاصم/ المقريزي ص: ٤٨.

هذه الروح القبلية هي التي فتحت على المسلمين باباً من أبواب الفتنة، كما يصرح بذلك عمر بقوله: «ان بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرها فمن عاد الى مثلها فاقتلوه، فأيما رجل بايع رجلاً من غير مشورة من المسلمين فإنهما تغرّة يجب ان يقتلا»[1].

٢ ـ مبدأ عمر في العطاء:

بعد أن كان العطاء بين المسلمين بالتساوي في زمن النبي (ص) وكذلك في عصر أبي بكر، عمد عمر إلى مبدأ التفصيل في العطاء.

«ففضل السابقين على غيرهم وفضل المهاجرين من قريش على غيرهم من المهاجرين. وفضل المهاجرين كافة على الأنصار كافة، وفضل العرب على العجم وفضل الصريح على المولى»[2] «وفضل مضر على ربيعة، ففرض لمضر في ثلاثمائة ولربيعة في مائتين[3] وفضل الأوس على الخزرج»[4].

وبهذا أوجد الخليفة بوادر الطبقية في المجتمع الإسلامي والتي اصبحت فتيلاً اشعلت نار الصراع القبلي بين ربيعة ومضر وبين الأوس والخزرج[5] والصراع العنصري بين العرب والعجم والصريح والموالي[6].

وقد أدرك عمر في آواخر حياته خط مبدئه وأعلن عزمه على الرجوع إلى مبدأ المساواة في العطاء بقوله:

«وإن عشت هذه السنة، ساويت بين الناس فلم أفضل أحمر على أسود ولا عربياً على عجمي وصنعت كما صنع رسول الله وأبو بكر»[7].

---

(١) الملل والنحل/الشهرستاني.
(٢) ابن حديد، ١١١/٨.
(٣) تأريخ اليعقوبي، ١٠٦/٢.
(٤) فتوح البلدان: ٤٣٧.
(٥) تأريخ اليعقوبي، ج ١٠٦/٢.
(٦) ابن حديد، ج ١١١/٨.
(٧) تأريخ اليعقوبي /ج٢ /١٠٧.

ولكن عمر اغتيل قبل ان يتمكن من معالجة غلطته، والرجوع عن مبدئه، فجاء عهد عثمان وسار عليه، فظهرت آثاره الضارة في الحياة الإسلامية، وكان من أهم العوامل التي مهدت للفتنة بين المسلمين في زمن الإمام علي (ع).

٣ ـ الشـــورى:

«نعني بها طريقـة عمر اختيار وتعيين ستة نفـر من قريش وتقـديمهم للأمـة الإسلامية كمرشحين للخلافة من بعده[١] واقتـراحه هـذا أثار في نفـوس كثير من الاشخاص البارزين في قريش وفي نفوس قبائلهم وأنصارهم، مطامح سياسية، ما كانوا ليحلموا بها، لأنهم رأوا ان بعض من رشحهم عمر لا يفضلونهم في شيء، بل ربما امتازوا عليهم في أشياء كثيرة.

فالناس كانوا يريدون علياً لأنهم يخشون سلطان بني أمية أما قـريش فكانت تخشى علياً في عدله واستقامته.

اجتمع الناس وكثروا على الباب، لا يشكون في علي وانه يبايع علي بن أبي طالب، وكان هوى قريش ـ ما عدا بني هاشم ـ في عثمان، وهوى طائفة من الانصار مع عليّ، وهوى طائفة أخرى مع عثمان، وهي أقل الطائفتين»[٢].

وقد ترسخ هذا الطموح عنـدما «تمت تنحيـة الإمام (ع) مـرشح الاكثـرية المسلمة عن الخلافة وإسنادها لعثمان بن عفان مرشح الارستقراطية القرشية، عندما بادر عبد الرحمن بن عوف بخلع نفسه ليكون في موقف المحايد، ويحصر الترشيح في علي (ع) وعثمان ليختار هو بينهما.

وقد طلب من علي (ع) ان يبايعه على كتاب اللهوسنة رسوله وفعل عمر وأبي بكر، فقال علي: لا.. ولكني أحاول ذلك جهدي وطاقتي، وطلب من عثمان نفس مـاطلبه من علي فـأجابـه عثمان على الفـور بـالمـوافقـة.. فبـايعـه.. وتمت لـه الخلافة»[٣].

---

(١) الكامل لابن الأثير ج٣/٣٦.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة ٩/٥٢.

(٣) عثمان/طه حسين نقلاً عن دائرة المعارف الإسلامية الشيعية/حسن الأمين٢/٩٤.

وقد عبر الإمام (ع) عن عدم رضاه عن هذه النتيجة بقوله «لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين ولم يكن فيها جور إلّا عليّ خاصة»[1].

بينما أخذ الطامحون إلى الخلافة يجمعون الأنصار حولهم في الخفاء ويستعينون على ذلك بأموالهم وقبائلهم، وانشاء علاقات المصاهرة مع القبائل الأخرى، حتى إذا تقدم العمر بخلافة عثمان قليلاً ظهرت هذه الاحزاب إلى العلن تعمل في سبيل هدفها.

وكانت عاقبة الشورى ومن نتائجها نشوء احزاب وتكتلات قائمة على الولاء الشخصي من ذوي الأهداف الشخصية للوصول إلى الحكم، مستغلة اسباب الشكوى والاستياء من عثمان وبطانته وولاته على الامصار، متفاعلة مع اسباب أخرى في أسلوب عثمان ومعالجاته في سياسة المال والادارة والاجتماع حتى كانت نتيجتها قيام الثورة ومصرع عثمان.

٤ ـ سياسة عثمان:

لقد دأب عثمان منذ ان ولي الحكم، على ممارسة سياسة خطرة ومغامرة في المال وتنصيب الولاة. فقد طفق يهب خواصه وذوي رحمه ومن يمت إليه بنسب أو سبب الأموال العظيمة، ويخصهم بالمنح الجليلة ويحملهم على رقاب الناس... وولي على البلدان الإسلامية شباناً من بني أمية لا يحسنون الحكم ولا السياسة، ذوي روح تسلطية عاتية، لم ينل منها الإسلام شيئاً مذكوراً..

وهكذا كونت هذه الطبقة ارستقراطية من الأغنياء المترفين الذين لا تزال تعتمل في صدورهم القيم البدوية الجاهلية، وقد امتد نفوذ هذه الطبقة في خلافة عثمان امتداداً هائلاً فسيطرت على الحكم سيطرة مطلقة وحازت الأموال العظيمة التي افاءها الله على المسلمين، والتي كان المفروض فيها ان تذهب إلى المعدومين

---

(١) نهج البلاغة ج ١/١٥١.

والفقراء، وانتشرت هذه الطبقة في طول البلاد وعرضها، حين فتح لها عثمان باب الهجرة والتنقل في البلاد الإسلامية.

وإلى جانب ذلك كانت ثمة طبقة أخرى تتألف من الأعراب وأهل البادية وكانت القوى المسلحة في الدولة الإسلامية مكونة منهم ينضم اليهم من دخلوا من الأمم (غير العرب) هؤلاء كانوا يلقون في زمن عثمان حيفاً كبيراً من طبقة الارستقراطية الناشئة الطامحة إلى المزيد من القوة والاستيلاء بسبب ما يعتمل في نفوس افرادها من قيم البداوة.

وكانت عاقبة ذلك ان تضخمت الفروق بين الطبقات تضخماً كبيراً من الناحية المادية والمعنوية، وانقلبت الأثرة إلى طغيان، وانقلب الحقد إلى زئير، وتراكم الطغيان حتى وجد رد فعل طاغ في ثورة المظلومين الذين اثقلهم الظلم الفادح على حكومة عثمان وعلى ولاته»[1]

«ولقد كان سلوك عثمان إزاء معارضي سياسته من كبار الصحابة واركان الدعوة سبباً في مضاعفة النقمة عليه.

فقد عارض سياسة عثمان في المال والإدارة عبدالله بن مسعود وكان خازناً لبيت المال فاعترضه عثمان بقوله: «إنما انت خازن لنا»، ثم اشتدت معارضة ابن مسعود فأمر عثمان بضربه حتى كسر بعض اضلاعه.

وعارضه أبو ذر الغفاري فنفاه إلى الشام، وما ان وصل الشام حتى اخذ ينتقد اساليب معاوية في انفاق الأموال العامة وصادف كلامه هوى في نفوس رعية معاوية فكتب إلى عثمان فأرسل إليه عثمان، فوصل أبو ذر إلى المدينة وقد تآكل لحم فخذيه

---

(١) دراسات في نهج البلاغة/لمحمد مهدي شمس الدين ص: ٢٥٥.

من عنف السير، فنفاه عثمان إلى الربذة، ولبث فيها حتى مات غريباً وحيداً سنة ٣٢ هـ.

وعارضه عمار بن ياسر، فشتمه عثمان وضربه، ولكن هذا العنف لم يثن عماراً فاستمر في معارضته، فأمر به عثمان فطرح ارضاً، ووطئه برجليه، حتى اصابه الفتق.

وعارضه غير هؤلاء من الصحابة من المهاجرين والانصار في الاحداث التي كان يقوم عليها. والسياسة التي كان ينتهجها، فلم يسمع منهم ولم يستجيب لهم.

وهؤلاء المعارضون كانوا يعبرون بمعارضتهم هذه عن إرادة جميع المسلمين الذين آذتهم سياسة عثمان في كراماتهم وارزاقهم، ولم يفسر المسلمون سياسة عثمان من المعارضة إلا بأنه عازم على المضي في سياسته دون الالتفات إلى أي نصح أو تحذير.

وقد مكن عثمان بسياسته هذه، لمعارضة اسباب القوة والنفوذ، وذلك حين اطلق لها ان تنمي ثرواتها، وتكوين الاقطاعات الضخمة، حيث راح افرادها يستكثرون لانفسهم من الأموال والاتباع، ويمنون انفسهم بالوصول إلى الخلافة، ويمنيهم بذلك اتباعهم وقبائلهم..

وقد أشار الطبري في احداث سنة ٣٥ إلى هذه الحقيقة فقال: «فلما ولي عثمان خلى عنهم فاضطربوا في البلاد وانقطع إليهم الناس... فلما رأوها ورأوا الدنيا ورآهم الناس انقطع من لم يكن له طول ولا مزية في الإسلام فكان مغموراً في الناس... فقالوا يملكون فنكون قد عرفناهم وتقدمنا في التقرب والانقطاع إليهم.. فكان ذلك أول وهن دخل على الإسلام وأول فتنة كانت في العامة ليس إلا ذلك»[1].

***

الإمام وموقفه من الثورة على عثمان:

المتتبع لخيوط احداث الثورة، وخط سيرها حتى مقتل الخليفة عثمان: يدرك

---

(١) الطبري: ٥/١٣٤ نقلاً عن ثورة الحسين/شمس الدين ص: ٤٥.

بأن الثورة وجمهورها الساخط، لم يكن أرعنا ولا قصير نظر:

«لقد كانت جماهير المحاربين هي مادة الثورة، أما وقودها فهو تصرفات عثمان وولاته وآل بيته، واما الذي اججها فهم اصحاب المصلحة فيها، هم هؤلاء الزعماء الذين اوتوا من الطموح ما جعل الخلافة هدفهم، ومن المال والمنزلة ما مكنهم من جمع الانصار حولهم ومن سوء الأوضاع ما سهل عليهم أن يعدوا الناس بخير مما هم فيه.

* * *

ومع كل هذا حاول الثوار المخلصون، مراراً الاتصال بأولياء الأمور ورموز السلطة الحاكمة ومن خلال ممثليهم لكي ينبهوا الخليفة عثمان ويعرفوه على سوء الحكم وضرورة معالجتها بالحكمة.

وكانت تأتيه وفود الامصار إلى المدينة مرات عديدة حاملة معها طائفة من مطاليبها وأمانيها، وكانت هذه الوفود في كل مرة تبوء بالفشل وتقابل بالاعراض والجفاء.

وقد سلك عثمان وبطانته من الامويين والمنتفعين تجاه الثوار سلوكاً بعيداً عن الحكمة والعدل، فبدلاً من ان تجاب مطاليب الثوار ردوا بعنف واستهين بهم، وجوبهوا بسياسة قاسية، هي هذه السياسة التي تمخض عنها مؤتمر عثمان مع عماله على الامصار والتي يرويها لنا الطبري بقوله:

«فقال له عبدالله بن عامر، رأيي يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وان تجمهرهم في المغازي حتى يذلوا لك، فلا يكون همّة أحدهم إلا نفسه، وما هو فيه من دبرة دابته وقمل فروه.. فرد عثمان عماله على اعمالهم وأمرهم بالتّضييق على من قبلهم، وأمرهم بتجمير (جمعهم) الناس في البعوث وعزم على تحريم (منع) أعطياتهم ليطيعوه ويحتاجوا إليه»[1].

---

(١) الطبري ٣/٣٧٣، ٣٧٤

ولكنّ هذه الاجراءات القاسية زادت نار المقاومة اشتعالاً فقد رأى هؤلاء الثوار انهم خدعوا فتألبوا ساخطين من الكوفة والبصرة ومصر والحجاز ومن هنا وهناك للقيام بمسعى جماعي لارغام عثمان على تغيير بطانته وعماله الذين اساؤوا السيرة وجاروا على الرعية. . . وكان الإمام (ع) يتوسط بينهم وبين الخليفة في مساع حميدة فيوعدهم الخليفة خيراً.

لكن ما وقع للوفد المصري، بعد ان برحوا المدينة، حتى اوعزت السلطة العليا إلى حاكم مصر بالقبض عليهم، وما كان من الثوار والمعارضين إلا ان عادوا مرة اخرى يرفعون مطاليبهم بعنف وقوة اشد، ولم يسعها لحجم عواطفها الملتهبة، بل هبت ساخطة محتجة على رعونة وحماقة هذه التصرفات ، وتريد وضع حد فاصل لالآمها وبؤسها. . .

وكانت مطاليبهم تشمل الآتي: -

١ ـ الأخذ بمبدأ العطاء المتساوي الذي سار عليه النبي (ص) دون سياسة التفضيل التي سنها عمر والتي لا تزال.

٢ ـ تطهير الجهاز الحاكم من المنتفعين والمستغلين، لا سيما مروان بن الحكم وبطانته المتنفذة في استغلال وتسيير دفة الحكم.

٣ ـ الوقوف بحزم تجاه اطماع قريش واستئثارهم بالثروات والمناصب ووضع حد لها.

٤ ـ الحيلولة دون استذلال الأمراء للأهلين وامتهان كراماتهم كما فعلوا مع أبي ذر وعمار بن ياسر عندما تحدّوهم وناقشوهم بسلوكهم المنحرف.

٥ ـ الحد من صلاحية الولاة والأمراء في اطلاق ايديهم في التصرف بالخراج والأموال العامة. وصلت هذه المطاليب إلى عثمان، ولكنه لم يفعل شيئاً مذكوراً تجاهها كلياً ، وترك الأحداث تتأزم وتتفاقم وتؤج كالنار في الهشيم، فتخوف الإمام على نتائج الأمور وبادر على الفور إلى الاجتماع بعثمان فقال له:

«الناس ورائي، وقد كلموني فيك، والله ما أدري ما أقول لك، وما أعرف

شيئاً تجهله ولا أدلك على أمر لا تعرفه، انك لتعلم ما نعلم ما سبقناك إلى شيء فنجدك عنه، ولا خلونا بشيء فنبلغكه وما خصصنا بأمر دونك. . . فالله الله في نفسك فإنك والله ما تبصر من عمى، وما تعلم من جهل وان الطريق لواضح بيّن»[1].

ومما قاله (ع) أيضاً لعثمان: ان معاوية يقتطع الأمور دونك وانت تعلمها فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية».

ولكن معاوية لم يزل بعثمان يوغر صدره على علي (ع) ويضرب له المثل بشدته فيقول:

«هكذا يستقبلك وأنت إمامه وسلفه وابن عمه وابن عمته، فما ظنك بما غاب عنك منه؟»[2].

وكان عثمان احياناً يذعن لنصائح الإمام (ع)، ويعزم على الإصلاح ولكن سرعان ما يتعلل بمختلف الأعذار ولا يستقر على رأي.

وحيال تردد عثمان قال له الإمام (ع):

«ما يريد عثمان ان ينصحه احد، اتخذ بطانة غش ليس منهم أحد إلا وقد تسيّب بطائفة من الأرض يأكل خراجها ويستذل أهلها»[3].

وكان عمرو بن العاص يحرض الناس علانية على سياسية عثمان حتى قال يصف نفسه:

«أنا أبو عبدالله إذا حككت قرحته نكأتها ان كنت لألقى الراعي فأحرضه على عثمان».

وهذه عائشة تجترىء على عثمان وهي تخطب، وقد نشرت قميص النبي (ص) قائلة:

---

(١) راجع دائرة المعارف/الأمين ج٢/ ص: ٨٧.

(٢) ن. م ص: ٧٨.

(٣) ن. م ص: ٨٧.

«هذا قميص النبي لم يبل وقد ابليت سنته».

أما طلحة والزبير فقد وصلت بهما الحال إلى اعانة الثائرين بالمال للإطاحة بعثمان والجموع الوافدة من كل مكان، تفتحت ثائرتها، ومضت في اندفاعها متنمرّة غاضبة، وكان الإمام علي (ع) موقفه من هؤلاء الثائرين كاطفائي الحريق يبذل كل ما في وسعه لتخفيف ثائرتهم واطفاء حريقها الملتهب.

وما كان من عثمان إلا ان استمهل الثوار ثلاثة أيام لكي يجتمع بهم بعدها ليكون اجتماعاً حاسماً فاصلاً، فلما انتهت اجتمعت جماهير غفيرة على بابه ولم يخرج لهم، بل خرج عليهم مروان بن الحكم مبعوثاً عن عثمان، فخاطبهم بكلمات ملؤها الرعونة والاستعلاء قائلاً:

> «ما شأنكم قد اجتمعتم، كأنكم جئتم لنهب؟ شاهت الوجوه كل إنسان أخذ باذن صاحبه؟ جئتم تريدون ان تنزعوا ملكنا من أيدينا؟ اخرجوا عنا أما والله لئن رمتمونا ليمرّنّ عليكم أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم، ارجعوا إلى منازلكم، والله ما نحن بمغلوبين على ما في أيدينا».

كانت هذه الخطبة الملغومة، بمثابة الفتيل الذي اشعل نار الثورة، فأرسل عثمان على الفور على الإمام علي (ع) فأبى ان يأتيه وقال (ع) معلقاً بقوله: «قد أعلمته أنني لست بعائد» لأن الإمام (ع) كبر عليه منطق مروان الذي فاجأ به الجمهور المحتشد بلسان الخليفة، بعد ملأكلامه حمقاً ورعونة لا تطاق، ورأى أن قيمة وساطته لا تعني شيئاً لانها لا تجدي نفعاً، وقد امتنع واثقاً بأن عثمان سيضطر تحت ضغط الجمهور إلى إجابة مطالبهم الاصلاحية الحقة، وتنحية مروان وبطانته ولكن شيئاً من هذا لم يقع، واسرع عثمان بارسال كتاب إلى معاوية في الشام يقول فيها: «ان اهل المدينة قد كفروا واخلفوا الطاعة ونكثوا البيعة فابعث إليّ من قبلك من مقاتلة أهل الشام على صعب وذلول» فإذا بمعاوية حينما جاءه كتابه يتربص به ولا يجيبه[1].

---

(١) راجع دائرة المعارف/الامين ص: ٨٨.

ومضت الأيام والاحداث تـزيد الهـوة اتساعـاً، وتحولت كـل هذه الاخـطاء والانحرافات إلى خيبة آمال مئات واسعة من المسلمين وغضبها، كما تسببت إلى جانب ذلك، في انبعاث كثير من القيم والاخلاق والمطامح الجاهلية التي نشطت للعمل من خلال ممثليها ورموزها في قمة السلطة في مجالات السياسـة والاقتصاد والاجتماع وقد أدى انبعاث هذه القيم الجاهلية إلى تعارض في المصالح بين ممثلي هذه القيم وبين أكثرية المسلمين الذين كانت تتغذى نفقوسهم بالآمال التي تولدها قيم الإسلام في العدالة الخالصة والمساواة. . هذا التعارض المأساوي الذي ما فتئت تغذيه أخطاء الحكم وسياسات الرموز الجاهلية العائدة فتعمقه، وتزيده حدّة، وتدفع به إلى مزيد من الاتساع والانتشار.

وقد تراكم كل ذلك على مدى سنين، واتسع إلى ان شمل حواضر الدولة كلّها وأدى في النهاية إلى عاقبته الوخيمة وثمرته المرّة، ثورة شارك فيها الاغنياء والفقراء الساخطون بلا حقد، والحاقدون من عليّة القوم، وأدت الثورة الى مقتل الخليفـة عثمان وإلى دخول المسلمين في منعطف من تأريخهم جديد[١].

* * *

الإمـام (ع) وموقفـه مـن تولـي الحكم:

بعد مقتل الخليفة عثمان، توجهت انظار الثوار إلى الإمام علي (ع) «يطلبون منه ان يلي الحكم، ولكنه ابى عليهم ذلك، لا لأنه لم يأنس من نفسه القوة على ولاية الحكم وتحمل تبعاته، فقد كان (ع) على تمام الاستعداد لذلـك، كان قـد خبر المجتمع الإسلامي من أقطاره، وخالط كافة طبقاته وراقب حياتها عن كثب، ونفذ إلى اعماقها، وتعرف على الوجدان الطبقي الذي يشدها ويجمعها، وقد مكنه من ذلك مركزه الفريد من النبي (ص) وهو مركز لم يكن احد من الصحابة يتمتع به، اعدته اعداداً تاماً لمهمة الحكم»[٢].

---

(١) راجع حركة التأريخ عند الإمام علي (ع) /محمد مهدي شمس الدين، ص: ١٤٣.

(٢) راجع للتوسع ثورة الحسين/ شمس الدين، ص: ٥١.

بل إن الإمام رأى المجتمع الإسلامي قد تردى في هوة من الفوارق الاجتماعية والاقتصادية والتي زادت عمقاً واتساعاً بسبب سياسية ولاة عثمان خلال مدة الخلافة ، ورأى ان التوجيهات الإسلامية ومفاهيمها العظيمة التي عمل النبي (ع) طيلة حياته على ارساء اصولها في المجتمع الإسلامي الناشىء قد فقدت فاعليتها في توجيه حياة الناس. وإنما صار الناس إلى واقعهم هذا لأنهم فقدوا الثقة بالقوة الحاكمة التي تهيمن عليهم، فراحوا يسعون إلى إقرار حقوقهم وصيانتها بأنفسهم.

«قد أدرك (ع) أن حجم الحاجات التي يفتقر اليها الناس والآمال التي تعمر قلوبهم اكبر بكثير من حجم الامكانات التي توفرها مؤسسات الدولة، وان حجم المعوّقات التي يمثلها رموز العهد الماضي ، وقواه التي شلتها الثورة فاضطرت إلى الانكماش.. حجم هذه المعوّقات كبير وخطير، لأنها مستشرية في جميع مراكز السلطة»[1].

وهكذا انقطعت الصلة بينهم وبين الرموز المعنوية التي يجب ان تقود حياتهم والسبيل إلى تلافي هذا الفساد هو إشعار الناس ان حكماً صحيحاً يهيمن عليهم، لتعود إلى الناس ثقتهم الزائلة بحكامهم، ولكن هذا لم يكن سهلاً قريباً فثمة طبقات ناشئة لا تسيغ مثل هذا ولذلك فهي حرية بأن تقف في وجه كل منهج اصلاحي ومحاولة تطهيرية.

إذن فقد كان الإمام (ع) يدرك نتيجة لوعيه العميق للظروف الاجتماعية والنفسية التي كانت تجتاح المجتمع الإسلامي في ذلك الحين، ولأن المدّ الثوري الذي انتهى بالأمور إلى ما انتهت إليه بالنسبة إلى عثمان يقتضي عملاً ثورياً يتناول دعائم المجتمع الإسلامي من النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسياسية.

ومن هنا كان رفض الإمام (ع) وامتناعه عن الاستجابة الفورية لضغط الجماهير والصحابة عليه بقبوله الخلافة ، فقد اراد ان يضعهم أمام اختبار يكشف به مدى استعدادهم لتحمل اسلوب الثورة في العمل، لئلا يروا فيما بعد أنه استغلهم

---

(١) حركة التاريخ عند الإمام علي (ع)/محمد مهدي شمس الدين ، ص: ١٤٣.

واستغل اندفاعهم الثوري حين يكتشفون صعوبة الشروط التي يجب ان يناضلوا الفساد الذي ثاروا عليه في ظلها.

ولهذا أجابهم الإمام (ع) بقوله:

«دعوني والتمسوا غيري، فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان لا تقوم له القلوب، ولا تثبت عليه العقول، وان الآفاق قد اغامت والمحجة قد تنكرت، واعلموا اني ان اجبتكم ركبت بكم ما أعلم ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وان تركتموني، فأنا كأحدكم، ولعلّي اسمعكم واطوعكم لمن وليتموه، أمركم وأنا لكم وزيراً خير لكم مني امير»[1].

ولكن الناس اصروا عليه ان يلي الحكم، فاستجاب لهم «ورجا ان يخرج بالناس من واقعهم الاجتماعي التعس الذي احلتهم فيه اثنتا عشرة سنة مضت عليهم في خلافة عثمان إلى واقع انبل وأحفل بمعاني الإسلام.

ولقد دأب بعد أن بويع خليفة للمسلمين على بيان الهدف الذي ابتغى من وراء ولاية الحكم، وذلك بأن يكون في مركز يمكنه من ان يصلح شؤون الناس، وان يرفع عن المظلومين فادح ما رزحوا تحته من ظلم، قائلاً:

«اللهم انك تعلم انه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فصول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك، ونظهر الاصلاح في بلادك، فيأمن المظلومين من عبادك وتقام المعطلة من حدودك»[2].

ولأجل هذا قبل (ع) ان يتولى الحكم.

الإمام (ع) في الحكم:

تسلم الإمام الحكم في مجتمع ورث الفساد، وكانت تنتظره مشاكل معقدة

(١) نهج البلاغة ج١ ص: ٥٩ وشرح النهج جـ ص: ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٢) دراسات في نهج البلاغة/شمس الدين، ص: ٢٦٠.

كثيرة على مختلف الاصعدة ، فعالنهم الإمام (ع) منذ اللحظة الاولى لمباشرته مسؤولية الحكم بسياسته الثورية الجديدة التي قرر ان يتبعها من أجل تحقيق الأهداف التي قبل الحكم من أجلها ، وقد تناولت سياسته الثورية ثلاثة ميادين هي :

١ ـ الميدان الحقوقي .
٢ ـ الميدان المالي والاقتصادي .
٣ ـ الميدان الاداري والسياسي .

وقد اثيرت ـ مع الأسف ـ حول سياسة الإمام (ع) واصلاحاته الكثيرة من الشكوك والاحكام المرتجلة، حتى شاعت في كتب التاريخ، واتخذها قارئو التاريخ الإسلامي قضية مسلماً بها مفروغاً من بحثها والاستدلال عليها، وخصوصاً سياسته الادارية التي كثرت فيها الاحكام العاطفية وراجت حولها الآراء المغلوطة. . وهذا ما سوف نناقشه بالتفصيل وبأسلوب تحليلي عميق، مستعينين بما طرحه الشهيد السيد الصدر بمحاضراته التي القاها على طلبته في النجف الاشرف لنستوضح من خلالها حقيقتها، بعد ان نمر سراعاً بالميدانين الحقوقي والمالي بصورة عابرة.

١ ـ الميدان الحقوقي : تناولت اصلاحاته في هذا المجال، الغاء مبدأ التفاضل في العطاء واعلان مبدأ المساواة الذي يساوي فيه كل المسلمين ويعتبرهم سواء في الحقوق والواجبات فجاءت مقوله الإمام (ع) بهذا الصدد قوله :

«الذليل عندي عزيز حتى آخذ الحق له والقوي عندي ضعيف حتى آخذ الحق منه»[١] ويوصي (ع) الأشتر النخعي في كتابه القيم قائلاً :

«انصف الله وانصف الناس من نفسك، ومن خاصة أهلك، ومن لك فيه هوى من رعيتك فإنك ألا تفعل تظلم ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده. . وليكن احب الأمور أوسطها في الحق واعمها في العدل»[٢].

---

(١) نهج البلاغة ج١ ص: ٢١٧. (٢) ن. م/٤٣٨.

ويقـول (ع) :

«أيهـا الناس اعينـوني على انفسكم ، وأيم الله لانصفن المـظلوم من ظالمه ، ولأقود ن الظالم بخزامته حتى اورده منهل الحق وان كان كارهاً» .

الميدان المالي والاقتصادي: وركز (ع) من خلاله على نقطتين مهمتين : -
اولاً : الثروات غير المشروعة التي تكونت ايام عثمان .
ثانياً : اسلوب توزيع العطاء التفضيلي .

ولذا فقد قام (ع) بمصادرة جميع ما أقطعه عثمان من القطائع وما وهبه من الأموال العظيمة لطبقة الارستقراطيين ، وعالنهم بسياسته في توزيع المال بقوله :

«أيها الناس إني رجل منكم لي مالكم وعليّ ما عليكم واني حاملكم على منهج نبيكم ، ومنفذ فيكم ما أمره ، ألاّ وان كل قطيعة أقطعها عثمان ، وكل مال أعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فإن الحق لا يبطله شيء ، ولو وجدته قد تزوج به النساء ، وملك الاماء ، وفرق في البلدان لرددته ، فإنّ في العدل سعة ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه اضيق»[1] .

ولعل قادة الطبقة الثرية فكرت في مساومة الإمام (ع) على بذل طاعتهم له على ان يفضي عما سلف منهم ، فأرسلوا إليه الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وقال له : «يا ابا الحسن ، انك قد وترتنا جميعاً ، ونحن اخوتك ونظراؤك من بني عبد مناف ، ونحن نبايعك اليوم على ان تضع عنا ما أصبناه من المال ايام عثمان ، وأن تقتل قتلته وانا ان خفناك تركناك فالتحقنا بالشام»[2]

أما رد الإمام (ع) لها فجاء واضحاً ومؤكده لعزمه في مواصلة تطبيق المنهج الذي بدأ به ، فقال :

«فأما هذا الفيء فليس لأحد فيه أثرة ، وقد فرغ الله من قسمته فهو مال الله

---

(١) نهج البلاغة ج١ صفحة : ٥٩ .
(٢) شرح نهج البلاغة ج٧ صفحة : ٣٧ - ٣٩ - ٤٠ .

وانتم عباد الله المسلمون، وهذا كتاب الله به أقررنا وله اسلمنا وعهد نبينا بين أظهرنا فمن لم يرض به فليتول كيف شاء»[1].

وبهذه الاجراءات الغى الإمام (ع) كل أشكال التميز في توزيع المال على الناس مؤكداً ان التقوى والسابقية في الإسلام، أمور لا تمنح اصحابها امتيازات في الدنيا ومن كان له قدم في ذلك، فالله يتولى جزاءه، أما في هذه الدنيا فالناس سواسية في الواجبات والحقوق.

«وأيما رجل من المهاجرين والانصار من أصحاب رسول الله (ص) يرى ان الفضل له على سواه لصحبته، فإن الفضل النيّر غداً عند الله وثوابه وأجره على الله»[2].

وهكذا جسد الإمام (ع) مفهوم التسوية في العطاء بين جميع الناس الذين يتمتعون بحق المواطنة الإسلامية، دون تمييز لاي سبب من الاسباب.

الميدان الاداري والسياسي:

لقد باشر الإمام اصلاحاته في هذا الميدان، بتجديد مواصفات ولاة الأمر، وموظفي الدولة، الذين ترشحهم موازين الإسلام، لادارة شؤون الأمة الإسلامية وذلك ببيان اصدره جاء فيه:

«إنه لا ينبغي ان يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والاحكام وإمامة المسلمين البخيل، فتكون في أموالهم نهمته (شهوته) ولا الجاهل فيضلهم بجهله، ولا الجافي فيقطعهم بجفائه، ولا الحائف (الظالم) للدول (المال) فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في الحكم فيذهب بالحقوق، ويقف بها دون المقاطع (حدود الله). ولا المعطّل للسّنّة فيهلك الأمة»[3].

---

(١) شرح نهج البلاغة ج٧ صفحة: ٣٧ ـ ٣٩، ٤٠.
(٢) شرح نهج البلاغة/لمحمد عبده ج١ ص: ٢٦٩.
(٣) نهج البلاغة/صبحي الصالح رقم ١٣١ ص: ١٨٩.

ففي ضوء هذا التحديد الموضوعي لصفات ولاة الأمر عمد الإمام (ع) إلى عملين:

اولاً: الاستغناء عن خدمات قسم الولاة الذين كانوا يتولون أقاليم الدولة الإسلامية، وعزلهم عن الأمصار، مبيناً اسباب عزلهم قائلاً:

«ولكني آسي ان يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حداً في الإسلام، وان منهم من لم يسلم حتى رضخت له على الإسلام الرضائخ»[1].

لقد سبق للخليفة عثمان، ان قرّب ممن طردهم الرسول (ص) أو أقصاهم، لقد رد عمه الحكم بن امية إلى المدينة بعد ان طرده رسول الله (ص) واصبح يسمى طريد رسول الله، وآوى عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وكان النبي (ص) قد اهدر دمه، وولاه عثمان مصر كما ولي عبدالله بن عامر البصرة فاحدث فيها من الأحداث ما جعل المؤمنين ينقمون عليه وعلى عثمان»[2].

ثانياً: إسناد ولايتها إلى رجال من أهل الدين والعفة والحزم، وذلك لانه (ع) ان اكبر عناصر الشكوى، واهم اجزائها هو الجزء الخاص بالأمراء والولاة، فبادر الإمام (ع) إلى تغيير التعينات القديمة، وأصدر أمره بتولية عثمان بن حنيف على البصرة وسهل بن حنيف على الشام، وقيس بن سعد بن عبادة على مصر، وأبو موسى الأشعري على الكوفة، وهي من الامصار الكبرى آنذاك.

وقد كلمه الكثيرون، ومنهم المغيرة بن شعبة بشأن ولاة عثمان فأشار عليه بأن يبقى هؤلاء الولاة على أعمالهم، وريثما يستتب له الوضع، ولكنه أبى عليه ذلك وعزلهم، وهكذا فعل مع طلحة والزبير بشأن ولاية الكوفة والبصرة وردّهما رداً رفيقاً مما حملهما للضغط على الإمام (ع) والتشكيك بقيادته، ونكث بيعتهما له

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) النظم الإسلامية، نشأتها وتطورها، د. صبحي الصالح ص: ٩١.

والمجاهرة بمطالبته بدم عثمان، متناسين انهما كانا من بين المحرضين على الثورة على عثمان، بل وطالبوا الإمام (ع) بإعادة طرح أمر الخلافة شورى بين المسلمين وزعما انهما بايعا علياً عن اكراه وان بيعتهما لهذا لا تجوز»[1].

ورد على مزاعمهم الإمام (ع) بقوله:

«فأقبلتم إليّ إقبال العوذ المطافيل (الانثى ذات الطفل من الانس والوحش) على اولادها، تقولون البيعة قبضت كفي فبسطتموها، ونازعتكم يدي فجاذبتموها اللهم انهما قطعاني»[2].

ويتضح موقف الإمام (ع) من إبعاد طلحة والزبير عن ولاية البصرة والكوفة، بالرغم من الآراء التي اعتبرته عملاً سياسياً يتسم بقصر النظر.

ولكن تتضح سلامة موقف الإمام (ع)، عندما تعرف بأن المواقف الممكنة من طلحة والزبير لا تخرج عن أربعة مواقف، كلها اغمض عاقبة، وأقل سلامة، وأضعف ضماناً من موقفه الذي ارتضاه»[3].

فالموقف الاول:

أن يقوم بتوليتهما البصرة والكوفة، وقد كان عبدالله بن عباس على هذا الرأي، ولم يرتضيه الإمام (ع) لأنه البصرة والكوفة فيهما الرجال والأموال، ومتى تملكا رقاب الناس، يستميلان السفينة بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوي بالسلطان، ثم ينقلبان عليه اقوى مما كانا بغير ولاية.

الموقف الثاني:

أن يعمل الإمام (ع) على الوقيعة بينهما ليفترقا، ولا يتفقا على عمل، وهو بعمله هذا سوف يعطي احدهما ويحرم الآخر، فمن اعطاه لا يضمن انقلابه، ومن

---

(١) اليمين واليسار في الإسلام/أحمد عباس صالح ١١٨ ـ ١١٩.

(٢) نهج البلاغة ص/١٩٥.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية/نقلاً عن الكاتب عباس محمود العقاد ص/٨٤.

حرمه لا يأمن ان يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره إلى الشام ليساوم معاوية او يبقى في المدينة على ضغينة مستورة.

الموقـف الثالث:

إن يعتقلهما (اعتقالاً سياسياً) أسيرين ولا يبيح لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألاه الأذن بالمسير إليها، ثم خرجا منها إلى البصرة ليشنا الغارة عليه، وكان يعلم (ع) بأمرهما، حين سألاه الأذن بالسفر إلى العمرة فقال لهما:

«ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة».

وأغلب الظن لو ان الإمام أقدم على حبسهما، لأثار عواطف الناس عليه ونقموا حبسهما قبل أن تثبت البينـة بوزرهمـا. بل ربمـا شك بعض أنصـاره في سياستـه تجاههما.

ومن تلك الأحكام المرتجلة التي اتهموا الإمام بها قولهم في سياسة الإداريـة، (والتي سنأتي عليها شرحاً وتحليلاً فيما بعد) وخصوصاً عزل معاوية والي الشام، وقبوله التحكيم في حربه ضده - في صفين ومعلوم ان الإمام (ع) لم يقبل بالتحكيم إلا بعد ان أحجم جنده عن الحرب، ووقعت الخلافات في صفوفهم وأخذت تتفاقم إلى حد التهديد بالخطر والاقتتال بين الرافضين والقابلين بالتحكيم، حتى انهم هددوا بقتل الإمام كما قتل عثمان. وأحاطوا به يلحون في استدعاء الأشتر النخعي الذي كـان يلاحق اعدائه، مستأسداً في ساحة الحرب على أمل النصر القريب.

أما المؤرخون الذين صوبوا رأيه في التحكيم وخطّأوه في قبول أبي مـوسى الأشعري على علمه بضعفه وتردده، ينسون ان أبا موسى الأشعري كـان مفروضـاً عليه، كما فرض عليه التحكيم والنتيجة واحدة متشابهة لو ناب عنه الأشعري أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس لأن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر عليّاً بالخلافة، وان توهم بعضهم بأن الأشتر أو ابن عباس كان قديراً على تحـويل ابن العاص عن رأيه والجنوح به إلى ضرب علي... فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع يعز عليهم اخفاقهم كما يعز عليه شخصياً.

فليس في أيدي المؤرخين الناقدين إذن حلّ اصوب من الحل الذي اذعن له الإمام (ع) على كره منه، سواء اذعن له وهو عالم بخطئه او أذعن له وهو يسوي بينه وبين غيره في عقباه»[1].

أما عزله (ع) لمعاوية، فهي القضية التي استأثرت بأهتمام المؤرخين وكتاباتهم، حتى وصل بهم القول «بأن معاوية ضرورة حتمية في التأريخ العربي، باعتباره مرحلة من مراحل بناء الدولة وتركزها، جاعلين من معاوية رجل دولة وسياسة ودهاء التزم سياسة واقعية بارعة، مقابل سياسة خيالية مغرقة بالمثل الاخلاقية التي اتبعها خصمه الإمام علي (ع)[2].

والآن نسأل، هل كان بمستطاع الإمام علي ان يقر معاوية في عمله بالشام وهل كان موقفه هذا صحيحاً لو انه استطاع؟

ويجيب الكاتب عباس محمود العقاد «أن ليس بإمكان الإمام ان يقر معاوية في عمله لسببين: -

اولاً: لأنه أشار على عثمان مراراً بعزله، وكان وجود معاوية وأمثاله من الولاة المستغلين، أهم المآخذ على حكومة عثمان، فلو أمره فماذا يكون موقف اشياعه فيه، وما سيقوله الناس؟

ثانياً: إذا هو أعرض عن رأيه الأول فهل في وسعه ان يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج عن حكم عثمان إلى حكم جديد؟ . . وندع هذاونزعمأن أقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع، فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق؟.

نقول: كلا على الارجح، لأن معاوية لم يعمل في الشام عمل وال طوال حياته ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول إلى ما وراءه، لكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية/عن عباس محمود العقاد، ص: ٨٦.
(٢) الدولة العربية إلى نهاية الدولة الأموية، ليوليوس فلها وزن، ترجمة عبد الهادي أبو رية ص: ١٥٨.

التي يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من بعـده، فجمع الأقـطاب من حولـه، واشترى الانصار بكل ثمن في يديه وأحاط نفسه بالقوة والثروة واستعد للبقاء الطويل، واغتنام الفرصة في حينها، فأي فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره؟»[1].

يقول الإمام علي (ع) في هذا المقام «والله ما معاوية بأدهى منيّ، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس، ولكن كل غدرة فجرة وكل فجرة كفرة لا ولكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة»[2].

وقال في موقف آخر: «ولقد اصبحنا في زمان قد اتخذ أكثر اهله الغدر كيساً ونسبهم أهل الجهل منه إلى حسن الحيلة مالهم! قاتلهم الله، قد يرى الحوّل القلّب وجه الحيلة ودونها مانع من أمر الله ونهيه فيدعها رأي عين بعد القدرة عليها، وينتهز فرصتها من لا حريجة له في الدين»[3].

طبيعة موقف الإمام (ع) ومعاوية من الصـراع:

من المعروف تأريخياً، أن الأمويين كانوا ألد اعداء الإسلام، وانكد خصومه، منذ ان بزغ فجره، وحتى آخر مرحلة من مراحل حكمهم، ولم يدخلوا الإسلام إلا بعد (ان رضخت لهم على الإسلام الرضائخ)[4]، واستنفذوا جميع امكاناتهم في حربه وباؤوا بالفشل، ولما دخلوا فيه مرغمين، اخـذ يعملون بدأب على تهميشـه وتمزيقه، وإعادة مظاهر الجاهلية بأسلوب جديد وبلبوس الإسلام.

والمعروف عند المؤرخين، ان معاوية(*) قد نشأ في وسط، اغلظ الجاهليات

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية /نقلاً عن الكاتب العقاد، ص: ٨٣ - ٨٤.

(٢) نهج البلاغة، رقم النص ٢٠٠.

(٣) نهج البلاغة، رقم الخطبة: ٤١.

(٤) نهج البلاغة.

(*) هو أبو عبد الرحمن معاوية بن أبي سفيان القرشي الأموي، أمه هند بنت عتبة، اسلم بعد الفتح وولّاه اخوه لما طعن في عمواس ١٨ هـ، فأقره عمر بن الخطاب وبقي والياً على الشام حتى قتل عثمان فتمرد على الإمام علي (ع) وجهز جيشاً لقتاله فتلاقيا في صفين سنة ٣٦ هـ ولما لاح النصر لجيش علي (ع) خدعهم برفع المصاحف ودعوتهم الى حكمه فقرروا التحكيم فغدر عمرو بن العاص بأبي موسى، وفي سنة ٤١ هـ صالحه الإمام الحسن (ع) فاصبح خليفة المسلمين وتوفى سنة ٦٠ هـ.

القبلية التي حاربت الإسلام وأعرافه حتى اخضعها الإسلام بقوة السيف، نشأ فيها حتى صلب عوده وانتقل على كبر سنه من مكة بعد فتحها إلى المدينة، ومن الجاهلية إلى الإسلام، ولم يمكث في المجتمع الإسلامي الناشىء إلاّ وقتاً قصيراً لا يكفي ليتطبعّ فيه بالطابع الإسلامي الجديد عليه ويتمرن به ليستطيع ان يؤثر على ذلك المجتمع الذي امتدت حضارته إلى آماد بعيدة في الدهر، بل هو الذي تأثر بها.

وكان معاوية من ابرز الرموز التي اشتركت مع قريش في جميع مواقفها العدائية من الإسلام، وكان يبعد من ذلك المجتمع من كان يعترض سبيله من صحابة تطبّعوا بالطابع الإسلامي الأصيل نظراء أبي ذر وأبي الدرداء وقرّاء أهل الكوفة[1].

ولم يدخل معاوية ولا أبوه وأمه في الإسلام ؛ إلا قبل وفاة النبي (ص) ببضع سنين وكانوا يبطنون الشرك ولكن كما يحدثنا المؤرخون، بأن معاوية كان على قدر كبير من الكياسة والدهاء والمكر، ساعدته على ان يخفي أكثر ما كان يكنه من سوء للإسلام وظهر للمسلمين بمظهر الحريص عليهم.

ونريد هنا ان نبين حقيقة موقف الإمام (ع) ومعاوية من الصراع وما لابسها من ظروف ذاتية وموضوعية ، والذي كان له أثر فاعل وعميق في تأريخنا الإسلامي إلى يومنا هذا.

وبصدد طبيعة الصراع كان يوجد منذ البدء في طبيعة موقف الإمام (ع) الذي مثل اطروحة ـ الدعوة الإسلامية ـ وطبيعة موقف معاوية الذي كان يمثل خط الانحراف (الجاهلية)، ما يفرض أو ما يقرب النتيجة التي انتهى إليها الصراع بينهما[2].

وهناك عدة مؤشرات ونقاط يجب ان تكون موضع اعتبار الدارس، عندما يعرض لطبيعة الصراع المحتوم بين الإمام (ع) ومعاوية.

---

(١) شرح نهج البلاغة للمعتزلي/١/١٥٩.

(٢) اعتمدنا [illegible] تحليلنا على آراء الشهيد الصدر/في محاضرات [illegible] في النجف الاشرف.

موقفي الهجوم والدفاع :

اولاً : كانت طبيعة موقف الإمام من الصراع وملابسات الظروف تتمثل بالهجوم على معاوية في عقر داره في الشام، وتصفيته سياسياً فعمليته كانت على مستوى الغزو وكانت عملية معاوية على مستوى الدفاع ورد الهجوم.

فالإمام (ع) عندما تسلم مسؤولية الحكم في الدولة الإسلامية وجد نفسه مسؤولاً بشكل مباشر عن تصفيّة «الانشقاق» ومحاولة التمرد - غير الشّرعي - الذي أوجده خط بني امية بشخص معاوية «وهم ممن وقفوا من الإسلام موقف خصومة وعداء، وقد اعلنوا إسلامهم تقية ونفاقاً».

فكانت مهمة إزالة الانشقاق وتصفيتها من جسم الأمة الإسلامية هي مسؤولية وقدر الإمام (ع) ومن مشاكل دولته الملحة التي يجب ان يعالجها بأسرع وقت.

فالإمام (ع) حينما اختار عاصمته الكوفة، حيث مركز قاعدته الشعبية فيها، كان مطلبه السياسي الاول هو تعبئة هذه القاعدة - والتي يستند إليها في تسير الحكم - ثم العمل من خلالها، على تصفية التجزئة غير المشروعة. والتي قدر لها ان تتركز في ثغر من ثغور المسلمين في الشام. واجبارهم بالقوة على الانضمام إلى الخط الشرعي.

فمهمة التخطيط لتصفية الانشقاق كانت تعني بالنسبة للإمام (ع) ان يبدأ معاوية بالهجوم والغزو، ناقلاً قاعدته الشعبية، ومكلفاً إياها بأن تقوم وتتحرك وتخرج من بلادها مهاجرة في سبيل الله تاركة امنها واستقرارها ومعيشتها لكي تقضي على ازمة الانشقاق والتي تمثلت بالانفصال - غير المشروع - التي اوجدها معاوية في جسم الأمة الإسلامية.

بينما لم يكن معاوية على هذا المستوى من التخطيط، ولم يكن موقفه موقف الغازي أو المهاجم بل كان همه الأوحد أن يمسك بالشام ويكرس انفصالها عن باقي اجزاء الوطن الإسلامي وازاء هذه الحقيقة، لابد من ان ندرك فارقاً كبيراً يميز طبيعة كلا الموقفين وأثرها على طبيعة الصراع ... فالفرق كبير جداً بين قائد يأمر جيشه بأن يتحرك من بلاده مهاجراً ليخوض معركة - هجومية - لا يوجد أي اعتبار أو دافع

لخوضها، سوى احياء الرسالة الإسلامية واطروحتها للحياة ، ولم تكن هناك أية دوافع خاصة وراء هذه المعركة حيث ان العراقيين لم تتعطل مصالحهم المادية ، بسبب انفصال ولاية الشام عن جسم الوطن الإسلامي ولم يتلقوا معهم بعداوة سابقة، وإنما كانت اعتبارات الرسالة ودوافعها الإنسـانية هي الاعتبـار الوحيـد، والدافـع الذي يستصرخهم ويناديهم إلى خوض معركة تصفية الانشقاق ، والقضاء على التجزئة التي منيت بهـا الأمة على يـد اعدائهـا القدُامى، ولابـد من إعادة ارض الشـام للدولـة والمجتمع الإسلامي.

فهم إذن وعلى ضوء هذه الحقيقة، يجب ان يكونوا مدفوعين للمعركة بدافع رسالي كبير أو ان يكـونوا بمستـوى عظيم من فهم القضيـة وأدراك لابعادهـا وتبين لمضمونها، حتى يكونوا بمستوى العطاء لها، سواء بنفوسهم أو ارواحهم واموالهم فكان موقف الإمام علي (ع) يتطلب ويفترض ويطرح قضية الهجوم على اناس لا يملكون في غالبيتهم الوعي لخطورة وضعهم المائع في مواجهة الانحراف، انطلاقاً من عدم استيعابهم لابعاده.

بينما هذا المستوى من العطاء والجهد لم يكن هو اطروحة معاوية لجيشه، فهو لم يطالب جيشه بغزو العراق ولا باحتلال باقي اجزاء العالـم الإسلامي، بـل كان يمنيهم بسيادة واستقلال وفي النهاية وعلى الخط الطويل يحقق حلمه في زعامة العالم الإسلامي بعد أن يخلو له الجو، وتتهيأ له الفرص والمناسبات والظروف الموضوعية لكي يتآمر على الزعامة المطلقة في كل ارجاء العالم الإسلامي.

أما الأشخاص والقواعد الشعبية التي كانت تدور في فلك الإمام (ع) والتي استجابوا لنداء الحرب والقتال معه (ع) فقد كان منهم العدد الكبير من الـواعين وانصاف الواعين والمتعاطفين لسبب وآخر هؤلاء هم الذين استجابوا لمطالب الرسالة منذ اللحظة الأولى وشعروا بأن واجبهم الإسـلامي يفرض عليهم تصفيـة التجزئـة ووضع حد لها، فأعطوا من التضحيات ما أعطوا، وخاضوا عدة معارك باسلة وقدموا للقضية الإسلامية التي طرحها الإمام عطاء لا يستهان بـه. . ولكن كان لابـد لهذا العطاء من ان يتناقص تدريجياً، وذلك وفقاً لمستوى وعيهم للقضية» وخصوصاً رؤساء القبائل الذين دخلوا المعركة، وهم تحت سلطان الدولة برئاسة الإمام علي من ناحية

وتشيعاً لأهل العراق ضد أهل الشام من ناحية أخرى، وطمعاً في السيادة والغلب إذا كتب النصر لعلي وهناك القوى المؤيدة لسياسته من الناحية الاجتماعية سواء عن الوعي أو بحكم وضعها الطبقي»[1].

ولهذا السبب لم تكن الاطروحتان متكافئتين، ومن حيث درجة الجهة ومن حيث درجة الطرح ومن حيث درجة الدفع والتحريك.

فهناك اطروحة تريد من الجيش ان يخرج من بيته مهاجراً يغزو في سبيل الله، وأطروحة أخرى تريد من الجيش أن يبقى في بيته وأن يحافظ على استقلال وطنه في ارضه.

هذا الفرق الكبير بين الاطروحتين، ودرجة الجهد التي تتطلبها كل منهما ،كان له دور كبير في طبيعة موقفيهما.

«معركة تصفية الانحراف الداخلي»

ثانياً:

كان الإمام علي (ع) يواجه انحرافاً منْ داخل المجتمع الإسلامي الذي يحكمه نتيجة للظروف والملابسات السياسية والتأريخية التي سبقت حكمه إلى مسؤوليته (ع) في مواجهة تصفية التجزئة السياسية (في الشام) والتي كانت لها الأولية في سلم مهامه الإصلاحية.

وكان لا بد للإمام (ع) أن يبادر لخوض معركة ضد الانحراف الداخلي الذي كان يعيشه المسلمون في العراق والحجاز والعالم الإسلامي بشكل عام.

فالإمام (ع) كان بين معركتين، معركة ضد (التجزئة السياسية) ومعركة (ضد الانحراف الداخلي) في المجتمع الإسلامي ،والذي تمثل في سياسة سابقة، من التحيز اللا إسلاميّ[2]، حتى شاهدنا جلياً كيف ان التجربة الإسلامية أخذت تنهار

---

(١) نفس المصدر السابق ص/١٣٨.

(٢) راجع ما كتبناه في موضوع الميدان الإداري والسياسي/ص:

تحت وقع الضربات التي وجهها (المنافقون) مستغلين قياداتها، ومن ثم صادروا تلك القيادات بكل وقاحة وعنف، حتى تحولت الخلافة إلى ملك موروث يستهتر بالكرامات ويقتل الأبرياء ويبعثر الأموال ويعطل الحدود ويجمد الاحكام[1].

ومن هناك قدر الإمام (ع) في ان يصفي هذه الأوضاع المنحرفة ويقلم اظافرها وان يسترجع الأموال من الخائنين والبدء بحرب دون هوادة على كل الأفكار والمفاهيم غير المنسجمة مع خط الإسلام.

وقد شملت إجراءات الإمام (ع) بعض الزعماء المتنفذين كطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام، وقد انكرا على الإمام (ع) سياسته واعتبراها مخالفة للنهج الذي الفه الناس.

ورد عليهما الإمام (ع): ما الذي كرهتما من أمري حتى رأيتما خلافي؟ قالا: إنك جعلت حقنا في القسم كحق غيرنا، وسويت بيننا وبين من لا يماثلنا فيما افاء الله علينا بأسيافنا ورماحنا وأوجفنا عليه بخيلنا ورجلنا، وظهرت عليه دعوتنا واخذناه قسراً قهراً ممن لا يرى الإسلام إلا كرهاً»[2].

وقد دفعت هذه الاجراءات بهما ان دبرا حركة تمرد في البصرة استهدفت إسقاط حكم الإمام (ع) وذلك تحت ستار الثأر لعثمان.

وعلى ضوء حقائق مجتمع الإمام (ع) وظروفه المعقدة. كانت تنتظره معركة كبيرة ومضنية في الداخل، حيث كان من المفروض لهؤلاء أن يكونوا عوناً بجانبه في معركته الخارجية في تصفية الإنشقاق.

وعلى العكس بالنسبة إلى معاوية، فانه لم يكن يعيش معركة تغيير وتصحيح داخل مجتمعه، بل إنه كان يعمد إلى «شراء الضمائر بالمال، ويفضل طائفة بحرمان أخرى ولا يهمه أن ينزل بدافعي الضرائب من الزرع والتجار أفدح الظلم

---

(١) راجع للاستفادة بحث حول الولاية/السيد الشهيد الصدر

(٢) علي بن أبي طالب ـ نظرة عصرية جديدة/د. محمد أحمد خلف الله/ص: ٣٢.

في سبيل الحصول على الأموال الكافية لتغذية أطماع حفنة من رؤساء القبائل لتكون على إستعداد تام في قمع ولجم أي حركة تحريرية تقوم بها جماعة من الناس»[1].

ومن الجدير بالإشارة ـ وكما تجمع عليه كل المصادر التاريخية ـ أن الشام دخلت الدولة الإسلامية بالفتح العسكري، ولم يدخلها الإسلام دخولاً كبيراً، بل دخلها بالإسم والشعارات فقط ولم يدخل بمضمونه الحقيقي الواعي إلى قلوب أهل الشام، فهم ما يزالون يعيشون راسباً جاهلياً متأثرين بالأفكار التي آمنوا بها قبل الإسلام، حتى ان أوضاعهم الفكرية والإجتماعية والسياسية لا تختلف بدرجة كبيرة عما كانوا عليه قبل الإسلام.

ولم يكن يرى معاوية أي تناقض بين أهدافه وأطروحته، وبين المجتمع الشامي، الذي كان بوضعه الفكري والإجتماعي والسياسي مؤهلاً تماماً لتقبل أطروحة معاوية.

وكانت أهدافه تتلخص بزعامة ملكية قيصرية وهرقلية، لا تؤمن بالارتباط الحقيقي بالله تعالى، مستهدفة تحويل الإسلام إلى مؤسسة تخدم مصالح طبقة المستغلين على حساب مصالح الأمة، بينما أطروحة الإمام علي (ع) كانت تواجه انحرافاً مزمناً منذ وفاة النبي (ص)، وكان (ع) مسؤولاً عن تصفيتها وإزالتها دون رجعة.

وقد واجه (ع) الأطماع والأحزاب السياسية، التي تكونت في عهد عمر بن الخطاب حيث تفاقمت مشاكلها وتناقضاتها بعد عمر نتيجة للشورى، مما دعت هذه الزعامات والأحزاب ان تفكر في أمر مستقبلها السياسي، وتخطط في كيفية الاستفادة بأكبر قدر ممكن من الفائدة في خضم هذا التناقض.

أما معاوية فلم يمنى بصحابة (اجلاء) يعاصرونه، ويقولون له نحن صحابة

---

(١) ثورة الحسين/شمس الدين/ص: ٤٦.

كما أنت صحابي، بل أن أهل الشام مسلمين لاسلامه وإسلام أخيه يزيد من قبل، ولم ير أحد من الشاميين رسول الله (ص) ولم يسمعوا القرآن إلا عن طريق معاوية.

ولهذا كنا نرى حالة الاستسلام والطاعة التامة في المجتمع الشامي بالنسبة لمعاوية، ولا يوجد ما يناظرها بالنسبة إلى الإمام (ع) في مجتمع المدينة والعراق.

فمعركة الإمام (ع) الداخلية التي كان يواجهها، لم يكن معاوية يواجه نظيراً لها في مجتمعه الشامي.

«مركز الإمام في نظر المسلمين»

ثالثاً:

إن مركز الإمام (ع) قبل الخلافة، وقبل خوض المعركة كان يختلف اختلافاً كبيراً عن مركز معاوية قبل خوض المعركة مع الإمام (ع).

فالإمام(ع) كان قد تكون له في نظر المسلمين - المفهوم الرسمي للخلافة - (الأمر الواقع) قبل تسلمه لمسؤ وليات الخلافة وهو ان الإمام علي، ليس إلا صحابياً جليلاً، له خدمات جلى ثناء حياة الرسول (ص)، فحاله كحال غيره من الصحابة الأجلاء من ذوي الخدمات الكبيرة في زمن النبي (ص).

هذا الاتجاه الذي أدانه الإمام (ع) منذ اللحظة الأولى واستنكر ما اتجهت إليه مقررات السقيفة من تجميد لأطروحته في الزعامة الفكرية والسياسية، وإسناد السلطة إلى غيره، وامتنع (ع) من تقديم البيعة لستة أشهر كاملة، حتى أن المسلمين وبالتدريج - وخضوعاً للأمر الواقع - وبحكم السياسة الحاكمة على يد الخلفاء الثلاثة - بدأوا يعاملون علياً على هذا الأساس (باعتباره الصحابي الجليل لا أكثر).

وبحكم هذا التقويم، كان يوجد كثير من الصحابة، ممن كانوا يرون أنهم لا يقلون عن الإمام (ع)، وإن قلوا فإنهم يقلون عنه، بدرجات، والفرق بينهم وبينه

فـارق تافـه . . فهم صحابـة رسول الله (ص) وهـو كذلـك، هم أخـذوا العلم من الرسول وهو أخذ العلم منه (ص). . فهم كانوا يعترفون للإمـام (ع) بأنـه الأفضل والأروع، والأكثر اجتهاداً منهم (على أفضل تقدير) ولكنهم كانوا يرون الفارق بينهم وبينه فارق درجة ليس إلا[1].

هذا الوضع الذي تحدثنا عنه، لم يتواجد نظيـراً له في المجتمـع الشامي، فمعاوية كـان يعيش في بلد لم يكن قد نشـأت فيه زعـامات سيـاسية طـامحة إلى الحكم ولم يكن فيـه أنـاس ذوي سـابقـة في الإســلام ممن يـرى لنفســه الحق بالمساهمة في التخطيط ومن تقدير الأمور. هذا المجتمع الذي لم يكن يعرف غير معاوية وأخيه يزيد، لأن الشّاميّن ـ تأريخياً ـ دخلوا الإسلام على يد أخ معاوية وهو يزيد بن أبي سفيان والي بعثة أبي بكر إلى الشام، ولما مات يزيد بن أبي سفيـان ولى أبي بكر بعده أخاه معاوية بن أبي سفيان»[2] ولم يكن قد مني بتناقضـات من هذا القبيل.

فأهل الشام كانوا كفاراً ودخلوا الإسلام على يد معاوية وأخيه يزيد من قبل، فنظرتهم إلى معاوية نظرة إحترام وتقدير باعتباره همزة الوصل بينهم وبين الإسلام.

هذه الحقيقة، استفاد منها الأمويون، عندما حـاربوا الحسين (ع) فيمـا بعد حاربوه باعتباره شخصاً مارقـاً من الدين ومخـالفاً لـلإمام الشـرعي، وانطلقـوا في محاربتهم إلى ما عهدوه من السند الديني للأمويين في نفوس الشاميين»[3].

فنظرة أهل الشام ورجالاتهم إلى معـاوية ـ على ضـوء الحقيقة التـأريخية ـ تختلف عن نظرة أهل المدينة والعراق إلى الإمام (ع) وهذه النظرة المختلفة بالذات

---

(١) الاحتجاج/الطبرسي، راجع بحث حول الولاية/السيد الشهيد الصدر.

(٢)) صانعوا التاريخ العربي/د. فيليب حتي.

(٣)) الدولة العربية سقوطها ولها وزن/والطبري ج ٤ ص ٣٣١.

هي التي أوجدت باستمرار في حياة الإمام (ع) تناقضاً وكثيراً من الآراء والاجتهادات المتضاربة وامتناعاً في كثير من الأحيان عن قبول رأي الإمام (ع) بينما كان أهل الشام يتلقون أوامر معاوية بالتسليم والطاعة التامة.

أما الإمام علي (ع) فقد عاش في مدينة الرسول (ص)، حيث حاضرة الإسلام الأولى، التي عاش فيها الرسول (ص) وعاش بعد ذلك أبو بكر وعمر وعثمان، وقد واجه الإمام علي (ع) كثيراً ممن كانوا يرون أن من حقهم المساهمة في التخطيط والمشاركة في رسم الخط وواجه أشخاصاً كانوا يرون أنفسهم ندا للإمام وغاية الأمر إن الإمام (ع) ند أفضل ومقدم ـ ولكنهم بالتالي صحابة رسول الله والإمام صحابي عاشوا جميعاً مع رسول الله (ص).

ومن المعلوم بأن خلافة الإمام (ع) جاءت بعد وفاة النبي (ص) بعشرين سنة، ويعني هذا أن الامتياز الخاص الذي تمتع به الإمام (ع) في عهد النبي (ص) كان قد انتهى مفهومه وتضاءل أثره في نفوس المسلمين بعد أن عاشوا عشرين سنة وكانوا يرونه مأموماً ومنقاداً وجندياً بين يدي الخلفاء الذين سبقوه في الحكم.

هذا الوضع ولد احساساً نفسياً لدى المسلمين اتجاه الإمام (ع) ظهر أثره في مصادرة تلك الأثار التي خلفها عهد النبوة.

فالصحابة الذين ساهموا في حل الأمور وعقدها وساهموا في تثبيت خط السقيفة وقدر لهم أن يمشوا في خط الانحراف والذين قدموا للإسلام في صدر حياتهم، هؤلاء الصحابة كانوا ينظرون للإمام علي (ع) باعتباره الأخ الأكبر دون أن يروا ان إسلامهم مستمد من خطه، هذه الحقيقة التي كانت واضحة في عهد النبوة حرفت من خلال عهد الخلفاء أبي بكر وعمر وعثمان، ولهذا كان الصحابة يعترفون بأن علياً هو الأفضل دون أن يروا أنفسهم مجرد تابع يؤمر فيطيع.

فكان هناك صحابة من هذا القبيل، يريدون أن يساهموا في التخطيط ويشاركوا في رسم الخط، في ظرف دقيق وحساس. لا تتحمله عقولهم القاصرة.

يقول طه حسين «وكان بينه (ع) وبين معاوية اختلاف آخر يغـري الناس بـه ويجمعهم، كان (ع) يدبر أمور أصحابه على ملأٍ منهم، لا يستبد من دونهم بشيء، وإنما يستشيرهم في الجليل والخطير من أمره، وكان يرى الرأي فيأبونه ويمتنعـون عليه، ويضطرونه إلى أن ينفذ رأيهم هم، ويحتفظ برأيه لنفسه وكان ذلك يغريهم به ويطمعهم فيه.

ولم يكن معاوية يعطي أصحابه بعض هذا الذي،كان يعـطيهم (ع) لم يكن يستشيرهم وإنما كان المشيرون من خاصته، فكان إذا أمر اطاعه أهل الشام دون أن يجمجموا فضلاً عن أن يجادلوا، ثم كان معاوية يحتفظ بسره كله لا يظهر عليه إلا من أراد أن يظهره عليه خاصته، وكانت أمور علي (ع) كلها تدبر على ملأ من الناس لا تخفي على أصحابه من أمره خافية مهما يكن خطرها.

كان علي (ع) يدبر خلافة، وكان معاوية يدبر ملكاً كان عصر الخلافة انقضى وكان عصر الملك قد أطل»[1].

رابعاً: إستقلال معاوية بأقليم من أقاليم الـدولة الإسـلامية ـ الشـام ـ وهذا الأقليم لم يكن للإمام علي (ع) أي رصيد أو قاعدة شعبية تسانده أو تواليه.

ومن المعلوم تأريخياً أن أقليم الشام دخل الإسلام بعد وفاة رسول الله (ص) والإمام بعيد عن الحياة السياسية، منعزل عن خط العمل الإجتماعي الفاعل، وقد دخل اقليم الشام ودشن حياته الإسلامية بولاية يزيد بن أبي سفيان أخ معاوية الذي تولى قيادة الشام بعد أخيه يزيد.

وتعني هذه الحقيقة ـ التأريخية ـ أن الشاميين عاشوا الإسلام بمنظار ـ آل أبي سفيان ـ أما علي (ع) فلم يسمع له ذكر عندهم، ولم يتفاعل مع وجودهم الإسلامي

---

١) الفتنة الكبرى/طه حسين/ص: ١٦٥.

والعقائدي وهو بالتالي لا يملك شعاراً له رصيد أو قاعدة شعبية تواليه في المجتمع الذي يتزعمه معاوية ويحمل فيه لواء الانشقاق على الدولة الإسلامية.

وفي الجانب الآخر ترى العكس، فأن معاوية كان يملك شعاراً لـه رصيد، وقاعدة شعبية قوية في نفس المجتمع الذي تزعمه الإمام علي (ع).

فمعاوية كان يحمل شعار ـ الخليفة المقتول ـ والمطالبة بدمه، وكان عثمان الخليفة القتيل زعيم المجتمـع الذي تـولاه بعده الإمـام علي (ع). وكان لعثمـان قواعد أو وجود كبير في هذا المجتمع، ولهذا جاء شعار معاوية متجاوباً ومتلاقياً مع قاعدة ورصيد شعبي داخل مجتمع الإمام (ع)، بينما لم يكن شعار الإمام علي (ع) يلتقي مع قاعدة ورصيد داخل مجتمع معاوية في الشام.

خامساً: كان هناك فرق آخر بين الإمام (ع) ومعاوية، وهو أن الإمام (ع) كان يتبنى قضية هي في صالح الأضعف من أفراد المجتمع، وكان في حكمه ينهج نهج الإسلام الذي يستجيب لحاجات عامّة الناس.

أما معاوية فقد تبنى قضية هي في صالح الأقوى من أفراد المجتمع. الإمام (ع) كان يتبنى الإسلام بما فيه من قضايا العـدالة الاجتمـاعية التي يمثلهـا النظام الاقتصادي للإسلام وهذه القضايا لم تكن في صالح الأقوى بل كانت في صالـح الأضعف.. ومعاوية كان يمثل الجاهلية بفوارقها وعنفوانها وطبقاتها، وهذا لم يكن في صالح الأضعف، بل كان في صالح الأقوى.

ومن المعلوم تأريخياً إنـه بعد وفـاة رسول الله (ص)، حينمـا دخل العـراق والشام، وبقية البـلاد ضمن إطار المجتمـع الإسلامي، لم يتمكن الخلفـاء الذين تزعموا قيادة المسلمين، على تذويب النظام القبائلي الذي كان مـوجوداً في هـذه الأقاليم، بل بقي التنظيم القبائلي سائداً، وبقي زعيم كل قبيلة هو الرابط بين قبيلته وبين السلطان.

وهذا التنظيم القبائلي بطبيعة تكوينه، يخلق جماعة من الزعماء المتنفذين، ومن شيوخ هذه القبائل، الذين لم يربّهم الإسلام،لأنهم لم تتح لهم فرصة معايشة أيام النبوة عيشاً صحيحاً، مما جعل من هؤلاء، طبقة معينة ذات مصالح وذات أهواء ومشاعر في قواعدها الشعبية، مما يوفر لهم أسباب النفوذ والاعتياد عليهم.

فالمجتمع الإسلامي الذي تركه الخلفاء وورثه الإمام (ع) كان يعج بالتقسيمات القبلية بحيث أن كل قبيلة كانت تخضع إدارياً وسياسياً لزعامة واحد من أولئك الشيوخ الذي كان بمثابة همزة وصل بين قبيلته والحاكم، وهذه الحالة تسهل مهمة الحكام المنحرفين في أن يرشوا رؤوساء هذه القبائل بقدر الإمكان، وهذا ما كان يفعله المنحرفين من الحكام، وكان عاملاً من عوامل القوة بالنسبة إلى معاوية.

«وبينما كانت حكومة الإمام علي (ع) تسير على نهج إسلامي خالص كانت حكومة معاوية في الشام تسير على نهج آخر في الحكم يقوم على شراء الضمائر بالمال، يغذي به أطماع حفنة من رؤساء القبائل العربية يؤلفون جهازه العسكري المتأهب دائماً لقمع أي حركة تحررية تقوم بها جماعة من الناس.

فقد كان رؤساء القبائل في العراق يرون سياسة معاوية فيعجبون بها، فهي تلبي ما يطمحون إليه من غنى ووجاهة وارتفاع قدر، بينما هم لا يجدون شيئاً من هذا في حكومة الإمام.

فكان المجتمع مجتمع قبلي يدين لرؤسائه بالطاعة المطلقة.

وهؤلاء الرؤساء يطمحون إلى المزيد من القوة والسلطان والغنى والمنزلة الإجتماعية، ولا يجدون شيئاً منها عند الإمام (ع) بينما يجدونها عند معاوية كما يشتهون.

ويقول هؤلاء الرؤساء أن حكومة معاوية خير من حكومة علي وهي خير لهم بلا إشكال، وتسمع القبيلة مقالة زعيمها فتدين بها.

على هذا النحو كانت سياسة معاوية تؤثر في العراق، وقد وعي ذلك جماعة من المخلصين للإمام فقالوا له:

«يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، واستمل من تخاف خلافه من الناس»[1].

ولكن الإمام (ع) أجابهم قائلاً:

«أتأمروني أن أطلب النصر بالجور.. لو كان المال لي لسويت بينهم فكيف وإنما المال مال الله؟ ألا وان اعطاء المال في غير حقه تبذير وإسراف وهو يرفع صاحبه في الدنيا ويضعه في الآخرة، ويكرمه في الناس ويهينه عند الله»[2].

وقد صارت الشام ملاذاً لمن يغضب عليه الإمام لخيانة خانها في عمله أو جريرة جرها على نفسه ومطمحاً لمن يريد الغنى والمنزلة، فيجد عند معاوية الاكرام والرفعة، والعطاء، والمنزلة الإجتماعية.

وقد كتب الإمام (ع) إلى عامله سهل بن حنيف في شأن قوم من أهلها لحقوا بمعاوية:

«وإنما هم أهل دنيا مقبلون عليها، ومهطعون إليها، وقد عرفوا العدل ورأوه وسمعوه ووعوه، وعلموا أن الناس عندنا أسوة، فهربوا إلى الأثرة، فبعدا لهم وسحقاً»[3].

وقد كان الإمام (ع) يعرف كيف يجعلهم إلى صَفِّهِ لو أراد، فيفضلهم، ويعطيهم الأموال ويجعلهم على رقاب الناس، ويرضي غرورهم القبلي، ولكن

---

(١) شرح نهج البلاغة ١ ـ ١٨٢.

(٢) شرح نهج البلاغة ١ ـ ١٨٢.

(٣) نهج البلاغة رقم النص ٧٠.

ذلك كان ينقلب به إلى جبار يدّعم ملكه بالسيف، بدل ان يكون أبا للرعية قد عم سلطانه القلوب، لقد قال لهم مرة:

«وإني لعارف بما يصلحكم ويقيم أودكم، ولكني لا أرى إصلاحكم بافساد نفسي»[1](*).

هذه الظروف الموضوعية التي مر ذكرها انفاً، لم يصنعها الإمام (ع) وإنما صنعت من خلال تأريخ طويل، وهي التي أوجدت لمعاوية مركزاً قوياً مقابل مركز ضعيف للإمام(ع)، ولولا براعة الإمام وتضحيته، وكفاءته ورصيده الروحي في قطاعات شعبية واسعة، لما استطاع (ع) أن يجيش الجيوش لحروب داخلية دامت قرابة أربع سنوات.

سادساً: دعوى (الحس والوعي) إن دعوى الإمام علي (ع) في معاوية لم تكن على مستوى (الحس) إنما كانت على مستوى (الوعي) والواعون لم يكونوا كل المسلمين «بل أغلب الناس عادة يخضعون في فهمهم للواقع لتفسيرات سطحية. أقرب ما تكون إلى الحس، والتي تستسلم للأسباب القريبة الجاهزة التي تبدو للعين من أول نظرة، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عما وراء الواقع الحسي، أو يحاولوا التعرف على الرسالية البعيدة التي ساهمت في نشوء هذا الواقع أو ذاك[2].

أما دعوى معاوية في علي (ع) فقد صورها واخرجها وكأنها على مستوى (الحس) والناس كلهم يعيشون «الحس» وقلة منهم يعيشون حالة الوعي الرسالي.

الإمام علي (ع) كان يقول في معرض إشارته إلى معاوية بأنه لا يمثل خطأ من خطوط الإسلام ورسالته العظيمة، وإنما يمثل جاهلية أبيه (أبو سفيان) وإنه يريد أن يقضي على الكيان الإسلامي وتحويل المجتمع الإسلامي إلى مجتمع آخر، لا يؤمن بالإسلام وبالقرآن ويريد للخلافة أن تتأطر بإطارات قيصرية وكسروية.

---

(١) نهج البلاغة رقم النص ٦٧.

(٢) مفاهيم إسلامية عامّة/الحلقة الخامسة/السيد محمد حسين فضل الله/ ص: ٤٣.

كان هذا هو إدعاء الإمام (ع) في معاوية.

أما إدعاء معاوية في الإمام (ع). فكان يقول: بأن الإمام (ع) أثار الناس وهيجهم للثورة على عثمان بن عفان، الخليفة الشرعي وقتئذ، وان أصحابه وأهله، كانوا في طليعة الثوار على عثمان، وان علياً (ع) قد خطط عن طريق هؤلاء الأصحاب لقتل عثمان ومن ثم تربع على كرسي الحكم بعده «ومضى يتجادل على أساس هذه الدعوى الحسية بينما أخفى هدفه الأصيل طي الكتمان، ولم تلبث المجادلات حول الحجة تتراكم حتى تغطي فعلاً على الحقيقة[1].

ما أقرب دعوى معاوية للتصديق على مستوى (الحس)، وهل هناك شخص يعيش الأرقام التي كان يقدمها معاوية عن هؤلاء الأصحاب والتي باشرت بنفسها قتل عثمان، أو التي ساعدت وحرضت على ذلك أمثال: محمد بن أبي بكر، ومحمد بن أبي حذيفة، وأبي ذر الغفاري وعمار بن ياسر، ومالك الأشتر، وعبيد الله بن مسعود وغيرهم من المسلمين الذين كانوا الدعامة الشعبية لحكم الإمام (ع) «وقد جاهر عمار بالهجوم على الخليفة، كما جاهر أبو ذر باتهام الخليفة وعماله بالخروج على الشريعة الإسلامية وراح يحض الأغنياء على ان يطرحوا كنز المال حتى نفاه عثمان إلى الشام ليكون تحت رقابة معاوية، وكان يحرض الفقراء، ليقوموا بالثورة وكان محمد بن أبي حذيفة، ومحمد بن أبي بكر في مصر يدعوان إلى مثل ما دعا به أبو ذر وفي الكوفة هاجم الأشتر حكم عثمان بخطاب ناري يتهمه بالجور والظلم»[2].

فهل هناك تفسير أقرب إلى الحس، من أن يكون الإمام علي (ع) قد قتل الخليفة عثمان بيد، واستلم الحكم ليتربع عليه باليد الأخرى؟..

نقول ـ على ضوء هذه الحقائق ـ أن تفسير معاوية كان مقبولاً إلى حد ما لأنه كان قريباً من (الحس).

---

(١) اليمين واليسار في الإسلام/ص: ١١٨.

(٢) دائرة المعارف الإسلامية/ص: ٩٧.

أما تفسير موقف الإمام (ع) من معاوية، فقد كان يحتاج إلى قدر كبير من الوعي والتفهم.

ولا ننسى بأننا اليوم، ننظر إلى معاوية، بعد ان انتهى وانكشف لنا أمره، وافتضحت نواياه للجميع، عندما صعد المنبر عام الجماعة، معلقاً بكل صراحة ووقاحة عن هدفه ونواياه قائلاً: «ما حاربتكم لتصلوا وتصوموا ولتحجوا ولا تزكوا ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد أعطاني الله ذلك وانتم كارهون»[1] ونحن ننظر إلى معاوية بعد أن ارتكب الفظائع وغيّر أحكام الشريعة وابدع في السنة وقتل المئات من الأبرياء والأخيار كحجر بن عدي والأبطال الأبرار من أخوان حجر، وبعد ان سمّ الإمام الحسن بن علي (ع)، وبعد أن اعطى ولاية العهد إلى إبنه الفاسق الفاجر - يزيد - متحدياً معاهدة الصلح التي أبرمها مع الحسن (ع) ضارباً بها عرض الحائط، والذي قال فيها:

«كنت قد منّيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها.. وأن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة لمطلول، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين»[2].

وكذلك بعد أن أمر بسبّ علي (ع) على منابر المسلمين إلى أن يشب على ذلك الصغير ويهرم عليه الكبير، والحاقه زياداً بأبيه، مخالفاً بذلك حكم القرآن وسنة الرسول (ص)، وإجماع الأمة، ويبدّ أموال المسلمين ووزعها على أنصاره واتباعه، ولم يخرج من الدنيا إلا بعد أن سلط ولده على رقاب المسلمين وهم له كارهون»[3].

نحن الآن عندما نكتب في تأريخ معاوية بن أبي سفيان ننظر إليه من خلال هذه المقاييس والاعتبارات، بعد أن انتهى واصبح في ذمة التأريخ، أما أولئك

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ص: ٢٦، وابن أبي الحديد في شرح النهج.

(٢) ن. م، وسيرة الأئمة الأثني عشر/الحسني ج ٢ ص: ٩٢.

(٣) سيرة الأئمة/الحسني ج٢ ص: ٩٣.

الجماهير الكبيرة من المسلمين فلم يكونوا ينظرون لمعاوية بهذا الاعتبار والمنظار لأنهم لم يعيشوا هذه الاحداث بهذا الوضوح الذي ننظر إليه الآن.
فلو اسقطنا النظر عن تأريخ معاوية فيما بعد ولاحظنا معاوية فيما قبل، ولاحظناه بمنظار وذهنية أولئك الجماهير ـ غير الواعية، التي عاشت مع أبي بكر وعمر وعثمان، وفضلتهم على الإمام علي (ع)، وتأملنا تلك الجماهير ـ غير الواعية ـ وهي تطرح السؤال التالي:

من هو معاوية؟ فتكون الإجابة: بأنه أحد صحابة رسول الله (ص) وقد تسلم عمله كوالي للشام، بعد وفاة الرسول (ص)، وهو أحد معتمدي الخليفة أبي بكر الصديق وقد أرسله الأخير قائداً لجيشه في سوريا، ومن ثم ولاه عمر بن الخطاب عليها، وكان عمر يوليه درجة كبيرة من ثقته، وخصوصاً أن الخليفة عمر، هو ذلك الشخص الذي تقدسه الجماهير وحتى أن عمر عندما أراد أن يؤدب ولاته استثنى معاوية من إجراء التأديب، وحينما أراد أن يقاسم أموال ولاته، استثني معاوية من ذلك، فمعاوية كان في نظر الخليفة عمر بن الخطاب والياً موثوقاً به، محترماً ومعززاً من الناحية الإسلامية، وبعد عمر جاء عثمان، ليوسع من نطاق ولاية معاوية بإضافة بلاد أخرى إلى ولايته في الشام.

ومن هنا ندرك بأن معاوية بذلك المنظار ليس هو معاوية الذي ننظر إليه هذا اليوم بل كان شخصاً عنوانه الإجتماعي إنه حريص على كرامة الإسلام، فمعاوية (قبل) كان يطالب علياً بقتلة عثمان، وكان يتهمه بالتحريض على قتل خليفة المسلمين الشرعي (عثمان) ويقول في الإمام (ع) بأنه قادر على إقامة الحد والقصاص على قتلة عثمان، وكان يعقب على تسؤاله هذا بأن علياً يحاول التخلص من هذه المسؤ ولية، فلَذن لماذا لا يسلم قاتل عثمان؟ . . . وإن لم يكن يقدر على ذلك، فهو أذن عاجز عن تطبيق الشرع، فليعتذر إذن عن مسؤولية الخلافة وليأتي شخص آخر أجدر منه لخلافة المسلمين[1] لأن الخليفة الحق يشترط فيه القدرة على تطبيق أحكامه فقد كتب للإمام يقول له: وقد بلغني انك تتنصل من دم عثمان وتتبرأ منه،

---

(٢) صانعوا التأريخ العربي/حتي ص: ٦٥

فأن كنت صادقاً فادفع إلينا قتلته كي نقتلهم به، ثم نحن أسرع الناس إليك وإلا فليس بيننا وبينك إلا السيف، والذي لا إله غيره لنطلبن قتلة عثمان في الجبال والرمال[1].

بهذه الادعاءات والشعارات المضللة، واجه معاوية الناس ليحرج الإمام (ع) أمام جماهيره - غير الواعية - والإمام (ع) في مواجهته لهذه الادعاءات المضللة والمخادعة لم يكن يريد أن يصرح بأن عثمان كان السبب الرئيسي في مقتله، وكان جديراً بأن يقتل لانحرافه لأنه لو صرح بهذا لأكد اتهام معاوية ضده أمام جماهيره - غير الواعية - وليس هناك من يعرف بأن عثمان يستحق القتل، فكثير من الناس البسطاء يقولون: عثمان قتل مظلوماً، فلا بد من القصاص.

هذه هي دعوى معاوية بالإمام علي (ع). ومن مجموع هذه الظروف والملابسات المعقدة، تواجدت بالتدريج بذرة (الشك) في مجتمع الإمام علي (ع) هذا الإمام العظيم الذي خاض المعركة على رأس هذا المجتمع لتصفية الانحراف من الداخل والانحراف من الخارج والذي كان يريد أن يوعي جماهيره (الشاكة) بأن المعركة ليست معركة زعامة شخصية أو وجوده الخاص ولا معركة قبيلته أو عشيرته وأمجاده التأريخية، وإنما هي معركة الإسلام مع جاهلية الأرض، بل هي معركة الحفاظ على أمانة الله التي جاهد من أجلها عشرات الآلاف من الأنبياء والمصلحين. وكان يخطب جماهيره موعياً إياهم بقوله «أللهم إنك تعلم أنه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان، ولا التماس شيء من فضول الحطام، ولكن لنرد المعالم من دينك ونظهر الإصلاح في بلادك وتقام المعطلة من حدودك، اللهم إني أول من آناب وسمع وأجاب، لم يسبقني إلا رسول الله (ص) بالصلاة، قد علمتم أنه لا ينبغي أن يكون الوالي على الفروج والدماء والمغانم والأحكام وإمامة المسلمين، البخيل فتكون في أموالهم نهمته ولا الجاهل فيضلهم بجهله ولا الجافي فيقطعهم بجفائه. ولا الحائف للدول فيتخذ قوماً دون قوم، ولا المرتشي في

---

(١) انساب الأشراف ج٢ ص: ٢٧٨

الحكم فيذهب بالحقوق ويقف بها دون المقاطع، ولا المعطل للسنة فيهلك الأمة»[1]

لقد كان الإمام (ع) يسعى دائماً إلى توعية جماهيره على واقع المعركة وطبيعتها المقدسة، ولكن الجماهير بدأت تشك في واقع المعركة وطبيعتها ـ بفضل الظروف والملابسات المعقدة ـ واخذوا يزدادون عناداً وتصلباً في موقفهم كلما دعاهم الإمام (ع) إلى الدخول في طاعته والسير إلى قتال معاوية، وكان يقول لهم:

«أحمد الله على ما قضى من أمر وقدر من فعل وعلى ابتلائي بكم، أيتها الفرقة التي إذا أمرت لم تطع، وإذا دعوت لم تجب إن اهملتم خضتم، وإن حوربتم خرتم، وإن اجتمع الناس على أمام طفتم، وإن أجئتم إلى مشاقة نكصتم»[2].

هذه الجماهير يبدو إنها أصابها التعب وأرهقها تكليف الجهاد، بعد أن قدمت للإسلام كثيراً من التضحيات التي لا يمكن أن يؤديها كثير من المجتمعات إلا أن نفسها في مواصلة خط الجهاد لم يكن طويلاً ومتواصلاً، فقد كان الانحراف ذا نفس أطول.

إن جماهير الإمام علي (ع) التي أرهقها تكليف الجهاد الطويل، والقتال من حرب إلى حرب، حيث قدموا من التضحيات الشيء الكثير، لقد بذلوا أموالهم وأنفسهم في حروب ثلاثة متوالية، والآلاف منهم قتلوا واستشهدوا، وقد تيتمت أطفالهم، وترملت نساءهم، وتهدمت مدنهم وقراهم، حتى إنهم صاروا يشعرون بأنهم في حالة غير طبيعية هذه الجماهير اخذت تشعر رويداً رويداً، بأنها طلقت الدنيا وطلقت الأهل والأولاد والأموال، في سبيل قضية لا تمس مصالحهم الشخصية، ومن هذه الأرضية، أخذوا يوحون إلى أنفسهم بالشك والتميع عادة يوحي بالشك، وقد يخلق في الإنسان الشك، لأن من مصلحته أن يشك لأن رغبة هذه

---

(١) نهج البلاغة ص: ١٨٩

(٢) شرح النهج/ابن أبي الحديد ج ١٠ ص: ٦٧.

الجماهير بإيقاف هذا النزيف والحروب المتوالية، كانت رغبة نفسية جامحة وكانت الدافع لخلق الشك ومبرراتها اللامنطقية (الذاتية) وهـذه المبررات تـأتي ـ عادة ـ نتاجاً لهذه الرغبة النفسية، في أن يتبـدل الحال إلى مـا كان عليـه قبل اعبـاء هذا الخطب الفادح، وتحمل مسؤولياته.

والمعروف أن كل إنسان (بطبعـه) يميل إلى الـدّعة والكسـل، فاذا وضعت أمامه مهام كبيرة، حينئذ إذا وجد مجالاً للشك في هذه المهمة فسوف يكون عنده دافع نفسي إلى أن يشك. . . يشك لأنه يريد أن يشك، ولأن مصلحته ان يشك، وهذا ما حصل مع الإمام علي (ع) فالعراقيون قدموا وبذلوا الكثيـر من التضحيات في حروب ثلاثة، وقد ماتوا واستشهدوا، وحلت بهم الكثير من المآسي والمحن، ولكنهم أخذوا يتساءلون لأجل ماذا هذه الحروب؟ ألأجل أن يزداد مالهم وجاههم لا، وإنما لحساب الرسالة وهدفها الكبير، وهذا الهدف الكبير أعز من كل النفوس والـدماء والأمـوال، ولكننا يجب أن نقـدر موقف هؤلاء الـذين ضحوا وبـذلـوا ثم أصبحـوا يشككون، لأن من مصلحتهم أن يشككـوا وأصبـح الإمـام يـدفعهم إلى المعركة فلا يندفعون، ويحركهم فلا يتحركون لماذا؟ لأن من مصلحتهم أن يبرروا للمعركة مفهوماً تلفيقياً جديداً وهو أن المسألة مسألة تـناطح زعـامتين زعامـة علي ومعاوية وما بالنا أن يكون أحدهما زعيماً، نحن نقف على الحياد ونتفرج ويتم الأمر لأحدهما.

هـذا التفسير الـذي أوحت به مصلحـة هؤلاء، كـانت عقبـة كـأداء دون أن يتحركوا إلى خط الجهاد، هذا الحال هو الـذي جعل الإمـام (ع) يبكي من على المنبر وينعي أصحابه الذين استشهدوا ولم يشكوا في خطه والذين كـانوا ينـظرون إليه كامتداد لرسول الله (ص) من قبيل عمار وأمثالـه، عمار الـذي وقف بين يدي الإمام (ع) في صفين واضعاً سيفه على بطنه قائلاً لامامه (ع):

«والله إنـك تعلم لو كـان رضاك ان تغمـد هذا السيف في بـطني حتى أخرجته من ظهري لفعلته والله انك تعلم إني لا أعلم رضا إلا في قتال هؤلاء الناكثين والقاسطين المنحرفين».

كان الإمام علي (ع) يبكي أمثال عمار، لأنهم كـانوا قـد ارتفعوا فـوق هذه

الشكوك وقد طلقوا مصالحهم الشخصية لمصلحة الرسالة وفي سبيل إعادة مجد المجتمع الإسلامي ووحدته، ـ أما الباقون فقد بدأ ـ الشك يتسرب إلى نفوسهم، بدأوا يشكون في إمامهم (ع) حتى إنه تمنى الموت لأنه أصبح يحس بأنه انقطع عن هؤلاء وانفصل عنهم، وقد أصبحوا لا يفهمون أهداف رسالته ولا يتفاعلون معه فكرياً وروحياً.

وما أكثر خطبه وكلماته التي أعلن فيه شكواه منهم، وبرمه بهم من ذلك قوله (ع):

«يا أشباه الرجال ولا رجال! حلوم الأطفال، وعقول ربات الحجال، لوددت إني لم أركم، ولم اعرفكم معرفة والله جرت ندماً، واعقبت سدماً. قاتلكم الله لقد ملأتم قلبي قيحاً، وشحنتم صدري غيظاً، وجرعتموني نغب التهمام أنفاساً وأفسدتم عليَّ رأيي بالعصيان والخذلان، حتى لقد قالت قريش: إن ابن أبي طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بالحرب»[1].

بالإضافة إلى ما ذكرناه انفا، كانت هناك مؤثرات وعوامل اخرى ساهمت ومهدت لخلق حالة الشك (الذاتي) اللاموضوعي في شخص الإمام (ع) نذكر بعض منها:

أولاً: الصحابة الذين كانوا يعرفون بالورع والتقوى، في نظر الناس والمتلبسين بلباس الأتقياء العقائديين المثاليين «وكان بعض هؤلاء يتمتعون باحترام محدود في قواعدهم القبلية، وهذا الاحترام لم ينبع من ولاء فكري بل من ولاء قبلي، كما كانوا يتمتعون باحترام محدود من جماهير المسلمين نابع من صحبتهم للنبي (ص) ومن غموض موقفهم من الخيارات المطروحة على الساحة السياسية»[2].

هؤلاء الصحابة! لم يبلغوا من الصفاء والوعي درجة تحملهم على الانضواء تحت قيادة الإمام علي (ع)، وكانت مصالحهم من جهة وأثارة من التقوى في أنفس

---

(١) نهج البلاغة: رقم الخطبة: ٢٧.

(٢) حركة التأريخ عند الإمام علي (ع)/محمد مهدي شمس الدين ص: ١٤٨.

بعضهم من جهة أخرى، قد حملتنا هؤلاء على التزام جانب الحيطة والحذر من نهج معاوية (الجاهلي)، فلم ينحازوا إليه في هذه المرحلة، وإن كان بعضهم قـد والى النهج في النهاية

وتمثلت هـذه القيادات بـأمثال، سعـد بن أبي وقاص، وعبـدالله بن عمـر، وأنس بن مالك، وزيد بن أرقم، والحسن البصري، وسعيد بن مالك وغيرهم من الذين اعتزلوا السياسة العامة، بعد مقتل عثمان بن عفان، تحت شعار البعـد عن الفتنة، وكانوا يوصون الجماهير بأن المعركة ليست صحيحة، ويقولهم:

«القاعد فيها خير من القائم، والنائم فيها خير من القاعد، والماشي فيها خير من الساعي».

وكان هؤلاء في موقفهم هذا قد خدموا معاوية خدمة كبرى حينما جعلوا من أنفسهم فريقاً يعطل عمل الطاقات الثورية في مجتمع الإمام علي (ع)، تحت شعار الورع والبعد عن الفتنة!

هؤلاء عّبر عنهم الإمام علي (ع) بقوله:

«خذلوا الحق، ولم ينصروا الباطل»[1].

ولمـا قال لـه الحارث بن حـوط: أتراني أظن أصحـاب الجمل كـانوا على ضلالة؟ قال له الإمام(ع):

«يا حارث إنك نظرت تحتك، ولم تنظر فوقك فحرت، إنك لم تعرف الحق فتعرف من أتاه.

فقال له الحارث: فأني اعتـزل مع سعيـد بن مالـك وعبدالله بن عمـر.. فأجابه الإمام (ع) قائلاً:

«ان سعيداً وعبد الله بن عمر، لم ينصرا الحقّ، ولم يخذلا الباطل»[2].

---

(١) نهج البلاغة، باب الحكم رقم: ١٨.

(٢) نهج البلاغة: باب الحكم، رقم: ٢٦٢.

ثانياً: الإيحاء الذي جاء من قبل الصحابي، أبي موسى الأشعري، كان له أثر كبير أكبر بكثير من الإيحاء الذي جاء به الصحابي عمار بن ياسر، فإيحاء الأخير يكلف الموت، ومواصلة الجهاد، والتنازل عن الحياة وملاذها.

أما أبو موسى الأشعري، فإيحاؤه كان يعطي الحياة ويمنح السلام، ولسان حاله يقول لهم: حافظ على حياتك وابتعد عن الأخطار، وأجلس في بيتك، ودع الإسلام مع أخطاره واعدائه.

عمار بن ياسر صحابي كبير، وأيضاً أبو موسى الأشعري صحابي كبير، ولكن أحدهما يكلفك بالموت، والآخر يمنحك الحياة.

الإنسان الاعتيادي البسيط، حتماً سوف يختار ويفضل إيحاء أبي موسى الأشعري، على إيحاء عمار بن ياسر، لأنه يريد الاحتفاظ بحياته ولو كانت حياة رخيصة، تحت ظلال معاوية وظلال جاهليته وأحكامها.

ثالثاً: وهناك عامل النزاع التقليدي القائم بين بني أمية، وبني هاشم وقد أمتد هذا النزاع إلى ما بعد الإسلام، مساهماً هو الآخر، بتعميق الشك، حيث بدأت الأذهان والنفوس الشاكة تفتش عن نقطة ضعف في المعركة، فأخذوا يثيرون هذا النزاع كنقطة شعف وتبرير للانهزام من واقع المعركة، مشيِّعين حول معركة الإمام (ع) مع معاوية بأنها ليست إلا إستمراراً لذلك الصراع التقليدي التأريخي بين بني أمية وبني هاشم سعياً وراء الحكم بما هو سلطان سياسي يوطّد سيطرة أسرة قرشية على مقدرات المسلمين بدلاً من سيطرة أسرة قرشية أخرى، واخذوا يصورون المعركة بهذا (البعد الذاتي) ولسان حالهم يقول، مالنا نحن وهذا الصراع، ليكن أيا منهم زعيماً أما نحن لنقف على التل ونتفرج على نهاية الصراع.

كل هذه العوامل، وعوامل أخرى، ساعدت أن يكون الإمام (ع) موضع شك من قبل الجماهير وأن يكون الطامع المثالي والرسالي للصراع غير واضح عند الجماهير، حتى أن الإمام (ع) كان يصعد المنبر مراراً، يدعو الناس فلا يستجيب له أحد ويقول لهم:

«يا أهل الكوفة كلما سمعتم بجمع من أهل الشام أظلكم انجحر كل

امرىء منكم في بيته، وأغلق عليه بابه انجحار الضب في جحره والضبع في وجارها المغرور من غررتموه، ومن فاز بكم فاز بالسهم الأخيب لا أحرار عند النداء، ولا أخوان عند النجاء، انا لله وإنا إليه راجعون، ماذا منيت به منكم، عمي لا يبصرون وبكم لا ينطقون وصم لا يسمعون، إنا لله وإنا إليه راجعون»[1].

ويقول في موقف آخر:

«لله أنتم أما دين يجمعكم، ولا حمية تشحذكم أو ليس عجباً أن معاوية، يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء وأنا أدعوكم وانتم تريكة الإسلام وبقية الناس، إلى المعونة أو طائفة من العطاء فتتفرقون عني وتختلفون عليّ»[2].

«أف لكم لقد سئمت عتابكم، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً، وبالذل من العزّ خلفاً إذا دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت اعينكم كأنكم من الموت في غمرة، ومن الذهول في سكرة ما انتم لي بثقة سجيس الليالي، وما أنتم بركن يمال بكم. وأيم الله، إني لأظنّ أن لو حمي الوغى واستحر الموت، قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس»[3].

وهكذا كان الإمام يستثير هممهم وعزائمهم، فلا تنبض لهم همّة، ولا تنهض لهم عزيمة... لأنهم بدأوا يشكون بالإمام (ع)، والشك في القائد، هو أقسى ما يمنى به القائد، هو أقسى ما يمنى به القائد المخلص وهو أخطر وألعن ما تمنى به الأمة التي يتزعمها هذا القائد البار.

وحرارة الشك وآلامها العميقة الواضحة كل الوضوح في كلام الإمام (ع) حيث يقول:

---

(١) الكامل/ابن الأثير ج٢/ ص: ١٨٨.
(٢) شرح النهج/ابن أبي الحديد ص: ٦٧ ج ١٠
(٣) شرح النهج/ ابن أبي الحديد ج٢ ص: ١٨٩.

«اللهم إني مللتهم، وملوني، وسئمتهم وسئموني فأبدلني بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شراً لهم مني، اللهم مث قلوبهم، كما يماث الملح في الماء»[1]

وفي خطبته الشقشقية يقول:

«فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون، كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه وتعالى يقول (تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين)، أما والذي، فلق الحبة، وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها، وسقيت آخرها بكأس أولها ولألفيتم دنياكم هذه ازهد عندي من عفطة عنز»[2].

آن الإمام علي (ع) «قبل الحكم، اذن بمزيج من التشاؤم والأمل، ولكن سرعان ما تسرب الذبول إلى شعلة الأمل، فان القوى المترددة والمتمظهرة بمظهر التقوى وأصحاب رسول الله (ص) سرعان ما أخذت تنحاز رويداً رويداً نحو المعسكر المناهض للإمام (ع)، إن لم يكن في العلن ففي السرّ» هذا من جهة ومن جهة اخرى راحت الجماهير الغاضبة، المترعة قلوبها بآمال التغيير تضغط في سبيل التغيير دون أن تقدر ظروف المرحلة، وكان اتباع سياسة متوازنة ضرورة حيّوية لئلا ينفجر المجتمع من الداخل بانحياز قوي موالية للإمام (ع) ولكنها غير واعية وغير ناضجة، نحو معسكر الثورة المضادة.

وهكذا، فبعد الصدّمة التي شلت قوى الثورة المضادّة،وبعد فترة الإنتظار التي مرّت بها الفئات الآخرى من الأمة، تفجّر الموقف من جديد،وعاد الغليان إلى المجتمع، وعادت حالة الإختلاط والإضطراب المحمومة . .

وظهرت للإمام علي (ع) في هذه المرحلة التي بلغت فيها ازمة الحكم وأزمة

---

(١) شرح نهج البلاغة/ابن أبي حديد ج١ ص: ٣٣٢.

(٢) نهج البلاغة: /صبحي الصالح ص: ٥٠

الفكر الذروة ـ بفعل حالة الشك اللاموضوعي ـ ظهرت له بوضوح تام موجع ومدم للقلب معالم تأريخ المستقبل للأمة الإسلامية، حافلاً بالأهوال والمآسي، وبكلّ ما فيه من ظلام ودماء، وتمزقات وانهيارات، تتخللها هنا وهناك، في بعض الأحيان، لمعات نور وحالات سلام عارضة، وآمال مضيئة ملهمة وخيبات أمل قاسية.

لقد رأى بحدس يضيئه نور نبويّ، وعقل مستوعب لحركة التأريخ، رأى الفتنة آتية بكل ظلامها وحيلها، وتلبيسها الحق بالباطل.

ورأى بعدها انتصار حركة الردّة بقيمها الجاهلية، بلبسها للإسلام (لبس الفرو مقلوباً)

ورأى بعد ذلك معاناة الأمة: فسمع بقلبه الكبير أنين المظلومين الذين تسحقهم أنيابها الوحشية، ورأى بقلبه الكبير نزيف الدمّاء من ضحاياها، وأحس بأعمق أعماق كرامته الإنسانية ذلّ الإنسان المسلم في مجتمع الردّة، وبكى بحرار ومرارة لكلّ ما سيصيب الناس بعده»[1].

وبالرغم من ملابسات الشك (الذاتي) ومرارتها في قلب الإمام (ع)، لم يضعف ولم يتراجع، بل بقي في خطه يواصل عملية التعبئة لجهاد معاوية، وضرب الانشقاق إلى آخر سنة من حياته، بل آخر يوم من حياته الشريفة، عندما خرّ صريعاً مضرجاً بدمه الطاهر في مسجد الكوفة وهو في قمة محاولاته لتصفية الانشقاق، وقد كانت بدايات جيش مجهز للخروج إلى الشام للقضاء على المعسكر المنفصل[*]، وقد استشهد الإمام (ع) ولكن الصراع استمر بقيادة ولده الحسن (ع).

ولكن باستشهاده (ع) قضت قوى الردة على آخر أمل في إعادة خط التجربة

(*) قال الشريف الرضي في نهج البلاغة، روى عن نوف البكالي: قال خطبنا امير المؤمنين (ع) بالكوفة، وهو قائم على حجارة وكأن جبينه ثفنة بعير فقال (ع).. قال: وعقد للحسين (ع) في عشرة آلاف ولقيس بن سعد في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على اعداد أخر وهو يريد الرجعة إلى صفين، فما دارت الجمعة، حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله فتراجعت العساكر فكنا كأغنام فقدت راعيها تختطفها الذئاب من كل مكان

(1) راجع حركة التاريخ/محمد مهدي شمس الدين/ص: [150]

الصحيحة وذلك الأمل الذي اختلج في نفوس المسلمين الواعين، متجسداً في شخص الإمام العظيم. الذي عاش منذ اللحظة الأولى، هموم الدعوة وآلامها وشارك في بناء تجربتها الرائدة لبنة لبنة، وأقام صرحها مع الرسول (ص) ورافق معه كل مراحل الدعوة بكل همومها ومشاكلها وآلامها فكان (ع) الأمل الوحيد في نظر المسلمين الواعين لاسترجاع التجربة خطها الصحيح وأسلوبها النبوي المستقيم، بعد أن استفحل الانحراف وتعمق داخل إطار التجربة الإسلامية ولم يكن هناك أمل بقهر الانحراف وتحديه إلا بشخص الإمام (ع).

ولهذا جاء اغتياله الغادر (ع) تقويضاً حقيقياً لآخر أمل حقيقي لقيام مجتمع إسلامي صحيح.

يقول المفكر الإسلامي (الجزائري) مالك بن نبي:

«لقد عرف العالم الإسلامي، أول إنفصال في تأريخه في معركة (صفين) عام ٣٨ هـ، إذ كان يحمل بين جنبيه بعد قليل من سنوات ميلاده، تناقضاً داخلياً حيث كانت «حمية الجاهلية» تصطرع مع «الروح القرآنية»، فجاء معاوية فحطم ذلك البناء الذي قام لكي يعيش، ربما إلى الأبد بفضل ما تضمنه من توازن بين عنصر الروح وعنصر الزمن ومنذ ذلك الانفصال الأول، فقد العالم الإسلامي توازنه الأولي على الرغم من بقاء الفرد المسلم متمسكاً في قرارة نفسه بعقيدته التي ينبض بها قلبه المؤمن»[(١)].

«ولم تكن صفّين تأريخاً عادياً، بل كانت تأريخاً فاصلاً بين الكيان الاجتماعي والسياسي النبوي العظيم، الذي حمل الدفعة القرآنية الفذة، وبين كل ما سيأتي بعدها حتى سقوط نظام الخلافة.

وبالتأكيد لم يكن ذلك الانفصال الذي شق وحدة الأمة يعني نهايتها، ذلك لأن تواصلها الإسلامي استمر أكثر من ثلاثة عشر قرناً فيما بعد، ولكنه كان يعني أن

---

(١) مالك بن نبي/ وجهه العالم الإسلامي ص: ٢٥

التوازن الإسلامي الـذي صاغ دولـة رسول الله (ص) ومجتمعـه، قد أصـابه خلل خطير»[1].

«ولذا فقد كانت صفين مرحلة بين حكم الإسلام وبين الانحراف وقـد كان هذا هو جوهر كلمات عبد الرحمن بن أبي بكر، حين وقف مروان بن الحكم يدعو إلى أخذ البيعة ليزيد ليخلف أباه بعد وفاته ويؤكد على أن في ذلك خير للمسلمين ودرء لأنقسامهم، فقام عبد الرحمن صارخاً في وجهه، كذبت والله وكذب معاوية ما الخيار أردتما لأمـة محمد ولكنكم تـريدون ان تجعلوهـا هرقليـة كلما هـرقل قـام هرقل»[2].

وكان أن بدأت منذ يوم صفين، عمليـة تفاعـل وتآكـل لا تتوقف، بين بنيـة المجتمع الإسلامي، والنظام الإسلامي الصحيح فلئن كانت نهاية دولة الخلافـة، إشارة هامة على عودة بعض النوازع الجاهلية إلى العمل، فإنّ تحول الخلافة إلى ملك قـد أثر تـأثيراً كبيـراً في إستمرار الـذروة الرائعـة التي عاشهـا المسلمون في السنوات الأولى وما أن جاء النظام الجديد حتى ـ اصبح للطبقة الحاكمة امتيازات ولأذيالها منافع ولحاشيتها رسوم وانقلبت الخلافة ملكاً، وملكاً عضوضاً، كما قـال عنه رسول الله (ص) في وثبة من وثبات الاستشفاف الروحي العميق»[3].

وهكذا تكاثر المتنفعون من حول النظام بدلاً من أهل الرأي والنصيحة، وبدأ أن الحق العام تتسلل إليه أيدي من لا حق لهم، ورغم اتساع رقعة الإسلام، إلا أن «روحه انحسرت بلا جدال»[4].

فقد كانت عوامل القوة التي سكنت المجتمع الإسلامي كأثر من آثار (الدفعة القـرآنية الأولى) هي التي تقـدمت بالإسـلام لترفـع رايتـه فـوق نصف المعمـورة ولتنشيء تلك النهضة العالمية الكبرى، ولكن ظهور النوازع الجاهلية، وانحـراف

---

(١) راجع مجلة المختار الإسلامي/العدد ١٩/السنة الثانية/١٥ صفر ١٤٠١ يناير ١٩٨١

(٢) ابن الأثير/جـ٣ ص: ١٩٩ نقلاً عن كتاب النظريات السياسية الإسلامية ضياء الدين الريس ص١٥.

(٣) راجع العدالة الاجتماعية/سيد قطب ص: ٢١٧ ـ ٢١٨

(٤) راجع العدالة الاجتماعية/سيد قطب ص: ٢١٧

الحكم عن جوهر النظام الإسلامي، ثم تلك الشوائب التي شابت صفاء المنبع هي التي أدت بمجموعها إلى انحسار الروح الإسلامية»[1].

«وكانت تلك النقلة في الفكر الإسلامي اتجاهاً نحو أقرار ما بعد صفين، لم تعد الأمة الإسلامية كمصدر للسلطة تحت حاكمية الله، هي التي تحدد منظور البحث والممارسة وسيطر قبول عام بالأمر الواقع، فمن مفهوم الخلافة إلى الملك العام القوي ومن الملك العام إلى عصبية الطوائف والدويلات.

وترى أن هذا الواقع المنحرف انعكس بشكل واضح وذا صبغة تبريرية لواقع الحكام، في كثير من كتابات المفكرين السنّة كابن تيمية في كتابه «السياسية الشرعية» وذلك في قبوله بالفكرة القائلة:

«أن السلطان ظل الله في الأرض، وان ستون سنة من امام جائر أصلح من ليلة واحدة بلا سلطان»[2]. .

* * *

الإمام علي يختار الكوفة مركزاً لخلافته:

المعلوم ـ تأريخياً ـ من أن الإمام (ع) بعد أن فرغ من حرب الجمل، انتقل بحكومته من المدينة إلى الكوفة واتخذ الكوفة قاعدة لحكمه، والكوفة يومئذ مركز الثقل في المجتمع الإسلامي الناشيء، ولوجود الاتباع والقواعد الشعبية الموالية لحكم الإمام (ع) روحياً وعاطفياً، وان كانت هذه القواعد لم تع رسالة الإمام (ع) وعياً حقيقياً كاملاً.

وكانت المدينة المنورة تمثل مركز القيادة السياسية والروحية للأمة الإسلامية، إذ كان فيها أغلب المهاجرين والأنصار.

والسؤال هنا لماذا تغيير مركز الخلافة؟ وخصوصاً ان المدينة كانت تتمتع

---

(١) مجلة المختار الإسلامي ص: ٥٠

(٢) تأريخ الطبري ج٣ ص: ٢١٠ نقلاً عن مجلة المختار الإسلامي.

بقدسية خاصة في نفوس المسلمين، وقد استطاعت أن تثبت عملياً صلاحيتها لذلك ما يقرب من خمسة وثلاثين سنة فهل كان هذا التغيير امراً عفوياً من الإمام (ع) ام انه امر مدروس؟ في نطاق خطة ذات ابعاد استراتيجية واعتبارات عسكرية وقيادية؟

ويمكن لنا أن نتعرف على ملامح هذه الخطة، من ملاحظة الظروف والاحداث القاسية التي واجهت الامام (ع)، فقد كان يواجه تحدياً سافراً من تلك الفئات التي كانت تحلم بالحصول على امتيازات اكبر على حساب الدين والأمة وعلى حساب الشرعية فبعد معركة الجمل، وبعد أن تفرق المتمردون وأرجعت عائشة الى بيتها، وجدد الناس بيعتهم له (ع) في البصرة واستتب الأمن، ولاها ابن عمه عبدالله بن العباس، وخرج منها بعد شهر أو شهرين من انتهاء المعركة متجهاً نحو الكوفة ليتخذها مقراً له»[1] لأن الإمام (ع) قبل وقوع العصيان المسلح الذي قام به الحلف الثلاثي (طلحة، والزبير، وعائشة) كان يعد العدة لارسال جيش قوي إلى الشام يتولى قيادته بنفسه لاقصاء معاوية عنها، مما دعاه إلى أن يرجىء أمر معاوية ريثما يسوي حسابه مع هذا الحلف، ويفوت عليهم الفرصة التي كانوا يحلمون بها، وبالطبع خلال تلك المدة كان معاوية قد استعد استعداداً كاملاً، ووجد في تمرد المنشقين عنه في الحجاز، فرصة لانجاح خطته. فانقاد إليه أهل الشام، وأظهروا غضبهم لمقتل عثمان، وحرصهم على الطلب بدمه من علي وأصحابه وألحوا عليه في ذلك وهو مع ذلك يتأنى ويتخذ التدابير الكافية لكل الاحتمالات، وكان مع ذلك يطمع في العراق ويرسل الى زعمائها وقادة الجيوش من يمنيهم ويغريهم حتى انقاد إليه جماعة منهم، كل ذلك لم يغب عن علي (ع)، وقد وضعه في حسابه فآثر ان يكون على مقربة من معاوية فاختار الكوفة، ليكون في مركز القوة عسكرياً وسياسياً[2].

وواضح من اختيار الامام (ع) ان المدينة لا تتوفر فيها عوامل النجاح

---

(١) سيرة الأئمة/الحسني ج ٢ ص: ٤٦٤.

(٢) راجع سيرة الأئمة/الحسني ص: ٤٦٥ - ٤٦٦.

العسكري والسياسي إذا ما أخذ حجم التحدي بنظر الاعتبار، ومهما يكن من أمر فإننا نستطيع ان نجعل وضع المدينة في مجال تقييم قدرتها على تحمل المواجهة في الأمور التالية[1]:

أولاً: ان المدينة لم تكن تتوفر فيها كثافة سكانية كافية تستطيع ان تتحمل اعباء المواجهة للتحديات التي تنتظر هذا الحكم الجديد إذا ما أخذ حجم هذا التحدي بعين الاعتبار، فلقد كانت تلوح في الأفق رايات العصيان والتمرد على الشرعية، فلقد استغل أهل الأطماع فئات كبيرة من الناس وضللوها بالشبهات واستغلوا فيها بساطتها وعدم نضجها الرسالي، لأنها منذ البداية لم تتح لها فرصة التعرف على الإسلام الصحيح، وإنما عاشت الإسلام المتمثل بالسقيفة وما أفرزته من اسلام منحرف تربت ونشأت عليه وكلنا يعرف أن الاسلام الأموي، ما هو إلا اسلام اطماع ومآرب ولا يمكن أن يقاس باصالة اسلام الامام علي (ع) وعمقه ووعيه للرسالة.

وإذا كانت كل هذه الفئات لم تتفاعل مع الإسلام الحقيقي تفاعلاً يسمح لها بالرؤية الصحيحة لأنها لم تعرف غير الاسلام الأموي ولا سيما بلاد الشام التي افتتحها يزيد ومعاوية ابن أبي سفيان عسكرياً في عهد أبي بكر، وظلت تعيش في ظل حكمهم باستمرار فمن الطبيعي ان لا تتورع عن مناهضة الشرعية والتمرد عليها.

ومن أين للمدينة أن تؤمّن لعلي (ع) الجيش الذي يقدر به على المواجهة والاحتفاظ بالموقع، فضلاً عن انزال الضربة القاصمة والنصر؟ وبديهي ان الاستعانة بالاعزاب حول المدينة، ان لم تكن مضرة، فلا أقل من انها سوف لا تكون كافية لتحقيق كامل الاهداف وبشكل مرضي ودقيق.

أما الاعتماد على النجدات من سائر الاقطار الأخرى كالعراق وفارس مثلاً، فلربما يكون من السهل جداً على اعداء علي (ع) عرقلة ومنع وصول من يريد

---

(١) راجع للاستفادة/ مجلة الحكمة/العدد السنة/استراتيجة الامام/للعاملي ص: ٣٣.

الوصول إليه منهم بشكل طبيعي وسليم.

ثانياً: لا تتوفر في المدينة الموارد الاقتصادية الضخمة التي تستطيع تأمين احتياجات جيش يعدّ بعشرات الألوف، لأنها ارض صحراوية قاحلة، ليس بها زرع ولا ضرع. وهي بعيدة عن مناطق التموين.

ثالثاً: إن المدينة لم تكن شديدة الولاء للشرعية المتمثلة بعلي (ع) حيث مركز ثقل الأمويين ومحبيهم من التيميين، والزبيريين، ومن ينتمي اليهم من أهل الاطماع، وبالتالي كل من وترهم الاسلام على يد الإمام علي (ع)... ومعنى اعتماد المدينة كقاعدة للخلافة وعاصمة لها هو ان تكون الاسرار العسكرية، متوفرة لدى الجهة المنوائة، وان تكون جبهة الامام (ع) امام تحدي الانهيار من الداخل وعرضة للأعمال الخيانية لصالح الناكثين والقاسطين. وذلك لوجود اعوانهم ومحبيهم بين ظهراني السلطة الحاكمة التي يستحيل ان تقدم على اي اجراء ضد أي شخص ما دام ذلك الشخص لم يثبت اي اتهام ضده، حتى تثبت ادانته بالطرق الشرعية.

رابعاً: ان الجيل الجديد الذي تربى في المدينة لم يكن قد اعتاد الحياة الصعبة التي تتطلبها الحروب الطويلة الطاحنة التي خاضها الامام علي (ع) لأن شباب المدينة كانوا قد اعتادوا حياة الرخاء والدعة، لأنهم صاروا يعيشون على العطاءات السخية التي كان يغدقها عليهم الخلفاء الذين سبقوا علياً (ع) حتى أصبح من الصعب عليه التخلص من اجواء الرفاه التي يعيشونها ثم التضحية بأنفسهم والتعرض للمصاعب والمشاق التي تتطلبها الحروب.

خامساً: لقد كان الاسلام جديداً على العراق، وكانت العادات القبلية والجاهلية، لا تزال تتحكم في روابطه وعلائقه الاجتماعية وكانت الحروب فيه محكومة لزعماء القبائل عموماً، لا للإيمان والعقيدة، وكانت المدينة ابعد عن ذلك ولو بشكل محدود، فكان اغواء اهل العراق من قبل معاوية اقرب احتمالاً واسهل منالاً، وإذا صار العراق مع معاوية، فان وضع المدينة العسكري والاقتصادي، سوف يصير حرجاً جداً، ولهذا فلا بد من تدارك الأمر وحفظ العراق أولاً، ثم

استغلال روح التنافس التي كانت قائمة بين القطرين العراق والشام، وحتى الروح القبلية أيضاً وتوظيفها في صالح الاسلام والأمة بدلاً من ان يستغلها معاوية في غير هذا السبيل.

وهكذا نجد أن المدينة لا تستطيع في هذه الظروف بالذات ان تكون عاصمة للخلافة، ومنطلقاً لتحركاتها بحرية، وانما نجد الكوفة على الضد، فهي بالاضافة إلى قربها من الشام والبصرة، وموقعها الوسط في قلب العالم الاسلامي، مضافاً إليها المميزات التالية:

١ ـ امتلاكها للطاقات البشرية، والتي تمكنها من مواجهة التحدي مهما كان كبيراً.

٢ ـ قدرتها الاقتصادية، على التموين المستمر للجيوش التي سوف تواجه الحرب. لما تملكه هي والمناطق القريبة اليها من ثروات زراعية وموقع تجاري حيوي في المنطقة سواء بالنسبة للفرس أو العرب على حد سواء.

٣ ـ ضآلة قدرة الأخطبوط الأموي، والتيمي، والزبيري ومن وترهم الاسلام على يد علي (ع)، على التحرك والمناورة فيها.

٤ ـ لم يكن أهل الكوفة قد تعودوا على لذائذ الحياة وزبارجها، فكان يسهل عليهم التضحية وخوض غمار الحروب وتحمل الصعاب.

ولهذه الاسباب جميعاً، جاء اختيار الامام (ع) للكوفة، وذلك لاعتبارات استراتيجية وعسكرية فرضت عليه ذلك، ولم يكن نقل العاصمة ضرباً من العفوية والارتجال[1].

رفض الامام (ع) للمساومات، هل كان عناداً؟!

بقيت ظاهرة مهمة في حياة الإمام (ع) عندما كان حاكماً متصرفاً ومصرفاً

(١) راجع للاستفادة مجلة الحكمة/العدد الرابع/ السنة ١٤٠٠ هـ مقالة استراتيجية الكوفة في خلافة الامام علي (ع) للعاملي/ص: ٢٩ ـ ٣٣.

لشؤون المسلمين نود مناقشتها والقاء الضوء عليها، ألا وهي اصرار الامام (ع) وتأكيده الواعي منذ أن مارس الحكم الى أن خرّ صريعاً، على رفض كل الصيغ وانصاف الحلول التي واجهته في تصفية الانحراف، ولم يفكر مطلقاً بمساومة الانحراف ومهادنته على حساب الأمة بأي شكل من الأشكال.

هذه الظاهرة من حياة الإمام (ع) السياسية ـ رفض انصاف الحلول او قبول المساومات ـ استرعت انتباه واقلام اغلب المؤرخين، قديماً وحديثاً، وقد جاءت تحليلاتهم وكتاباتهم فجة بعيدة عن واقع التأريخ وعن فهم صحيح لحقيقة موقف الامام (ع).

أما الإمام علي (ع) فقد كان حريصاً كل الحرص في معالجة مشاكل عصره، وعلى اعطاء العناوين الأولية الأصيلة للصيغة الاسلامية للحياة، والوقوف على التكليف الواقعي ـ الأولي كما يسميه الأصوليون ـ دون ان يتجاوزها الى ضرورات استثنائية تساوميّة تفرضها طبيعة الملابسات والظروف الآنية العاجلة.

وسوف نتناول هذه الظاهرة، ونناقشها على مستويين: المستوى السياسي والمستوى الفقهي[1].

الدوافع والاسباب:

١ ـ المستوى السياسي: وعلى الصعيد السياسي، نرى أن هناك اشخاصاً عاصروا الإمام (ع) وكان رأيهم في الإمام (ع) ومعالجته لمسائل الحكم واصرارهم على استبعاد أو رفض كل اشكال المساومات وانصاف الحلول لوناً من ألوان العناد، وهو بالتالي يعقد الموقف ويثير الصعاب في دولته، ومعناه ترسيخ تلك المشاكل، وبالنهاية عجز الإمام (ع) عن مواجهة حلها، وسوف تشغله عن مهامه الرئيسية في ادارة الحكم والمضي بتجربته الى حيث يريد، وخصوصاً ان الاصرار والالحاح على التمسك بالمواقف المبدأية سيجعل القضية في طريق مسدود ولا

---

(١) استفدنا في هذا البحث على ما جاء في محاضرة للسيد الشهيد الصدر على طلبته في النجف الأشرف.

بأس ان يعتبر كلا الطرفين المتنازعين ان هذا الأمر تنازلاً مرحلياً من قبله ليخطط على ضوئه للمرحلة المقبلة من المفاوضات مثلاً»[1].

وقد جاءه المغيرة بن شعبة مقترحاً ابقاء معاوية والياً على الشام ريثما تستتب الأمور وبعد ذلك سوف لا يبايع، وبالامكان استبداله وتغييره بعد ان تتم البيعة في كل اطراف الدولة للامام (ع).

ونفس القول قاله جرير بن عبدالله للإمام (ع) طالباً منه أن يوسطه للأمر «ابعثني يا أمير المؤمنين الى معاوية فآتيه فادعوه على ان يسلم لك هذا الأمر، ويجامعك على الحق على ان يكون اميراً من أمرائك وعاملاً من عمالك»[2].

ولكن الامام (ع) رفض عرض جرير بن عبدالله ورد عليه قائلاً:

«اذهب إلى معاوية بكتابي، فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون والا فانبذ إليه وأعلمه أني لا أرضى به اميراً، وان العامة لا ترضى به خليفة»[3].

أما معاوية فيزور جرير بمنزله مساوماً اياه بقوله:

«يا جرير اني قد رأيت رأياً، قال: هاته. قال: اكتب إلى صاحبك (علي) يجعل لي الشام ومصراً جباية فإذا حضرته الوفاة لم يجعل لأحد بعده بيعة في عنقي وأسلم له هذا الأمر، وأكتب إليه الخلافة».

ويكتب جرير ناقلاً مضمون الرسالة للإمام (ع) ويجيبه الامام (ع):

«اما بعد إنما أراد معاوية ألا يكون لي في عنقه بيعة وان يختار من أمره ما يحب، وأراد أن يريثك حتى يذوق الشام، وأن المغيرة بن شعبة قد كان

---

(١) من حياة اهل البيت/ التسخيري ص: ٢١.
(٢) كتاب صفين ٢٧ ـ ٢٨ لنصر بن مزاحم.
(٣) ن. م ص: ٢٨.

اشار عليّ أن استعمل معاوية على الشام، وأنا بالمدينة فأبيت ذلك عليه، ولم يكن الله ليراني اتخذ المضللين عضداً، فإن بايعك الرجل، والا فأقبل».

فالإمام (ع) في جواب هذا الشخص رفض كل هذه المساومات وانصاف الحلول، واستمر في خطه السياسي الرافض، مؤكداً سياسته في رفض هذه التنازلات بقوله (ع):

«ولكنني آسي أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها فيتخذوا مال الله دولا، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً، فإن منهم الذي قد شرب فيكم الحرام، وجلد حدا في الاسلام، وان منهم من لم يسلم الا بعد ان رضخت له على الاسلام الرضائخ»[1].

وقال بصدد الأموال المغصوبة وردها إلى بيت المال:

«وكل مال اعطاه من مال الله فهو مردود في بيت المال فإن الحق لا يبطله شيء، ومن ضاق عليه الحق فالجور عليه أضيق»[2].

ومن هنا بالذات، جاء قول بعض معاصريه، ويردده عندنا بعض المؤرخين والكتاب بأن الامام (ع) كان بامكانه أن يسجل نجاحاً أكيداً ونصراً محققاً من الناحية السياسية على اعدائه لو قبل انصاف الحلول ومارس هذا اللون من المساومات ولو بشكل مؤقت.

٢ ـ المستوى الفقهي: ونتناوله من خلال مفهوم فقهي شائع يدعى (بقانون التزاحم) أو ما يسمى في البحوث السنية (بالاستحسان)، ويعنون به أن الواجب الأهم إذا توقف على مقدمة محرمة، لا يجوز تركه بحجة حرمة المقدمة بل يجب المحافظة على الواجب الأهم، فمثلاً عندما يتوقف انقاذ انسان من الغرق على اجتياز أرض لا يرضى صاحبها باجتيازها ففي هذه الحالة، يجيز لنا الشارع

(١) نهج البلاغة ج ١ ص: ٥٩ وشرح النهج جـ ص: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.
(٢) نهج البلاغة ج ١ ص: ٥٩ وشرح النهج جـ ص: ٢٦٩ ـ ٢٧٠.

المقدس اجتياز الأرض حتى ولو بدون رضى المالك، وتسقط حرمة هذه الملكية لأن عملية الانقاذ أهم من المقدمة المحرمة، وهي اجتياز الأرض دون رضى المالك. وكذلك «إذا تترس الكفار المحاربون اثناء الحرب بالمسلمين الأسرى واضعين اياهم امامهم ليتقوا هجوم المسلمن، ولم يكن للمسلمين سبيل بالوصول إلى العدو الا باختراق صفوف المسلمين الاسرى، وبسفك دمائهم، فيكون جائزاً سفك دمائهم إذا كانوا يشكلون عقبة في انتشار الرسالة الاسلامية وبهذا المعنى كتب الشهيد الأول في اللمعة الدمشقية يقول:

«وهكذا يجوز قتل الترس ممن لا يقتل، ولو تترسوا بالمسلمين كف ما أمكن ومع التعذر فلا قود ولا دية»[1].

وكذلك عندما كان الرسول (ص) في بعض غزواته مضطراً إلى الخروج من المدينة عن طريق معين. تعترضه مزارع مملوكة لأصحابها. وكان الجيش بطبيعة مروره يتلف كثيراً من محاصيل هذه المزارع، مما دعا اصحابها ان يطالبوا الرسول (ص) بالتعويض عما أصابهم من ضرر فلم يجبهم الرسول (ص) كل ذلك لأن النتيجة كانت أهم من المقدمة، لأن هذا الجيش الفاتح كان يسير لأجل ان يغيّر وجه الدنيا، ويخرج اهلها من الظلمات إلى النور، فما قيمة تلف مزرعة صغيرة، إذا كان الجيش الاسلامي بأهدافه العظيمة سوف يحفظ لنا المبدأ الاسلامي العادل في توزيع الثروات في العالم على الخط الطويل.

وهذا أمر معقول من الناحية الفقهية، لأن القاعدة تقرر بأن الواجب اذا توقف على مقدمة محرمة، وكان ملاك الوجوب أقوى من ملاك الحرمة، فلا بد من تقديم الواجب على الحرام.

ومن خلال هذا المفهوم الفقهي، وذاك الاجتهاد السياسي، يثار هذا السؤال حول الظاهرة التي نحن بصدد مناقشتها وتحليلها هو:

---

(١) نهج البلاغة، ج١، ص: ٢١٧، راجع للتوسع / ثورة الحسين /شمس الدين، ص: ٥٤.

لماذا لم يطبق الإمام (ع) هذه القاعدة الفقهية في تصرفاته ومواقفه السياسية؟

ومن هنا يقرر المعارضون لسياسة الامام (ع)، لو أن علياً استفاد من تطبيق هذه القاعدة الفقهية، واتجهت جهوده الى الواجب الأكبر في تملك زمام قيادة المجتمع الاسلامي والعمل على احراز المكاسب الاسلامية الكبيرة من خلالها، ولا بأس أن تبقى بعض المحرمات في سبيل الحفاظ على الواجب الاكبر ما دامت مبرراتها الشرعية (الفقهية) موجودة، ولا سيما ان تملك الامام (ع) لزمام القيادة سوف يفتح على المسلمين ابواب الخير والسعادة ويقيم فيهم حكومة الله على الأرض.

فالسؤال بشكل أدق، هو لماذا لم يتجه الامام (ع) الى تحقيق الهدف الاكبر ويترك لمعاوية ولاية الشام ولو إلى حين، ويصرف نظره عن الأموال المسروقة التي نهبها بنو أمية من بيت مال المسلمين مؤقتاً، ولماذا لا يكون عمله هذا تطبيقاً حياً لمفهوم التزاحم الذي تكلمنا عنه، وذلك بتقديم الأهم على المهم، كما يريد هؤلاء؟! حيث صرحوا للإمام في معرض اقناعه بضرورة المساومة، من ان بقاء معاوية وان كان له ضرره وخطره على الأمة الاسلامية، الا ان بقاء وديمومة دولة الامام (ع) وانتشار نفوذه، وفرصة بناء القاعدة الشعبية لحكم الامام (ع) واجلاء الأطروحة الاسلامية الصحيحة مما علق بها من المسخ والتشويه وتأكيد معالمها في الحياة الاجتماعية بالاضافة للجوانب الحياتية الأخرى، وبعد ان يتمكن من كل هذا ويتقوى على عدوه فإنه (ع) يبادر حينذاك بتصفية البؤر المضادة لحكمه واحداً بعد الآخر ومن موقع القوة.

فهؤلاء المعترضون تصوروا قيام (تزاحم) بين أهم ومهم فجاء اقتراحهم هذا لابقاء معاوية على ولاية الشام لكي تبقى دولة الامام (ع) ومن ثم التحرك على الفتنة والقضاء عليها.

ونحاول الاجابة على كل هذه التساؤلات، ونقول بأن القاعدة الفقهية التي تحدثنا عنها سابقاً، ليست صالحة للأطباق على مواقف الامام (ع)، ولم يكن الامام كقائد رسالي يمثل الاسلام وأهدافه، ان يقبل هذه المساومات وانصاف

الحلول وذلك لملاحظة النقاط التالية واخذها بنظر الاعتبار.

النقطة الأولى:

كانت من أهم اهداف الامام (ع) التي رسمها منهجاً لسلوكه السياسي: هو توطيد وترسيخ قاعدة حكمه في قطر من أقطار العالم الاسلامي، الا وهو العراق، وذلك لوجود الاتباع والقواعد الشعبية الموالية لحكمه روحياً وعاطفياً، وان كان العراقيون لا يعون رسالته وعياً حقيقياً كاملاً.

ولهذا كان الإمام (ع) بحاجة ملحة لبناء طليعة واعية في دولته الجديدة التي كان يخطط لانشائها في العراق تلك الطليعة الواعية التي تكون امينة على الرسالة وأهدافها، وساعداً ومنطلقاً له على ترسيخ هذه الاهداف في كل أرجاء العالم الإسلامي.

فالإمام (ع) منذ تسلمه للحكم، كان يشعر بوجوب بناء هذه الكوادر الطليعية المؤمنة والتي سوف تشرف على القاعدة الشعبية والتي ستكون سنده في تسيير الحكم.

فالإمام لم يكن يملك هذه الطليعة الواعية، بل كان بحاجة الى أن يبنيها. وكيف تواتيه فرصة البناء العقائدي وهو في جوّ ملبّد من المساومات وانصاف الحلول، حتى ولو كانت (المساومة) جائزة شرعاً، ومستوفية لشروط قانون التزاحم الفقهي وذلك لأن التربية الروحية والفكرية والعاطفية التي استهدفها الامام في طليعته الواعية لا يمكن ان تنمو بذورها في اوساط قواعده الشعبية، والامام (ع) يعيش جو المساومات وانصاف الحلول، فالمساومات حتى ولو كانت جائزة من الوجهة الشرعية، فإن جوازها لا يغير من مدلولها التربوي في التأثير على نفسيات وبناء الطلائع الواعية من حوله شيئاً.

فالإمام (ع) يشعر شعوراً قوياً وملحاً بأن دولته والأمة من بعد دولته لا بد لهما من طليعة وقاعدة واعية تعتمد في حمل الأهداف الرسالية وترسيخها في واقع الأمة وارجاء عالمها المترامي، كانت هذه القاعدة الواعية قدرة في ممارسة الحكم الاسلامي الصحيح.

هذه القاعدة الشعبية الواعية لم تكن جاهزة عند استلامه الحكم، حتى يستطيع الاتفاق معها أو أن يقنعها بوجهة نظره في المساومات وتبرير ضرورتها الاستثنائية.

بل ان الظروف وملابسات الواقع آنذاك، تطلبت منه بذل كل الجهود لبناء جيش عقائدي واع بروحه وفكره وعاطفته امثال عمار بن ياسر وأبي ذر ومالك الاشتر وغيرهم من طليعة الامام الواعية.

فبناء هذه الطليعة وتلك القاعدة، ليس سهلاً ولا ممكناً لو ان الامام (ع) اتجه لسلوك سبيل المساومات، وانصاف الحلول، فهي تتناقض وعمله التربوي في بناء الجيش العقائدي الواعي، فافتقاده (ع) لهذا الجيش معناه فقدانه القوة الحقيقية التي يعتمدها في بناء الدولة الاسلامية والخط الطليعي في الأمة على مدى الأجيال.

والمعروف ان اي دولة عقائدية لا بد ان تعتمد على طليعة مؤمنة تستشعر بشكل واعي ومعمق أهداف تلك الدولة وواقع أهميتها وضرورتها التأريخية.

ومن هنا كانت قناعة الامام (ع) وحرصه على ان يحتفظ بطهر وصفاء عملية التربية في بناء جيشه العقائدي الواعي، فجاءت ممارساته ايحاءات تربوية تغييرية يكون فيها القدوة تتعلم فيها القواعد وتتزود بها الطليعة الواعية، فكان عليه ان يظهر امامهم قائداً لا تزعزعه المغريات، ولا يتنازل لأي نوع من المساومات، حتى يعين (ع) تلك الطلائع من خلال هذه المواقف الثابتة أن يبنوا المدلول الرسالي لاطروحته بأبعادها الواسعة للحياة.

ومن هنا نفهم موقف الامام (ع) في رفضه لكل المساومات والحلول الوسط من أجل اتمام هدفه في بناء جيش عقائدي وخلق جو نفسي وفكري وعاطفي ليكون ذلك الجيل مواكباً للأهداف العظيمة في حياته وبعد مماته.

وكان يعني ان قبول الامام (ع) لأي شكل من اشكال التنازل معناه فشله في تربية الفئة الواعية المدركة لمبادئها وأهدافها، وضياع لأهم ضمان للنجاح، وهو

اطمئنان اصحابه وقواعده بقائدهم والشعور بالثقة الكاملة بصلاحيته واخلاصه، ولا يمكن ان يتصور هؤلاء امامهم (ع) الذي قال بحق معاوية وامثاله من بني أمية :

«الا وان أخوف الفتن عندي عليكم فتنة بني أمية فإنها فتنة عمياء مظلمة عمت خطتها وخصت بليتها، وأصاب البلاء من ابصر فيها، واخطأ البلاء من عمي عنها، ترد عليكم فتنتهم شوهاء مخشّية وقطعاً جاهلية، ليس فيها منار هدى ولا علم يرى»[1].

ويصف رايتهم بأنها:

«راية ضلال، قد قامت على قطبها وتفرقت بشعبها تكيلكم بصاعها وتخبطكم بباعها قائدها خارج من الملة. قائم على الظلة»[2] «وانهم مطايا الخطيئات وزوامل الآثام»[3].

ومن هنا نخلص إلى نتيجة مؤداها، أن جو المساومة لا يخلق الجو الرفيع نفسياً وفكرياً وروحياً، ولا يتلائم مع خططه التربوية في بناء جيل عقائدي واعي.

النقطة الثانية :

ان استلام الامام (ع) للحكم، جاء أعقاب الثورة على خليفة المسلمين عثمان أي على أثر ارتفاع وانفجار العواطف التي وصلت ذروتها في مقتل عثمان والاطاحة بحكمه لانحرافه عن كتاب الله وسنة نبيه (ص)، حيث ان مجيء الامام (ع) لم يكن مجيئاً اعتيادياً يقول الامام (ع) بهذا الصدد «فأقبلتم اليّ اقبال العوذ المطافيل على اولادها تقولون: البيعة البيعة قبضت كفي فبسطتموها ونازعتكم يدي فجاذبتموها»[4]. بل جاء في لحظة الثورة وهي تركيز وتعبئة وتجميع كل الطاقات العاطفية والنفسية في الأمة الاسلامية، فكان لا بد للامام (ع) ان يغتنم هذه اللحظة المليئة بكل ما استبطنته من زخم وطاقات عاطفية ونفسية وفكرية،

---

(١) نهج البلاغة ص: ١٣٨.

(٢) ن. م ص: ١٥٦.

(٣) ن. م ص: ٢٢٤.

(٤) نهج البلاغة رقم النص: ١٣٧.

وماذا ينتظر القائد الرسالي، غير لحظة ارتفاع في حياة امة، لكي يستطيع ان يستثمر هذه اللحظة في سبيل اعادة هذه الأمة الى مسيرها الطبيعي.

وهذا الارتفاع العاطفي المتأجج، الذي وجد في حياة الأمة الاسلامية، لم يكن من الهيّن اعادته الى مساره.، بل كان قدر الامام (ع) بعد استلامه لمسؤولية الخلافة، أن يعمل على تركيز وتعميق هذه الحالة العاطفية واستثمارها لصالح الأمة عن طريق تمرير الاجراءات الثورية والجذرية التي قام بها فيما بعد خلال مواجهته لمشاكل المجتمع المعقد.

«وقد كان لهذه السرعة في تطبيق الاصلاحات الجذرية اثرها المزدوج في الوصول نحو الهدف، فهو من جهة: يستفيد من الطاقات المتأججة فعلاً، والتي تسترخص البذل في سبيل تحقيق النتيجة، ومن جهة اخرى: يشارك في ابقاء الجذوة متقدة لفترة اطول مما يساعد على امكانية التقدم بعملية الاصلاح وترسيخها في المجتمع، وهذه السرعة بالتالي ستفاجيء القوى المنحرفة فلا تدع لها مجالاً للتخطيط والمؤامرة»[1].

ومن هنا نواجه سؤالاً مهما، ونقول ماذا يكون مصير الامام (ع)، وهو في هذا الجو المشحون عاطفته وثورة؟ لو أبقى الباطل يصول ويجول، دون ان يمسه باجراء اصلاحي؟ أو أن يعمد (ع) الى جانب الصمت والسكوت عن تلك التصرفات الكيفية التي قام بها الحكام من قبل ويسكت عن معاوية بالذات؟ وهل يكون موقف الامام صحيحاً لو انتظر لتهدأ العاطفة وينكمش التيار النفسي والعاطفي المتأجج للثوار؟ ولو اننا افترضنا ا ذلك فمن ذا الذي يضمن أو يقبل أن يرجع الظرف للإمام مرة أخرى ليقوم بمثل هذه الاجراءات ؟فإن افضل ظرف مؤات للامام (ع) لتمرير اجراءاته التغييرية،هو هذا الظرف الثوري الذي عاشته الأمة الإسلامية ابان ثورتها على عثمان ولم يكن بالامكان، وتحت اي مبرر، تأجيل هذه الاجراءات الى ظرف آخر تنطفيء فيها الشعلة الثورية المستعرة، وتبرد فيها العواطف وتتميع من خلالها المشاعر وتذوب.

(١) من حياة اهل البيت/التسخيري ص: ٧٧.

النقطة الثالثة:

أراد الامام (ع) أن تدرك الأمة آنذاك وتتفهم بأن واقع المعركة بينه وبين خصومه ليست معركة ذاتية بينه وبين معاوية أو بين قبيلتين (بني هاشم وبني أمية)، وإنما هي معركة الاسلام مع الجاهلية، وقد وقد حرص (ع) كل الحرص في توعية الناس بأن واقع المعركة هي عين معركة رسول الله (ص) مع الجاهلية التي حاربته في بدر وأحد.

ومن الطبيعي الآن ان نفهم، بأن هذا الحرص الذي بذله الإمام (ع) سوف يمني بنكسة، وتتصادر آثاره، لو أن الإمام (ع) أقر معاوية وأبقى مخلفات عثمان السياسية والمالية (اللاشرعية) طليقة في حياة الناس.

فاقرار الامام (ع) كان يعني شيئاً واحداً، هو ترسيخ فكرة (اقرار الانحراف واللاشرعية) في اذهان الناس، ولعرف الناس بأن القضية المختلف عليها ليست قضية رسالية، وإنما هو اختلاف على سلطان وجاه، وخصوصاً عندما يلحظ الناس انسجام هذه الاهداف مع واقع هذه المخلفات (اللاشرعية) وهذا مما يوسع الشك بقيادة الامام (ع)، ذلك الشك المصطنع الذي نمّي عند الأمة في شخص الامام (ع). بالرغم من انه لم يكن يوجد له اي مبرر موضوعي، بل كانت بواعثه تبريرية (ذاتية)، مع كل ذلك نرى أن ظاهرة الشك بالامام تكبر وتتسع ويمتحن الامام (ع) بهذا الشك، ويلتحق بالرقيق الأعلى، والأمة شاكّة، ثم تستسلم الامة بعد استشهاده (ع) لتتحول الامة الى كتلة هامدة بين يدي الامام الحسن (ع)، فالأمة وصلت إلى هذه الحالة (المؤسفة)، بالرغم من ان الشك لم يكن له اي مبرر موضوعي على الاطلاق.. فكيف اذا افترضنا ان ظاهرة الشك وجدت ولها مبررات موضوعية من ناحية الشكل؟!

كيف لو أن المسلمين رأوا أمامهم (ع)، الذي هو رمز الاطروحة ورمز لأهداف معينة، تراه يساوم، ويبادر لبيع الأمة ـ ولو مؤقتاً مع (خيار الفسخ)!.. ولكن نسأل من أين يأتي للأمة ان تدرك الفرق بين ان يبيع الامام (ع) بلا خيار الفسخ او مع خيار الفسخ ولكن البيع في نظر الأمة، مهما تكن طبيعته هو البيع لا يغير من مدلولها النفسي والايحائي شيء!

والامام علي (ع) كانت مهمته الرسالية الكبرى، هي ان يحافظ على وجود الأمة دون ان تتنازل الأمة الاسلامية عن كيانها وكرامتها ووجودها.

فهذه الأمة التي خاطبت يوماً خليفتها عمر بن الخطاب بأنّها ستقوّمه بحد السيف لو انحرف عما تعرفه من احكام الله وسنة رسوله (ص). . ولكن نفس هذه الأمة الشجاعة رأيناها بعد ذلك، تتنازل راضية، عن جودها وكرامتها، وعملية التنازل هذه كانت ممثلة برمز معاوية بن ابي سفيان، وجذوره في تاريخ الاسلام، والذي حاول تغيير الاسلام وتوجيهه الى حكم هرقلي وكسروي وتحويل الأمة عن تجربتها الاسلامية في الحكم، من امة تحمل رسالة إلّهية إلى ملك وسلطان يحمل هذه الرسالة، وذلك بمستوى وعيه لهذه الرسالة واخلاصه لها سلباً وايجاباً.

هذه المؤامرة الكبيرة التي اثمرت نتائجها الخبيثة على شكل تنازل الأمة عن وجودها وكيانها، والتي كانت أساس المآسي والمحن والكوارث، والتي جاءت نتيجة خداع الأمة وتزيف وعيها وضميرها والضغط عليها، حتى تنازلت عن وجودها واصالتها في عقد لا يقبل الفسخ.

الامام (ع) ادرك الأمة في اللحظات الأخيرة من وجودها المستقل وقد حاول جاهداً في الحفاظ على وجودها المستقل، وحاول ان يشعرها بأنها ليست سلعة تباع وتشترى، وليست شيئاً يساوم عليها.

ولكن كيف يتأتى للإمام (ع) ان يشعر امته بهذا المعنى، بأنها ليست سلعة تباع وتشتري وفقاً لرغبات الحكام اذا كان هو (ع) يبيعها ويشتريها، ولو في عقد مؤقت قابل للفسخ وكيف يمكن له أن يفهم الأمة ويشعرها بأنها امة تمثل خلافة الله في الأرض، لأجل ان تحقق اهداف هذه الخلافة، وهو يبيع قطاعات من هذه الأمة لحكام فجرة من قبيل معاوية بن أبي سفيان، في سبيل ان يسترجع ويكسب هذه القطاعات، ولو بعد حين.

ولا يمكن تفسير عمل الامام (ع) الا انه راض وقابل بمواكبة المؤامرة، التي كانت روح العصر كله آنذاك، والتي كان الامام (ع) يقف ضدها ويتصدى

لاحباطها، لكي ينقـذ الامة من شـرورها، ولا يمكن نفتـرض بأن لـلامام (ع) ان يساهم في هذه المؤامرة.

ولو ان الامام (ع) هادن معاوية ، فإنّ موقفه المساوم هذا يعني امرين: ـ

الأول: منح معاوية فرصـة ثمينة، ليحكم قبضتـه، ويستفيد من المـوقف، ويكسب الشرعية، وهذا يعني في ادراك الامام (ع) التفريط في مستقبل الأمـة، ولمستقبل تجربتها الاسلامية ككل.

وهذا يعني أن تباع الأمة بعقد يقبل الفسخ، لأناس أرادوا أن يبيعوها بعقد لا يقبل الفسخ.

الثاني: تفاقم ظاهرة الشك (المصطنع) وفقدان الثقة بالقـائد، وشـرط الثقة بالقائد، من الشروط المهمة لحصول التأثير المطلوب في الأمة.

وكان الإمام (ع) يمثل رمز القيادة الواعية، التي تريد ان تربي الأمـة على المدى الطويل، فإذا وجدته الأمة وهو يساوم عليها ويبيعهـا لحكام ظلمـة، فقدت بالضرورة ثقتها وولائها به.

ومن الملاحظ ـ تاريخياً ـ في أواخر حياته (ع) ان روح الشك، قد سـرت في بعض قطاعات الأمة، (الشك في واقع معركتـه مع معـاوية)، رغم ان عـوامل ذلك الشك كانت عوامل تبريرية (ذاتية) للشاك، دون ان يكون لها مبرر موضوعي (خارجي).

فإذا كان الشك قد سرى في هذه القطاعات، مع اتخاذ الامام (ع) كل تلك الضمانات والمواقف الحازمة غير المـداهنة، فمـا ظننا بهـذه القطاعات وهي ترى إمامها يساوم بابقاء الولاة المنحرفين ويطلق أيديهم في حياة الناس، ومن ثم يرجع ليعزلهم بعد ذلك، فإن هذا العمل، بلا شك سيكون مبرراً موضوعياً كبيراً للشك، مما يفقد الامام (ع) القدرة وامكانية المضي في تطبيق تجربته الكبرى.

ولهذا كان تصميم الامـام (ع) على ان يجابـه المؤامرة ويفضحهـا قبل أن تتجذر في واقع الأمة، فأعلن الحرب دون هوادة على كل هذه البؤر بعد ان اعلن

لمن طلبوا منه قبول انصاف الحلول، انه قد قلّب هذا الأمر، ظهره وبطنه فلم يجد الا القتال او الكفر بما أنزل الله على محمد (ص)[1].

النقطة الرابعة:

لم يركز الامام (ع) في طريقة تعامله مع مشكلة الانحراف، وايجاد حل لها، بالفترة الزمنية القصيرة التي عاشها فقط، وانما كان يحمل طموحاً وهدفاً اكبر من ذلك، كان يتعامل مع التأريخ اكثر مما كان يتعامل مع فترة حكمه القصيرة.

فقدّم منهجه للتأريخ فخلده التأريخ، كأعظم انسان بعد النبي (ص) وأكمل خطاه وسار على منهجه اروع سيرة، فكان اسلاماً مجسداً حقاً.

الإمام علي (ع)، كان قد وعى مشكلته آنذاك، بأنه قد أدرك المريض، وهو في آخر مرضه، حيث لا ينفع العلاج.

هذه الحقيقة الجليّة، دفعت امامنا (ع) ان يفكر بأشواط اطول وأوسع لخوض معركته الرسالية، ولم يدر في خلده يوماً، ان يركز، على الفترة الزمنية القصيرة من سني حكمه التي عاشها، بل كان يتلخص ايمانه بأن الاسلام بحاجة إلى أن تقدم له في خضم تعقيدات الانحراف اطروحة واضحة نقية لا شائبة فيها ولا غموض، ولا التواء ولا تعقيد، ولا مساومة فيها، ولا نفاق.

هذه الاطروحة، هي التي كانت تحتاجها الأمة آنذاك لأن الأمة الاسلامية، كتب عليها ان تعيش الحكم الاسلامي المنحرف، منذ ان نجحت ـ مؤامرة السقيفة ـ والاسلام الذي اعطته (السقيفة) للأمة، بامتدادها التأريخي الطويل، اسلام مشوه ممسوخ، لا يحفظ الصلة العاطفية والفكرية بين الأمة ككل، وبين اشرف رسالات السماء.

وهذه الأمة ـ والتي هي أشرف أمم الأرض (برسالتها) ـ لا يمكن لها أن تحفظ هذه العلاقة بينها وبين الاسلام على أساس معطيات (اسلام السقيفة)،

---

(١) صفين/ص: ٤٧٤.

الذي انتج للأمة الاسلامية قادة منحرفين امثال ـ معاوية بن أبي سفيان، ويزيد، وعبد الملك بن مروان، وهارون الرشيد. ولكي تحفظ هذه الصلة، بين الأمة ورسالتها العظيمة، لا بد من اعطاء صورة واضحة محدّدة للاسلام، وهذه الصورة اعطيت نظرياً: على مستوى ثقافة أهل البيت (ع) وأعطيت عملياً: على مستوى تجربة حكم الامام علي (ع).

ولهذا كان الامام (ع) يستغل كل الفرص، ليعمل على تعميق وعي الاسلام في الأمة ويربي الطليعة المؤمنة التي تشكل على المدى الطويل، الرابط الحقيقي بين الاسلام والأمة، وليضع المنهج الذي يبقى في وعي الأمة منهجاً اسلامياً حقاً، وتبقى تقارن بينه وبين منهج اي حكم يأتي من بعده، فتعيدها هذه المقارنة إلى صحتها وتبرق في ضميرها بوارق العودة إلى الاسلام من جديد[1].

ومن هنا جاء تأكيد الامام (ع) على العناويين الأولية في التشريع الاسلامي وعلى خطوطه الرئيسية، لكي يقوم المنهاج الاسلامي واضحاً، غير ملوث بلوثة الانحراف التي كتبت على تأريخ الاسلام مدة طويلة من الزمن.

ولكي يحقق الامام (ع) هذا الهدف، كان قدره في طرح هذه التجربة بهذا النوع من الطهر والنقاء والوضوح دون ان يعمل بما اسميناه ـ بقانون التزاحم ـ الذي أشرنا اليه آنفاً.

وقد استمر الامام (ع) في صموده ومواجهته لكل المؤامرات التي ساهمت في صنعها الأمة ـ المضللة والغافلة ـ على اساس جهلها، وعدم وعيها وادراكها وشعورها بالدور الحقيقي الذي يمارسه الامام (ع) في سبيل حماية وجودها من الضياع، وحماية كرامتها من ان تتحول إلى سلعة تباع وتشترى.

ولهذا كان يحرص الامام (ع) كل الحرص على طرح الصيغة الاسلامية الكاملة للحياة والوقوف على التكليف الواقعي، دون القفز عليه او تجاوزه الى

---

(١) راجع للاستفادة/ص: ١٣٣ من حياة اهل البيت/التسخيري.

ضرورات استثنائية تفرضها طبيعة الملابسات والظروف المعقدة»[1].

ونخلص الحديث ونقول، ان قبول انصاف الحلول او المساومة في حل قضية الانحراف كانت في الواقع اشتراكاً في المؤامرة من قبل الامام (ع) ولم تكن تعبيراً عن الاعداد لاحباط المؤامرة، لأن المؤامرة لم تكن يوماً مؤامرة على شخص او حاكمية الامام علي (ع) بالذات، حتى يقال بأن الإمام علي (ع) يمهد لهذه الحاكمية بشيء من هذه الحلول الوسط، وإنما المؤامرة كانت تستهدف وجود الأمة الاسلامية وشخصيتها، وان تقول كلمتها في الميدان بكل قوة وجرأة وشجاعة على أن تسلخ عن شخصيتها ووجودها وينصبّ عليها قيم من اعلى يعيش معها عيش الاكاسرة والقياصرة هذه هي المؤامرة بكل خيوطها وهي ما سعت اليه (السقيفة) بالتدريج - بوعي او بغير وعي الى تعميقها وانجاحها في المجتمع الاسلامي.

ولو ان الإمام (ع) كان قد مارس قبول انصاف الحلول وباع الامة عن ارادتها - مع خيار الفسخ - اذن لكان بهذا قد اشترك في انجاح هذه المؤامرة وسلخ الأمة عن ارادتها وشخصيتها - وكانت الأمة آنذاك بحاجة كبيرة لكي تستطيع ان تكون على مستوى المسؤولية والمقدرة لكي تتخلص من تبعات هذه المؤامرة، فكان لا بد لها ان تشعر بكرامتها وارادتها وحريتها واصالتها وهي تعيش الصراع مع الجاهلية، وهذا كله مما لا يتفق مع ممارسة الامام (ع) لانصاف الحلول.

النقطة الخامسة:

تحدثنا الروايات التأريخية، بما لا مزيد عليه، عن صور وألوان مخزية من الانحرافات والفساد بكل معنى الكلمة فقد كان وضعاً يشهد سباقاً الى اللهو والمجون والفجور.

> «ولم يكن ولاة عثمان هؤلاء من ذوي السابقة في الدين والجهاد في الاسلام، وانما كانوا متهمين في دينهم، بل كان فيهم من أمره في الفسق، ورقة الدين معروف مشهور: كان فيهم عبدالله بن سعد الذي

---

(١) راجع نفس المصدر/ ص: ١٤٦.

بالغ في ايذاء النبي (ص) والسخر منه وبالغ في الهزء بالقرآن حتى نزل القرآن بكفره، والوليد بن عقبة ممن امرهم في الفسق معروف مشهور، وقد نزل فيه قرآن يعلن فسقه»[1].

أما سعيد بن العاص الذي خلف الوليد فقد استقبله الكوفيون بالكراهية وعدم الرضا لأنه كان شاباً مترفاً لا يتحرج من الاثم ولا يتورع من الافك.

روى ابن سعد: أن قال مرة في رمضان ـ بعد ان ولي المصر ـ: من رأى منكم الهلال؟ فقال له هاشم بن عتبة الصحابي العظيم: «أنا رأيته».

فوجه اليه لاذع القول وأقساه قائلاً:

بعينك العوراء رأيته؟! فالتاع هاشم وأجابه على الفور: تعيرني بعيني وانما فقئت في سبيل الله؟ وكانت عينه اصيبت يوم اليرموك.
وأصبح هاشم في داره مفطراً عملاً بقول رسول الله (ص):
«صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته» وفطر الناس لافطاره وبلغ ذلك سعيداً فأرسل اليه وضربه وحرق داره»[2].

وكذلك عبدالله بن عامر بن كريز، إذ ولي البصرة وهو ابن اربع وعشرين سنة وقد سار سيرة البذخ والترف. وقد قام بعد مقتل عثمان بنهب ما في بيت مال المسلمين في البصرة وسار الى مكة وانضم الى المتمردين على الامام علي (ع)[3] وناهيك عن الحديث عن معاوية وترفه.

فإذا كان ولاة الامصار الهامة هم بهذه المنزلة فماذا نتوقع من الجهاز الاداري الأصغر من هؤلاء والذي كان يضج بالترف والفساد[4].

---

(١) عن ثورة الحسين/شمس الدين/ص: ٣٨.
(٢) عن كتاب حياة الامام الحسن/ص: ٢٦٣.
(٣) أسد الغابة ج ٣/ص: ١٩٢.
(٤) راجع للاستفادة من حياة أهل البيت (ع) /التسخيري/ص: ١٤٣.

من خلال هذه الحقيقة، نفترض ونقول: لو ان الامام علي (ع) كان قد أمضى هذه الاجهزة الفاسدة، بكل فسقها وفجورها، فليس من المعقول ـ بمقتضى طبيعة الأشياء ـ ان يتمكن الامام (ع) من ممارسة عملية التغيير الحقيقي في تجربته السياسية التي يتزعم قيادتها.

الواقع أن هذا الفهم لموقف الامام (ع) مرتبط بشكل عضوي بحقيقة بديهية مطلقة تشمل كل المواقف الرسالية والعقائدية المشابهة لموقف الامام (ع).

والحقيقة هي: ان اي موقف رسالي يستهدف تغييراً جذرياً واصلاحاً حقيقياً في بيئة أو أي مجتمع من المجتمعات تشمله هذه الحقيقة المطلقة وهي «ان كل اصلاح وتغيير، لا يمكن ان ينشأ أو ان ينبثق من خلال الأوضاع والأجهزة الفاسدة نفسها، بل لا بد من نسف وازالة هذه الأوضاع ومؤسساتها المعطلة لمهمة التغيير والاصلاح.

فلو افترضنا ان القائد، المسؤول عن التغيير والاصلاح أقر الأجهزة الفاسدة التي يتوقف التغيير والاصلاح على ازالتها وتعاون معها وأمضاها ـ ولو مؤقتاً ـ بمنطق ما يسمى اليوم «بمبدأ الانحاء للعاصفة» أو «خطوة الى الخلف وخطوتين الى الامام»، حتى يكتسب المزيد من القوة والقدرة على امل الامتداد افقياً وعمودياً، في ابعاد تجربته السياسية الحاكمة، وبعدها يعمل على استبدال الركائز الفاسدة بأخرى صالحة.

هذا المنطق ـ الآنف الذكر ـ كان لا يتفق (يوم ذاك) مع طبيعة عمل الامام الاجتماعية وذلك لمنافاته مع طبيعة الاشياء والوضع الاجتماعي والسياسي - آنذاك ـ وذلك لأن هذا القائد من اين يستمد قوته؟ وكيف تتسع قدرته افقياً وعمودياً؟ هل تهبط عليه كل هذه القدرات بليلة وضحاها، بمعجزة من السماء؟

الجواب: لا، بل ان القائد، يستمد قوته وقدرته (من أسباب النصر الطبيعية اي من تلك الركائز نفسها، بعد ان تتعمق وتنمو هذه القدرات عنده باستمرار، من خلال اجهزته ومؤسساته التي هي قوته التنفيذية، والتي هي واجهته وتعبيره وتخطيطه الى الأمة.

فإذا افترضنا، ان هذه الاجهزة، كانت هي الأجهزة الفاسدة التي يريد المخطط (الاصلاحي) ازالتها وتبديلها بأجهزة بديلة اخرى.. فليس من المنطقي ان تعتمد المقولة التي نصح بها الامام (ع) والقائلة: «دع هذه الاجهزة معك، تعمل من خلالها، حتى تمتد وتتجذر فيها، وبعد، حاول ان تقضي عليها وتصلحها».

ولكننا نقول، ان هذا التجذر والامتداد الناتج من هذه الاجهزة الفاسدة، لا يمكن القضاء عليها، لأن النتيجة ـ كما يقول المناطقة ـ ترتبط بمقدماتها، وركائزها واسسها فهذا التجذر والامتداد، المستمد من ركائز وأجهزة فاسدة لا تمكن القائد المصلح من ان يعود إليها ثانية، فيتمرد عليها، لأن هذا القائد، حتى ولو كان حسن النية، وصادقاً في تصوره، وسلك سلوك الفرد المواكب للأجهزة الفاسدة، دون استبدالها وتغييرها، فسيجد نفسه في نهاية الطريق، بأنه عاجز عن مواصلة مهمة التغيير وتحقيق اهدافه المنشودة لان القائد مهما كان حكمه وسلطانه مهيمناً، لا يتمكن من تغيير مجتمعه، بجرة قلم او اصدار امر (فوقي) وانما لا بد لعملية التغيير من أجهزة ومؤسسات تخطط وتنفذ لإرادة هذا القائد.

فطبيعة الأشياء، وواقع العمل التغييري، في أي بيئة او مجتمع تفرض على اي قائد يبدأ هذا العمل هو أن يفكر ببناء زعامته، بصورة منفصلة عن تلك الاجهزة الفاسدة، وهذه الحقيقة هي التي دعت الامام علي (ع) ان يتوقف دون امضاء لمخلفات عثمان الادارية والسياسية والاقتصادية.

وهنا يتضح بشكل جلي، لا مجال لأن يطلب من الإمام (ع) أن يمضي هذا الجهاز طليقاً في حياة الناس، ثم يشرع بعملية التغيير، ويقوم بعد ذلك، بطرد العناصر الفاسدة من أجهزته التنفيذية فهذا العمل يتنافى مع المنطق السياسي للتأريخ كما يتنافى مع المنطق الرسالي الذي كان فوق كل شيء عند الامام علي (ع).

النقطة السادسة:

إن الإمام (ع)، لو كان قد أمضى ـ ولو مؤقتاً ـ الأجهزة الفاسدة التي خلّفها

عثمان بن عفان، وعلى رأسها، اقصاء حاكمية معاوية بن أبي سفيان، وبتعبير اخر، لو باع الامام (ع) الامة لمعاوية بيعاً مرحلياً مؤقتاً (مع خيار الفسخ)، لحصل (كل ما في الأمر) على نقطة قوة - مؤقتة - (وفقاً للنصائح التي اسديت للإمام في هذا المجال)، ونقطة القوة هنا، هي ان معاوية سوف يبايعه، ومعه اهل الشام.. هذه القوة التي سيكسبها الامام (ع) في حساب عملية التغيير، تقابلها نقطة قوة سوف يحصل عليها معاوية، الا وهو اعتراف الامام (ع) بشرعية معاوية في الحكم، وبأن معاوية رجل - على اقل تقدير - سيوصف بأنه عامل قدير على تسيير مهام الدولة، وحماية مصالح المسلمين ورعاية شؤونهم.

فهناك اذن اعتراف من قبل الامام (ع)، يعطي نقطة قوة لمعاوية، في مقابلها نقطة قوة يأخذها الامام عن طريق الامضاء المؤقت لولاية معاوية، ورضوخه لسلطان الامام الشكلي وتحييده من مخالفته للاسلام والامام، وهذا الامضاء المؤقت سيتيح للإمام الفرصة للقضاء على اعدائه بالتدريج وتصفية بؤرهم، وتنفيذ اطروحته في نهاية الأمر.

وإذا أردنا ان نقارن بين هاتين النقطتين فسوف لن ينتهي الباحث الى نتيجة مطمئنة، تؤكد ان نقطة القوة التي يحصل عليها الامام (ع) هي أهم في حساب عملية التغيير الاجتماعية التي يمارسها (ع)، من نقطة القوة التي يحصل عليها معاوية وخصوصاً - اذا علمنا - ان مهمة تغيير الولاة داخل الدولة الاسلامية - وقتئذ - لم تكن عملية سهلة ويسيرة، بالشكل الذي نتصوره في دولة مركزية، سيطرت حكومتها (المركزية) على كل اجزاء الدولة وقطاعاتها..

ولا يعني هذا ان معاوية عندما يبايع أو يأخذ البيعة لخليفة في المدينة، ان جيشاً في الحكومة المركزية سوف يدخل الشام وان هناك ارتباطاً عسكرياً حقيقياً سوف يوجد بين الشام وبين الحكومة المركزية وانما يبقى - بعد - اخذ البيعة أيضاً - هذا الوالي، همزة الوصل الحقيقيّة والفعالة بين هذا البلد وبين الحكومة المركزية.

فضعف الحكومة المركزية من ناحية.. وترسخ معاوية وقدم ولايته في الشام من ناحية اخرى، وخصوصاً ان الشاميين لم يعرفوا حاكماً مسلماً قبل معاوية واخيه

يزيد، منذ دشن الشام حياته الاسلامية الاستثنائية، والتي اعطيت له من قبل عمر بن الخطاب، واعطيت معه له الصلاحيات الاستثنائية، في ان ينشيء له سلطنة وملكية في الشام، بدعوى ان هذه السلطنة ستكون مظهر عزّ وجلال للاسلام، في مقابل دولة القياصرة.

هذه الصلاحيات - الاستثنائية - التي أخذها معاوية من عمر، لاجل انشاء مظاهر ملكية مستقلة في الشام، لا تشبه الوضع السياسي في الدولة الاسلامية، ثم الصلاحيات الواسعة التي أخذها بعد ذلك من عثمان بن عفانُ، بحيث لم يبق طيلة مدة خلافة عثمان اي ارتباط حقيقي بين الشام والمدينة وانما كان معاوية - كل شيء في الشام - حيث كانت الشام تعيش حالة شبه - انفصالية - في الواقع، وان لم تكن منفصلة من ناحية الشكل الدستوري للدولة الاسلامية.

ونستنتج مما سبق ذكره، ان هذه الحقيقة تعقّد على الامام (ع) موقفه، وتجعل من نقطة القوة التي يحصل عليها - وهي مجرد البيعة، في الأيام الأولى من حكمه - هي نقطة غير حاسمة.

بينما الامام (ع) إذا أراد - بعد هذا الموقف - أن يعزل معاوية، من ولاية الشام كان باستطاعة معاوية، ان يثير في وجه الامام (ع) - بالاضافة الى جانب وجوده المادي المترسخ منذ زمن طويل في الشام - الشبهات على المستوى التشريعي والاسلامي متسائلاً امام الناس.

لماذا يعزلني الامام علي؟! وخصوصاً بعد ان اعترف بأني حاكم كفؤ صالح لادارة شؤون المسلمين؟!

مثل هذه الاسئلة كان بامكان معاوية ان يلقيها في وجه الامام (ع) ولم يكن للإمام (ع) أي جواب مقنع، يتقدم به امام الرأي العام الاسلامي. بينما لو بادر الامام (ع) منذ البداية بعزله وتنحيته، وعلى أساس انه يؤمن بعدم صلاحيته وبأنه شخص لا تتوفر فيه شروط الحاكم الاسلامي ولأنه والي منحرف، وهو بريء ولا يتحمل مسؤولية وجود معاوية كحاكم في الفترة السابقة اثناء خلافة عمر بن الخطاب او عثمان بن عفان لكان جوابه مقنعاً امام الرأي العام الاسلامي!

النقطة السابعة:

وهنا نفترض، ان الامام علي (ع) لو كان قد أمضى حاكمية وولاية معاوية بن أبي سفيان، لبايعه ولمنح الامام (ع) نقطة القوة..

ولكن كل المؤشرات والقرائن التي كانت تكتنف موقف الامام (ع) تنبىء عن انه لم يكن ليبايع الامام (ع) لو أبقاه في ولاية الحكم، وكل الملابسات التأريخية كانت لا توحي بصحة هذا الافتراض، القائل «بأن امضاء حاكمية معاوية كأسلوب وكمرحلة، يعني ان معاوية سوف يمضي خلافة الامام (ع) ويعطيه البيعة فإن معاوية لم يعص الامام (ع) لأن الأخير عزله عن الولاية وانما كان ذلك ـ في أكبر الظن ـ جزءاً من مخطط لمؤامرة طويلة الأمد (للأموية) الحاقدة على الاسلام. الاموية التي كانت تخطط لنهب مكاسب الاسلام بالتدريج.

«فمعاوية كان عارفاً بالمعادلة القائمة حينئذ. ومدركاً ان الفرصة الآن هي اسنح له من أي وقت آخر، وكان يعلم ان الامام اذا هادنه، فإنما ذلك لضرورة استثنائية، ولا بد ان الامام سينهي هذه الهدنة عندما يتمكن منه وسيعمل لتصفيته وافناء قواعده، لأنه يعرف الامام جيداً وقد خبره في كثير من المواقف الحاسمة، ويعي مدى نظره واخلاصه.

وكانت تصريحات معاوية وتصرفاته كلها توحي بأنه لم يكن ليبايع للإمام (ع) وكان يطالب بدم عثمان، وقتل قتلته، ويتهم اكثر اصحاب الامام (ع) وقادته بذلك.

وكان يوهم العامة من الناس، ان المقام الذي يمتلكه انما هو حق طبيعي وكرامة إلّهية مّن الله بها عليه.

فهو يقول في خطبة له بحضور مندوب الامام (ع) الذي جاء يأخذ البيعة:

«غير أن الله الحميد كسانا من الكرامة ثوباً، لن ننزعه طوعاً ما جاوب الصدى وسقط الندى وعرف الهدى حملهم على خلاقنا البغي والحسد فالله نستعين عليهم ثم يمضي يقول: «ايها الناس اني خليفة امير

المؤمنين عمر بن الخطاب واني خليفة عثمان بن عفان عليكم»[1] «وقتل مظلوماً وتعلمون اني وليه»[2].

وهو بهذا يمهد ليعلن نفسه خليفة للمسلمين، بعد أن يجعل نفسه امتداداً للخلافة وكانت اطماع معاوية في الخلافة لم تكن لتخفى على أحد، ولم يكن الجيش الذي أعدّه وهيّاه الا ليحارب من يتولى الخلافة كائناً من كان، لقد كان يضلل بدعوته الى اعادة الأمر شورى بين المسلمين بعد ان يقتص من قتلة عثمان.

وكتب للإمام (ع) يقول:

«وقد ابى الناس الا قتالك حتى تدفع لهم قتله عثمان فان فعلت كانت شورى بين المسلمين وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام»[3].

وهكذا قدّر للمؤامرة (الاموية) ان تنفذ على مراحل كانت المرحلة الاولى منها، هو ترسيخ وجود الاخوين في الشام يزيد بن أبي سفيان ومن بعده أخيه معاوية ومن ثم استقطاب أهل الشام عن طريق معاوية بتكريس بقائه هذه المدة الطويلة.

لقد كان معاوية يتحين الفرص لمقتل الخليفة عثمان، لأن مقتله سيمكنه من سلاح غير منظور يستطيع به الدخول إلى ميدان الصراع مع الإمام (ع)، وعين هذه الحقيقة، تفسر تباطؤه عن نصرة عثمان، وبعد ان استنصره واستصرخه، وكتب له مبيناً بأنه يعيش لحظات الخطر الأخيرة. ولكن معاوية يجيبه وكان معاوية ـ على أقل تقدير ـ قادراً ان يؤخر هذا المصير المحتوم(بخليفة عثمان) إلى مدة أطول، لو انه بادر لنصرته، ولكن معاوية بالعكس كان يخطط يبقى هذا التيار ـ الثوري ـ ليمهد لسقوط عثمان على يد الثوار المسلمين قتيلاً، وبعدها يأتي ويطالب مدعياً بأنه ابن عم الخليفة المقتول وولي دمه[4].

---

(١) صفين/لنصر بن مزاحم ج ١ ص ٣٢.
(٢) ن. م/ص: ٨١.
(٣) نقلاً عن سيرة الائمة الاثنى عشر ج١/ص: ٤٦٨.
(٤) صفين/ نصر بن مزاحم ج٨١.

ومن المعلوم أن معاوية لم تكن تتاح له هذه الفرصة الثمينة كل يوم، فهي فرصة تلبي الآمال والاطماع الاموية التي كان يحلم بها منذ ان دخل الإسلام معترك الحياة، وذلك لكي ينهب مكاسبه ومنجزاته.

هذه الفرصة الذهبية لم يكن من المضنون ـ ان معاوية سوف يغيرها عن طريق الاكتفاء بولاية الشام، بل ان ولاية الشام كانت مرحلة في تزعم ونهب كل الوجود الإسلامي وتجيره لاطماع بني أمية.

وهذا يعني أن تعيين وابقاء معاوية والياً على الشام، سوف لن يكون على مستوى اطماعه في المرحلة الاولى التي بدأت بمقتل عثمان بن عفان من مراحل المؤامرة الأموية على الإسلام.

نستنتج مما سبق ان فرضية ركون معاوية إلى البيعة لو أقره الإمام (ع) افتراض غير منطقي لا ينسجم مع طبيعة الأحداث والاشياء.. أما اسلوب المساومة وقبول انصاف الحلول فلم تكن إلا اسلوباً من اساليب معاوية لكسب الوقت، واتخاذ جانب المظلوم ورفع شعاره لاغراء الناس به.

ويمكن ان نشير إلى كثير من الخسائر التي كان يمكن ان تمنى بها حركة الإمام (ع) وذلك بقبوله للمساومات.

نلخصها بالآتـي:

١ ـ امضاء الظلم واتخاذ المضلين عضداً، وأمضاء الأطروحة الأموية اللااسلامية.

٢ ـ إضاعة فرصة التربية القيادية، وذلك عن طريق لعب أوراق انصاف الحلول والمساومات.

٣ ـ إضاعة الفرصة المؤاتية للقضاء على ألدّ اعداء الإسلام وذلك بالتفريط بحالة الصحوة الثورية للجماهير الإسلامية. عقيب مقتل عثمان.

٤ ـ ان المواقف المساومة وانصاف الحلول تؤدي إلى غياب وفقدان الرؤية الواضحة للأطروحة الصحيحة التي ينشدها الإمام (ع) لأمته التي ابتليت (بإسلام

السقيفة) المشوه الممسوخ إلى غير ذلك من الخسائر والمضار التي اعتبرها الإمام (ع) الكفر بعينه[1].

النقـطة الثـامنـة:

الوضع الذي كان يعيشـه الإمام (ع) ـ مـع ملاحـظة طبيعة الأمـة في ذلك الوضع لم يكن ليوحي بالاعتقـاد بأن الإمـام عاجـز عن إمكان تحقيق النجـاح في عمليتـه التغييريـة دون اللجوء إلى حـل وسط. . لأن المفهـوم الفقهي (لقـانـون التزاحم) إنما يتحقق فيما إذا كان هناك توقف بالفعل وهو توقف الواجب الأهم على المقدمة المحرمة، فإذا توقف هذا الواجب الاهم، وتأكد انه لا يمكن التوصل إليه إلا عن طريق هذه المقدمة المحرمة، ولكن كل الظروف انـذاك لم تكن توحي او تؤدي إلى اليقين بمثل هذا التوقف.

وذلك لأن المؤامرة التي اضطلع بمسؤولية احباطها الإمام (ع) لم تكن قد نجحت بعد بل كانت الأمة في يوم قريب سابق عن يوم مصرع عثمان، كـانت قد عبرت تعبيراً معاكساً ومضاداً لواقع هذه المؤامرة ولمضمونها.

صحيح ان المؤامرة على وجود الأمة واصالتها تمتد بجذورها تأريخياً إلى امد طويل إلى أيام الجاهلية، لكن الأمة التي سهر عليها الرسول (ص) لكي يمنحها اصالتها وكرامتها وشخصيتها ووجودهـا الحضاري، نـرى حتى ان الرسـول (ص) نفسه الزم نفسه، وقد الزمه ربه في الكتاب الكريم بضرورة التشاور مع المسلميـن، وذلك من أجل تربيتهم نفسياً واعدادهم لتحمل مسؤولياتهم واشعارهم بأنهم الأمة الجديرة بتحمل مسؤوليات هذه الرسالة العظيمة التي انزلت رحمة للعالمين.

ولكن المؤامرة ومخططيها بدأوا يعملون بالتدريـج للقضاء على وجـود الأمة واصالتها وتحويل وجودها إلى سلطنةٍ وملك عضوض، حيث تمت مصادرة الوجود الإسلامي الاصيل للأمة، واعطي هذا الوجود للحاكم والسلطان. حيث نشاهد اول بذرة من بذور المؤامرة بذرت يـوم السقيفة، واعـطيت على شكل مفهـوم جاهلي

---

(١) راجع للاستزادة / من حياة أهل البيت / التسخيري/ص: ١٦٢ ـ ١٦٣ .

عندما قال قائلهم في اجتماع السقيفة متحدياً «من ينازعنا سلطان محمد».

وهذا هو أول شعار رفعتها المؤامرة، يوم قامت السقيفة، والسقيفة وان كانت بمظهرها الخارجي اعترافاً بوجود الأمة، وكانت الأمة تتشاور في أمر تعيينها للخليفة بعد رسول الله (ص) . . ولكن المفهوم الذي طرحته السقيفة، ونجح بعد ذلك وامتد بأثره في التأريخ الإسلامي، هذا المفهوم السقيفي، كان بحد ذاته ينكر وجود الأمة وينظر إلى النبوة على انها سلطان قريش» وهذه العشيرة هي التي يجب ان تحكم وتسود.

هذه النظرية السياسية للحكم التي تحدت وجود الأمة وانكرت على الأمة اصالتها ووجودها وشخصيتها، طرحت كمفهوم في اجتماع السقيفة، ثم امتدت بعدها واتسعت عملياً ونظرياً في التأريخ الإسلامي.

فقد كان الخليفة عمر بن الخطاب، يعمق هذا المفهوم في وسط الأمة، وذلك عندما سمع يوماً وهو يمر على جمع من المسلمين، وهم يتحلقون حلقاً حلقاً، يتحدثون في مستقبل الحكم بعد حياته، ويتساءلون من الذي يحكم المسلمين بعده؟ . . فالمسلمون في تطلعهم هذا كانوا يحملون همّ التجربة، وهمّ المجتمع والأمة، فهم يبحثون عن مستقبلهم بعد موت الخليفة عمر. وهذا اللون من التفكير. هو تعبير واضح عن حضور الأمة في الساحة السياسية. . ولكن الخليفة عمر اظهر انزعاجه وقلقه من هذا الحضور، لأنه يعرف ان وجود الأمة في الميدان معناه وجود علي (ع) . وجود خط المعارضة في الساحة، وكلما نمت الأمة وتأصل وجودها واكتسبت ارادتها ووعيها بدرجة اعمق. كلما كان علي (ع) المرشح الأقدر والاكفأ لممارسة التجربة السياسية.

ولهذا نرى للخليفة عمر يصعد المنبر ويخاطب المسلمين بقوله:

«مالي اسمع قوماً يقولون: من يحكم بعد امير المؤمنين؟ الا ان بيعة أبي بكر كانت فلته وفي الله المسلمين شرها».

والخليفة عمر أراد بقوله هذا ان يقول، بأن المسلمين لا يجوز، ان يعودوا مرة أخرى، إلى التفكير المستقلّ في انتخاب (خليفة) وإنما الخليفة يجب ان يعين

من أعلى ولكنه لم يجرأ في الافصاح عن رغبته ، ولكن في داخله وقرارة نفسه كان يرى ان الأمة يجب ان ترجع إليه وهو يعيّن لها الحاكم (الخلف)، دون ان يسمح للأمة ان تفكر في تعيين حاكمها، كما فكرت مثلاً عقيب وفاة رسول الله (ص) لأن ذلك كان فلته وشراً. . والأمة يجب ان لا تعود أو تكرر اخطاءها مرة أخرى.

إذا ما هو البديل الذي كان يراه عمر؟.

هذا البديل لم يبرزه عمر في زمانه، بل اسرّها في نفسه، ولكنه عبّر عن هذا البديل بكل صراحة، حينما اغتيل، وحينما طلب منه حاشيته المتملقون، ان يوصي بعده، والا يهمل أمة محمد (ص) بدون تعيين، وقد قال عمر حين طلب منه الناس الاستخلاف:

«لو أدركني أحد رجلين لجعلت هذا الأمر إليه، لوثقت به، سالم مولى أبي حذيفة، وأبي عبيدة الجراح، ولو كان حياً ما جعلتها شورى[1].

واضح من هذا النص «أن الخليفة لم يكن يفكر بعقلية نظام الشورى ، وانه كان يرى من حقه تعيين الخليفة وأن هذا التعيين يفرض على المسلمين الطاعة، ولهذا يأمرهم بالسمع والطاعة، فليس هو مجرد ترشيح أو تنبيه، بل هو الزام ونصب.

ولذا نرى ان عمر، يسند الأمر إلى ستة اشخاص ويوكل أمر التعيين إلى الستة انفسهم دون ان يجعل لسائر المسلمين أي دور حقيقي في الانتخاب.

والخليفة عمر بعمله هذا كان متحفظاً، لانه لم يعين واحداً بعينه، وإنما وضعها في ستة انفار، وكأنه يريد ان يوحي للأمة ، بأنه قد منحها درجة من المشاركة في اختيار خليفتها، وتعيين واحد من هؤلاء المرشحين للخلافة.

وهكذا نرى ان الخليفة عمر، أراد ان يمرر (رغبته) على الأمة بالتدريج وعلى مراحل متدرجة.

أما عبد الرحمن بن عوف، فقد كان قطب الرّحى في هؤلاء الستة، لم

---

(١) طبقات ابن سعد: ٢٤٨/٣.

يستطع، هو الآخر، في تلك المرحلة أن يطفىء دور الأمة، لم يستطع ان يحل المشكلة عن طريق التفاوض فيما بين هؤلاء الستة في اجتماع مغلق، وإنما ذهب يستشير المسلمين، بمرشحهم المفضل ـ من هؤلاء الستة ـ وراح يسألهم، من تريدون من هؤلاء الستة؟.

ويقول ابن عوف معقباً على نتائج استبيانه للأمة بقوله:

«ما سألت عربياً، إلا وكان علي بن أبي طالب مرشحه، إلا عشيرة واحدة كانت تريد عثمان بن عفان، لأنها كانت تعلم بأن مجيئه إلى الخلافة معناه تكريساً لعملية النهب، وتطميناً لمصالحها الذاتية».

وحينما جاء عثمان إلى الحكم، بمساعدة ـ اللعبة المعروفة التي اجاد أخراجها ابن عوف في استبعاد مرشح الجماهير الإمام علي (ع) ـ تكشفت المؤامرة، واسفرت عن وجهها الكالح، أكثر فأكثر حتى اصبحت العشيرة هي التي تحكم، تبعثر الأموال، وتعطل الحدود، وتجمدّ الاحكام، وتتلاعب بمقدرات الناس، حتى اصبح الفيء والسواد بستاناً لقريش، والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أمية.

وصار المسلمون لأول مرة، يسمعون ادعاءات بطانة الحكم العثماني، متحدّين مشاعر المسلمين «بأن المال مالنا، والخراج خراجنا، والأرض هي ملكنا ان شئنا اعطينا وان شئنا حرمنا الآخرين».

هذه الإدعاءات كانت تقال خارج نطاق، دستور الدولة.. اما في نطاق الدستور، كانت لا تزال الصيغة الإسلامية الصيغة المعتمدة التي تنص على:

«إن المال مال الله، والناس سواسية والمسلمون كلهم عبيد الله لا فرق بين قرشيهم، وعربيهم، واعجميتهم، أو بين مسلم وآخر».

هذه الصيغة الدستورية، استمرت حتى في عهد عثمان.. ولكن ولاته الأمويين بتغطرسهم وعجرفتهم وتهورهم، كانوا يترجمون الواقع السيء وينطقون به

والواقع هو غير الدستور المكتوب، الذي يعترف نظرياً بأن الأمة ، هي صاحبة الرأي وسيدة الموقف وان ارض السواد هي ملك لها . .

هكذا كان الأمر . . وهذا يعني ان عناصر المؤامرة المخطط لها لم تستكمل شروط نجاحها بعد، بالرغم من كل هذه المقدمات والارهاصات، النظرية والعملية.

فالأمة كانت بخير، تحتفظ بإصالتها ووجودها، هذه الأمة كانت تأتي إلى خليفتها عثمان بن عفان وتقول له: «لا نريد هذا الوالي، لأنه منحرف لا يطبق كتاب الله وسنة نبيه (ص). . ولم يكن يستطيع عثمان ان يجيب الأمة بصراحة، أو ان يمنحها من هذا الطلب أو ان يتحداها في إرادتها الصلبة، أو ان يرد عليهم بأنه ليس لكم هذا. . انا الخليفة وانا الحاكم المطلق وهذا الوالي يمثلني شخصياً. . لم يستطيع أن يقول كل هذا، بل كان يضطر إلى الاعتذار، ويقبل ويرجع ويناور مع الأمة. . نفس هذه الأمة عندما احست بتفاقم الخطر على وجودها وكرامتها، عبّرت تعبيراً ثورياً عن وجودها وكرامتها، فقتلت خليفتها لتتجه بعد مقتله إلى الإمام علي (ع) التي رأت فيه رمزاً ثورياً، يعبر من جديد عن وجودها وكرامتها المستباحتين. . استنجدت بالإمام (ع) لكي يقضي على كل إنحراف خرج به الحكام عن الدستور وعن الصيغة الإسلامية التي جاء بها القرآن للحياة.

فمن هنا كانت القضية لا تزال في بدايتها، تحتاج إلى الكثير لتمييع إرادتها، فالأمة ـ ولو بحسب مظهرها على أقل تقدير ـ كانت تحتفظ بروحها (القرآنية) روح صدر الإسلام، التي اندفعت بها لتقتل خليفتها (المنحرف) في سبيل ان تحتفظ بوجودها وكرامتها، وقد اتجهت صوب أملها الإمام علي (ع)، لأنها كانت ترى فيه الشخص الوحيد الذي يؤمل فيه ان يصفي عملية الانحراف عن كتاب الله وسنة نبيه (ص)

فالظروف والملابسات التي احاطت بالأمة انذاك، لم تكن لتؤدي إلى يأس، بل كانت تؤدي إلى أمل بقهر الانحراف.

وما حدث من خلال سني حكم الإمام (ع) الاربعة، كان يؤكد هذا الأمل، فالإمام (ع) استطاع ان يسيطر على الموقف بسهولة، ولولا مسألة التحكيم ولولا

شعاراً ـ ميكافيلياً ـ طرح من قبل معاوية (رفع المصاحف) ينعكس بشكل خـاطيء لدى جماعة معينة من جيش الإمام (ع) وتشق صفوفه. . ولولا هذا لكان بينه وبين معاوية وتصفيته إلى الأبد بضعة امتار وقليل من الزمن! .

وبعد ان ادركنا كل هذه الحقائق، نرى أن امل الأمة واعتقادها في ان علياً (ع) يمكنه ان يحقق الهدف ويعيد للأمة وجودها وكرامتها، من دون حاجـة إلى المساومات وانصاف الحلول، يكون أمـل الأمة هذا املاً معقولاً وراجحاً. . ومن هنا كانت نظرية الإمام (ع) بأنه لم يكن هناك أي مجوز يقوده لمزالق المساومات وانصاف الحلول. . .

وهكذا كان (ع) وظل إمامنا العظيم صامداً مـواجهاً لكـل المؤامرات التي كانت الأمة المغفلة تساهم في صنعها وحيـاكتها على أسـاس جهلها وعـدم وعيها وشعورها بالدور الحقيقي الذي يمارسه الإمام (ع) في سبيل حماية وجودهـا من الضياع وحفظ كرامتها من ان تتحول إلى سلعة يساوم عليها بالبيـع والشراء، حتى خرّ صريعاً في مسجده، وخاب باستشهاده الأمل الذي اعتمل في نفوس الواعين. . وانتهى آخـر امل حقيقي في قهـرّ الانحراف وقـدّر للمؤامـرة ان تنضـج وأن تؤتي مفعولها في التأريخ الإسلامي .

وان نجاح المؤامرة في فهم الإمام علي (ع) لم يكن يعني القاء السـلاح، بل يتحدث إلى ولديه ليقول لهما «نعم يـا ولديّ لقـد نجحت المؤامرة بـاغتيالي، ولهـذا سوف تشـردون وتقتلون انتم وشيعتكم. . ولكن هـذا يجب ان لا يفتّ في عضدكم، لأن المعركة لم تنتهي بعد يجب ان تقاوم حتى تقتل مسموماً، ويجب ان يقاوم اخوك الحسين حتى يقتل بالسيف، ولابد ان يستمر الخط، حتى بعد ان سرق من الأمة وجودهـا، لأن محاولـة استرجـاع الوجـود إذا بقيت حية في اذهـان الأمة فسوف يبقى نفس الجهاد فيها، ويبقى هناك ما يحصن الأمة ضـد التميع وفقـدان الإرادة. . لأن الأمة حينما تتنـازل عن إرادتها وشخصيتهـا للطاغوت حينئـذ تكون عرضة للتميع والذوبان في اتون هذا الطاغية وذلك الجبار. . . ولكن إذا بقي لدى الأمة محاولة استرجاع هذا الوجود باستمرار ، فهناك أمل في ان تتمكن الأمـة من استـرجاع وجـودها، وعلى اقـل تقديـر، سوف تحقق هـذه المحـاولـة كسبـاً آنيـاً

باستمرار، وهو تحصين الأمة ضد التميع والذوبان المطلق في إرادة وإطار الحاكم الطاغية.. وهذا ما وقع لأهل البيت (ع).

«وفي نصف القرن الأول بعد وفاة النبي (ص) كانت القيادة الشعبية ـ بعد اقصائها عن الحكم ـ تحاول باستمرار استرجاع الحكم بالطرق التي تؤمن بها، لأنها كانت تؤمن بوجود قواعد شعبية واعية أو في طريق التوعية من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان ولكن بعد نصف قرن ـ وبعد ان لم يبق من هذه القواعد الشعبية الشيء المذكور ونشأت اجيال مائعة في ظل الانحراف ـ لم يعد تسلم الحركة الشعبية بقيادة أهل البيت (ع) للسلطة محققاً للهدف الكبير لعدم وجود القواعد الشعبية المساندة بوعي وتضحية.

وأمام هذا الواقع كان لابد من عملين: ـ

أحدهما: العمل من أجل بناء هذه القواعد الشعبية الواعية التي تهيء أرضية صالحة لتسلم السلطة.

والآخرة: تحويل ضمير الأمة الإسلامية وإرادتها، والاحتفاظ بالضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية بدرجة من الحياة والصلابة تحصن الأمة ضد التنازل المطلق عن شخصيتها وكرامتها للحكام المنحرفين.

والعمل الأول، هو الذي الذي مارسه الأئمة (ع) بأنفسهم والعمل الثاني، هو الذي مارسه ثائرون علويون، كانوا يحاولون بتضحياتهم الباسلة أن يحافظوا على الضمير الإسلامي والإرادة الإسلامية، وكان الائمة (ع) يسندون المخلصين منهم»[1].

شهادة الإمام علي (ع) في الميزان:

وباستشهاد الإمام (ع) قضت قوى الردة على آخر أمل في إعادة خط التجربة الصحيحة، ذلك الأمل الذي اختلج في نفوس المسلمين الواعين متجسداً بإمامهم العظيم (ع)، الذي عاش منذ اللحظة الاولى من تسلمه لزمام الخلافة

---

(١) بحث حول الولاية/الشهيد الصدر/ص: ٩٤ـ ٩٥.

هموم الدعوة وآلامها وشارك في بنائها لبنة لبنة، وأقام صرحها مع الرسول (ص)، ورافقه معه كل مراحل الدعوة بكل مشاكلها وهمومها وآلامها.

ولهذا كانت حادثة اغتياله الغادر، تقويضاً حقيقياً لآخر أمل حقيقي لقيام مجتمع اسلامي صحيح.

فقد خرّ الإمام (ع) صريعاً مضرجاً بدماء الشهادة الطاهرة وهو في محراب الصلاة، فقال: فزت ورب الكعبة!

لنضع علياً في الميزان وهو في آخر لحظة من لحظات حياته (ع) حينما صرخ: فزت ورب الكعبة.. هل كان (ع) اسعد انسان أو كان اتعس انسان؟.

لكي نجيب على هذا السؤال، هناك مقياسان في هذا المجال، فتارة نقيس الإمام (ع) بمقياس مادي (دنيوي) صرف وآخر نقيس الإمام بمقياس - قرآني - الهي.

فلو كان الإمام (ع) قد عمل للدنيا ولزعامته الدنيوية، فهو ولا شك اتعس انسان، وليس هناك اتعس حظاً منه، لأنه (ع) بنى كل ما بنى، وأقام كل ما أقام من صرح، حيث شارك رسول الله (ص) في بنائها لبنة لبنة، ورافقه في كل مراحل الدعوة للإسلام، ثم يحرم (ع) من كل هذا الجهد والبناء، ومن كل هذه الصروح؟. هذا الإسلام الشامخ العظيم الذي امتد شرقاً وغرباً بني بدم علي (ع) وبخفقات قلبه وآلامه، لقد كان (ع) شريك البناء بكل محنه وكوارثه ومآسيه...

أيّ لحظة محرجة وجدت بتاريخ هذا البناء، لم يكن عليّ (ع) حاضراً. فيها وهو القائد الشجاع الذي تتجه إليه انظار المسلمين جميعاً، من أجل ان ينقذ عملية البناء، ولم لا، وهو الإمام الحق الذي خبرته الجماهير في تضحياته من أجل الإسلام، حيث لم يتردد أن يضع دمه على كفه في كل غزوة ومعركة، وكل تصعيد جديد لهذا العمل الإسلامي العظيم.

وقد كان لجهاد علي (ع) الأثر الكبير لقيام دولة مترامية الأطراف، حيث اتسعت دولة الإسلام بسيفه وأرسيت دعائمها بدمه الطاهر الشريف.

ولكن ماذا استفاد علي (ع) من كـل هذه الجهـود والتضحيات المضنيـة، بمقاييس (الدنيـا)؟ ماذا حصّـل إمامنـا من كل هـذه التضحيات والبـطولات، غير الحرمان والاقصاء عن حقه الطبيعي - وإذا أردنا ان نقطع النظر عن تعيين الله تعالى له وحيث النصوص المتدفقة في إمامته، فإن حقه الطبيعي ، ان يحكم بعد مـوت النبي (ص) لأنه الشخص الثاني عطاء للدعوة وتضحية في سبيلها. . ولكنه اقصي من حقه الطبيعي والشرعي(بمؤامرة السقيفة) وقاس الوان الحرمان، وانكرت عليه كل امتيازاته، حتى أن معاوية بن أبي سفيان يقول محدثاً محمد بن أبي بكـر عن علي (ع):

«بأنه كالنجم في السماء ايام رسول الله (ص) ولكن اباك والفاروق ابتزا حقه وأخذا أمره، وبعد هذا نحن شعرنا أن بإمكاننا ان ندخل في ميدان المساومة مع هذا الرجل».

فعلي (ع) حينما واجهه عبد الرحمن بن ملجم بتلك الضربة القـاتلة على رأسه كان ماضيه ماضي حرمان وألم وخسارة لم يكن قد حصل على شيء منه. . ولكن الذين حصلوا على المكاسب هم اولئك الذين لم يساهموا في بنائه (كمعاو مثلاً) والذين كانوا على استعداد دائم للتنازل عن مستوى هذا البناء في أية لحظة من اللحظات. . أما علي (ع) فلم يفكر ان ينهزم لحظة أو أن يتلكأ في أي آن، ولم يتلعثـم في قـول أو عمل. ولكنـه يحرم من هـذا البناء ولم يحصـل على اي مكسب منه.

ما أتعس إمامنا بمقياس (الدنيا) فهو الذي بنى وغيّر الدنيا بعمله، ثم يمنع من ثمار هذا التغيير!

هذا هو ماضي الامام (ع). . فماذا عن مستقبله؟ لننظر إلى المستقبل الذي كان (ع) ينظره بعين الغيب، كان يرى أن عدوه اللدود سوف يطأ منبره ومسجـده وينتهك كل الحرمات والكرامات التي ضحى وجاهد في سبيلها. . كان يرى عدوه يستقل هذه المنـابر التي شيـدت بجهاده ودمـه، يستغلها في لعنـه وسبه عشـرات السنين، وهو القائل (ع) لبعض خواصه من الصحابة:

«إنه سوف يعرض عليكم سبي ولعني والبراءة مني، اما السب فسبوني، واما البراءة مني فلا تبرؤوا».

كان الامام (ع) يرنو بعين الغيب الى المستقبل، ولم يكن يرى في افق المستقبل نوعاً من التكذيب، يتدارك به هذا الحرمان.. وبالرغم من هذا كله، كان يهتف فرحاً لحظة استشهاده: فزت ورب الكعبة، وقد أدرك انها اللحظة الأخيرة من حياته، وأنه انتهى خط جهاده وهو في قمة هذا الجهاد، وانتهى خط محنته وهو في قمة صلاته وعبادته بين يدي الله، قال: فزت ورب الكعبة، لأنه لم يكن انسان الدنيا.. ولو كان كذلك، لكان أتعس انسان على الاطلاق، لكان قلبه يتفجر ويتمزق ألماً وحسرة.. ولو كان انسان الدنيا، لندم ندماً لا ينفع معه شيء لأنه بنى صرحاً شاهقاً، ثم انقلب عليه ليحطمه.

ومع كل هذا هتف «فزت ورب الكعبة».. لأنه كان اسعد انسان، ولم يكن اشقى انسان، لأنه عاش من أجل اهداف نبيلة ولم يكن يعيش للدنيا الفانية، عاش لأهدافه ولم يعيش لمكاسبه، ولم يتردد لحظة وهو في قمة هذه المآسي والمحن في صحة ماضيه وحاضره وانه أدى دوره الذي كان يجب عليه.

وهنا تكمن العبرة.. لأننا يجب ان نستشعر دائماً ان السعادة والفوز في عمل العامل لا تتبع من المكاسب التي تعود نتائجها لهذا العمل.. لا يمكن تقييم سعادة العامل على هذا الاساس، لأننا لو قيمناه على هذا الأساس، فقد يكون حظنا كحظ هذا الامام المسكين الذي بنى صرح الاسلام ووجه امة، ثم بعد هذا انقلبت عليه هذه الأمة لتلعنه على المنابر ألف شهر!

وعليه لا يمكن ان نجعل مقياس سعادة العامل في عمله، المكاسب والفوائد العاجلة التي تنجم عن هذا العمل وانما المقياس الحقيقي لتقييم العمل هو، رضى الله سبحانه وتعالى.

وحينئذ سوف نكون سعداء، سواء أثر عملنا أو لم يؤثر وسواء قدّر الناس عملنا ام لم يقدّروا، وسواء ان رمونا باللعن والحجارة.. نحن سعداء لأننا أدينا الواجب وتلك هي السعادة الحقيقية.

هنيئاً لك أيها الإمام المعلم العظيم وسلام عليك يوم ولدت ويوم تبعث حياً.

الفصل الرابع

- ١ -

تمهيد

تعريف بشخصية الامام ونشأته:

هو الحسن بن علي بن أبي طالب.

ولد في اليوم الخامس عشر من شهر رمضان المبارك للسنة الثالثة للهجرة، بالمدينة المنورة، عاش سبع وأربعون سنة، وتوفي في السابع من شهر صفر، وعلى رواية اخرى الخامس والعشرين من ربيع الأول، من السنة، التاسعة والاربعون للهجرة، وقيل خمسين للهجرة متأثراً بالسم الذي دسته له زوجته - جعدة بنت الأشعث بأمر من معاوية دفن في المدينة المنورة.

أمه: فاطمة الزهراء (ع) بنت الرسول (ص)

وقد عاصر الإمام الحسن (ع) جده الرسول (ص) سبع سنين وهي السنين الأولى من حياته، وانتقل بعدها لأبيه علي (ع).

وكان جده النبي (ص) يؤكد على الناس في كل مناسبة أن يحفظوه فيه، وفي اخيه الحسين (ع)، ويقول مشيراً اليهما:

«هذان امامان قاما او قعدا اللهم اني أحبهما فأحبهما، وأحب من يحبهما»[1].

---

(١) سيرة الأئمة الاثنى عشر/ القسم الاول / هاشم معروف الحسني، ص: ٥١١، ٥٢٧.

مكانته (ع) من خلال الكتاب والسنة:

١ ـ الكتاب: آية المودة «قل لا أسألكم عليه اجراً الا المودة في القربى» الشورى ٢٣، اجمع المفسرون، ان الآية نزلت في علي، وفاطمة، والحسن، والحسين (ع)[٢].

٢ ـ السنة:

أ ـ روى البخاري ومسلم عن البراء قال: رأيت رسول الله (ص) والحسن على عاتقه وهو يقول «اللهم إني أحبه فأحبه».

ب ـ وروى الترمذي عن ابن عباس انه قال: كان رسول الله (ص) حاملاً الحسن (ع)، فقال رجل نعم المركب ركبت يا غلام، فقال (ص): نعم الراكب هو وقال فيه «ان هذا ريحانتي».

جـ ـ عن جابر بن عبدالله قال: قال رسول الله (ص): «من سره ان ينظر الى سيد شباب أهل الجنة، فلينظر الى الحسن بن علي».

وقال: «حسن مني وأنا منه، أحب الله من أحبه» والحسن (ع) هو سيد شباب أهل الجنة باجماع المحدثين، وأحد اثنين انحصرت بهما ذرية رسول الله (ص) وأحد الأربعة الذين باهى بهم رسول الله نصارى نجران، ومن أصحاب الطهر «الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً». ومن القربى الذين أمر الله عودتهم وجعلها أجراً لرسالته «قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة في القربى». وأحد الثقلين اللذين من تمسك بهما نجا ومن تخلف عنهما ضل وغوى، ومن أهل البيت الذين شبههم الله بسفينة نوح وقال فيه الرسول (ص) وفي أخيه الحسين عشرات المرات:

«هذا ريحنتاي من الدنيا من أحبني فليحبهما ومن أبغضهما أبغضني.

---

(١) ذخائر العقبى / الطبري، ص: ٢٥! ومسدد احمد بن حنبل وتفسير الثعلبي وتفسير الطبرسي.

(٢) راجع آية التطهير وآية المباهلة ص٦٢ ـ ٦٣ من هذا الكتاب.

ومن ابغضني أبغضه الله وأدخله النار، وأنهما سيدا شباب أهل الجنة، وان أباهما خيّر منهما»[1].

د ـ وعن الغـزالي في الاحياء، جـاء أن النبي (ص) قـال: للحسن أشبهت خلقي وخلقي»[2].

شخصية الامام الاخلاقية:

تروى كتب السيرة: أنه (ع) مرّ على جماعة من الفقراء قد وضعوا على وجه الأرض كسيرات من الخبز كانوا قد التقطوها من الطريق وهم يـأكلون منها فـدعوه لمشاركتهم في أكلها فأجاب دعوتهم قائلاً:

«ان الله لا يحب المتكبرين»، ولما فرغ من مشاركتهم دعاهم لضيافته، فأجزل عليهم المال، وأطعمهم وكساهم.

وروي عنه (ع) مرّ على صبيـة يتناولـون طعامـاً فدعـوه لمشاركتهم فـأجاب الدعوة ثم دعاهم إلى داره وأجزل لهم العطاء.

أخلاقه مع معارضيه:

روي أن شـامياً ممن غـذّوا بالحقـد على آل البيت (ع) رأى الإمام راكبـاً، فجعل يلعنه والحسن لا يرد عليه، فلما فرغ الرجل أقبـل عليه الحسن ضـاحكاً، وقال: «ايها الشيخ اظنك غريباً ولعلك شبهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنـا أعطيناك، ولو استرشدتنا ارشـدناك وان كنت جـائعاً أشبعنـاك، وان كنت محتاجـاً أغنيناك وان كنت طريداً آويناك.. الخ».

فلما سمع الرجل كلامه بكى ثم قال:

«اشهد انك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعـل رسالتـه كنت

---

(١) راجع سيرة الأئمة الأثني عشر / الحسني/ص: ٥١٤.

(٢) الفصول المهمة / ابـن الصباغ المالكي واعلام الورى/ للطابرسي.

انت وأبـــوك أبغض خلق الله اليّ، والآن أنت وأبـــوك احب خـلق الله إليّ»[1].

سخاؤه:

سئل مرة (ع): لأي شيء لا نراك ترد سائلاً؟ قال (ع):

«إني لله سائل وفيه راغب وأنا استحي ان أكون سائلاً وأرد سائلاً وان الله عودني عادة أن يفيض نعمـة عليّ وعودتـه ان أفيض نعمة على النـاس فأخشى ان قطعت العادة أن يمنعني العادة»[2].

- ٤ -

الحسن (ع) في عهد الخلفاء:

لم يحدثنا التأريخ بشيء، عن حياة الامام (ع) في عهد الخليفة أبي بكر، لأنه لم يتجاوز سن الطفولة، فقد كان في سن العاشرة من عمره يوم توفي أبو بكر.

وأما في عهد الخليفة عمر بن الخطاب وبعد بلوغه العشرين من عمره، وهو سن يخوله الاشتراك في الحروب والغزوات، انظم (ع) الى جنود المسلمين الذين اتجهوا إلى افريقيا بقيادة عبدالله بن نافع وأخيه عقبة[3] في جيش بلغ عشرة آلاف مجاهد، وتطلع المسلمون إلى النصر والفتح متفائلين بوجود حفيد الرسول وحبيبه يجاهد معهم.

«وجاء في الفتوحات الاسلامية، وغيرها من المصادر، ان سعيد بن العاص غزا طبرستان سنة ثلاثين من الهجرة، وكان الأجيد، قد صالـح سويـد بن مقرن، على مال بذله في عهد عمر بن الخطاب، وفي عهد عثمان بن عفـان، جهز اليهم جيشاً بقيادة سعيد بن العاص كان فيه الحسن والحسين وعبدالله بن العباس وغيرهم من المهاجرين والانصار وتم لهم الاستيلاء على تلك المناطق والتغلب عليها»[4].

---

(١) سيرة الائمة/ الحسني/ص :٥١٨.

(٢) أهـل البيت / توفيق أبو علم.

(٣) كتاب العبر / ابن خلدون نقلاً عن سيرة الائمة الحسني ص: ٥٣٥.

(٤) تاريخ الأمم والملوك /ج٥/ص:٥٧، والمجلد (١) من الفتوحات الاسلامية/ص: ١٧٥.

وهناك العديد من المرويات التي تؤكد بأن الحسن والحسين قد اشتركا في كثير من الفتوحات الاسلامية، وكان لهما دور بارز في سير تلك المعارك.

أما في عهد أبيه، فقد اشترك في جميع حروبه في البصرة والنهروان، مقاتلاً الناكثين والقاسطين والمارقين. ولكن اباه كان شديد الحرص عليه وعلى أخيه الحسين فلم يسمح لهما بمواصلة القتال، مخافة ان يصيبهما سوء فتنقطع بقتلهما ذرية رسول الله (ص)، وكان يقول (ع) عنهما:

«انهما عيناي، ومحمد بن الحنفية ساعدي ويدي والمرء يدفع عن عينيه بيديه وساعديه»[1].

وقد تميز دور الإمام (ع) في عهد أبيه بالخضوع التام لأبيه قدوة واماماً مفترض الطاعة، وتجلى دوره في تجسيد مفهوم الانقياد لامامة أبيه (ع) فعندما تعرض معسكر الامام علي (ع) الى العدوان بتمرد طلحة والزبير في البصرة وحركة المنشقين البغاة بقيادية معاوية في الشام، نرى ان الامام (ع) يرسل على الفور نجله الحسن (ع) برفقة عمار بن ياسر إلى الكوفة وذلك بسبب تخاذل أبو موسى الأشعري، وتحريضه جماهير الكوفة على القعود عن نصرة الامام علي (ع)، وما ان وصل الحسن (ع) الكوفة، الا واحتشدت عليه الجماهير معلنة ولاءها ونصرتها فألقى فيهم خطاباً أيقظ فيهم الهمم وحفز نفوسهم على مواصلة حمل راية الجهاد»[2].

وكذلك انتدب الإمام الحسن من قبل أبيه بعد مهزلة التحكيم التي انتهت بخذلان أبي موسى الأشعري للإمام علي (ع) حيث سار الاضطراب في معسكر الإمام (ع) فقرر الإمام علي ان يشرح للقوم حقيقة الموقف، وقد اسند مهمة ذلك للحسن فقام (ع) خطيباً ليبين حقيقة الموقف: ـ

«أيها الناس قد اكثرتم في هذين الرجلين (عبدالله بن القيس) (أبو

---

(١) شرح نهج البلاغة /ج٣ ص: ٩ نقلاً عن الحسني/ج١ ص: ٢٨٣.
(٢) حياة الإمام الحسن/القرشي ج١/ص: ٣٨٧.

موسى الاشعري)، وعمر بن العاص، إنما بعثا ليحكما بالكتاب على الهدى، فحكما بالهوى على الكتاب، ومن كان هكذا لم يسمّ ولكنه محكوم عليه، وقد اخطأ (الأشعري) إذ جعلها لعبدالله بن عمر، فأخطأ في ثلاث خصال: واحدة، انه خالف أباه إذ لم يرضه لها، ولا جعله في أهل الشورى، وآخرى انه لم يستأمره في نفسه وثالثها: انه لم يجتمع عليه المهاجرون والانصار الذين يعتقدون الإمارة ويحكمون بها على الناس، وأما الحكومة فقد حكم النبي (ص) سعد بن معاذ فحكم بما يرضي الله به ولا شك لو خالف لم يرضه رسول الله (ص)[١].

لقد اشترك الإمام الحسن مع أبيه في حياته السياسية والعسكرية وكان بجانبه في كل حروبه وكان له دور حاسم فيها، حيث خاض تلك المعارك وأخمد تلك الفتن مجرداً من كل دافع سوى دافع الحرص على نقاء الإسلام.

- ٥ -

الإمام الحسن بعد استشهاد أبيه:

قبل استشهاد الإمام علي (ع)، وفي أيام جرحه اوصى الإمام الراحل إلى ولده الحسن (ع): قائلاً له:

«يا بني أنه امرني رسول الله (ص) أن أوصي إليك وأدفع إليك كتبي وسلاحي، كما أوصى إليّ ودفع إليّ كتبه وسلاحه وأمرني أن آمرك إذا حضرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين.. الخ»[٢]

وبعد ان أمر الحسن (ع) بقتل «ابن ملجم» وبعد الفراغ من أمره، والانتهاء من مراسم دفن الإمام الراحل (ع).. اتجه الإمام الحسن (ع) لتوه في صبيحة

---

(١) حياة الإمام الحسن/القرشي/ص: ٤٧٩.

(٢) اعلام الورى/للطبرسي ص: ٢٠٦، وكشف الغمة في معرفة الأئمة ج٢/ص: ١٥٥ والبحار جـ ٤٢/ص: ٢٥٠.

ذلك اليوم إلى مسجد الكوفة، وقد سبقته الجماهير في حشود هائلة إلى الجامع، وهي تعيش صدمة هول المصاب، باستشهاد قائدها وإمامها الإمام علي (ع) وقد غص بهم الجامع على سعته فوقف الحسن (ع) خطيباً، وحوله من بقي من وجوه المهاجرين والانصار، وهو يوجه أول بيان له بعد رحيل القائد العظيم (ع) مؤبناً أباه ومعرفاً بنفسه للجماهير قائلاً:

«لقد قبض في هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولم يدركه الآخرون بعمل، لقد كان يجاهد مع رسول الله (ص) فيقيه بنفسه واينما وجهه رسول الله كان جبرائيل عن يمينه، وميكائيل عن يساره فلا يرجع حتى يفتح الله عليه». ثم تمثل له أبوه وما عاناه في حياته من الآلام والمتاعب، ليتوقف عن الاسترسال بخطبته حتى بكى وبكى معه الناس.

ثم استأنف بيانه معرفاً بنفسه وطارحاً مواصفات القائد الراحل كما طرح مؤهلاته هو ومكانته في دنيا الاسلام والمسلمين وكونه الاولى بقيادة المسلمين، قائلاً: -

«أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا الحسن بن علي وانا ابن النبي والوصي وانا ابن البشير النذير والداعي إلى الله بإذنه وانا ابن السراج المنير، وانا من أهل البيت الذين كان جبريل ينزل الينا ويصعد من عندنا، وانا من اهل البيت الذين اذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وافترض مودتهم على كل مسلم»[1].

وبعد الفراغ من قراءة بيانه نهض ابن عباس يطلب من الناس البيعة للحسن (ع) بقوله «معاشر الناس، هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم فبايعوه».

وقد تمت البيعة للحسن (ع) خليفة واميراً للمؤمنين في الكوفة وفي امصار

---

(١) سيرة الائمة/الحسني ج١/ص: ٥٢٦، وحياة الإمام الحسن/القرشي جـ٢ ص: ٣٢.

آخرى كالحجاز واليمن وفارس، وسائر المناطق الإسلامية الأخرى، وكان اول متقدم لمبايعة الإمام هو قيس بن سعد بن عبادة الانصاري»[1].

رد فعل معاوية على بيعة الإمام الحسن (ع) : -

أول رد فعل أظهره معاوية بعد وفاة الإمام علي (ع) شماتته بوفاته (ع) واحتفال عاصمته، وإظهار الفرح والبهجة بهذا الحدث الجلل. . وقد اغتاض معاوية لبيعة الإمام الحسن (ع) فطلب اجتماعاً موسعاً، ضم كل مستشاريه وقادته في مؤتمر طارىء لرسم خطوط سياسته الجديدة التي يريد من خلالها مواجهة الإمام الحسن (ع).

فقد جاء في شرح النهج، ومقاتل الطالبيين وغيرهما من المصادر التاريخية، ان معاوية ومستشاريه قرروا بمؤتمرهم هذا، بث شبكة من الجواسيس والعملاء داخل مجتمع الإمام (ع) لبث الارهاب - وإشاعة الدعايات والاخبار الكاذبة ضد حكم الإمام ولصالح الفتنة في الشام، ومحاولة كسب الزعامات والوجوه الاجتماعية المؤثرة في سير الاحداث في العراق، وذلك من خلال ارشائها واغرائها بالوعود وإلى غير ذلك من الاساليب الدنيئة.

وتحرك معاوية فوراً ليضع قراراته موضع التنفيذ وارسل للغرض نفسه رجلين احدهما (حميري) ارسله للكوفة وآخر (قيني) ارسله للبصرة فاخذا وقتلا[2].

ولكن الإمام الحسن (ع) سرعان ما اظهر رد فعله باكتشاف خبث نوايا معاوية وأرسل له كتاباً يتوعده ويهدده باعلان الحرب ، قائلاً له : -

«أما بعد فإنك دسست إليّ الرجال، كأنك تحب اللقاء لا أشك في ذلك، فتوقّعه ان شاء الله، وبلغني انك شمتّ بما لم يشمت به ذووي الحجى»[3].

---

(١) ن. م/ص: ٥٥٧.

(٢) الفصول الهمة/لابن الصباغ المالكي ص: ١٣٥ نقلاً عن الحسني ص: ٥٥٧.

(٣) الفصول المهمة /لابن الصباغ المالكي ص: ١٣٥ نقلاً عن الحسني ص: ٥٥٨.

واعقبها معاوية برسالة جوابية، مراوغاً فيها، نافياً شماتته بموت الإمام علي (ع) وبعدها تبودلت رسائل كثيرة بينهما . . وكان اهمها كتاب الإمام لمعاوية بوجوب التخلي عن انفصاله وضرورة اعلان ولاءه للحكم الشرعي . . ولكن معاوية أبى الاستجابة لنداء الإمام، ومن ثم تصاعد الموقف بعدها ووصل الحال بمعاوية ان يكتب رسالة للإمام يطلب منه بيكل صلف ووقاحة ان يتنازل عن الحكم وينضوي تحت حكمه على ان تكون الخلافة له من بعده غير ان الإمام (ع) أجابه بكتاب مختصر يحمل روح الاصرار والحزم قائلاً له : ـ

«أما بعد فقد وصل كتابك تذكر فيها ما ذكرت وتركت جوابك . . وبالله اعوذ من ذلك . . فاتّبع الحق تعلم اني من اهله وعليَّ أثم ان أقول فأكذب . . والسلام» .

وبعد هذه الرسالة قرر الإمام عدم مراسلته بشيء، حتى أعلن معاوية من جانبه الحرب وبادر الحسن (ع) إلى اعلان حالة الدفاع لمواجهة العدو الزاحف .

ـ ٦ ـ

الإمام وظروف استلامه الحكم :

تمهيد :

تولى الإمام الحسن (ع) مسؤولية الخلافة في مناخ قلق غير مستقر وفي ظروف الشك والتعقيد التي برزت في آواخر حياة ابيه علي (ع) وذلك على شكل بذور ـ شك ـ في تجربته السياسية التي تزعم قيادتها في إعادة كامل الصيغة الإسلامية للحياة، حيث اخذت ظاهرة الشك بالتجذر والتوسع في عهد الإمام الحسن (ع).

وقد سبق لنا القول في فصل الإمام علي (ع). بأن ظاهرة الشك بالقائد ونظريته واطروحته التي كافح من أجلها المنحرفين والقاسطين والناكثين، لم يكن شكاً حقيقياً واقعياً بل كان شكاً ذاتياً مصطنعاً ـ خلقتها ظروف الحرب النفسية الطويلة القاسية والحرب الاسلامية ـ الإسلامية (الباغية)، ولن تكن اطلاقاً (ظاهرة

الشك) نتاجاً لسيرة الإمام (ع) بل جاء الشك تبريراً مستوحاً من ارهاق قاعدة الإمام وقصر نفسها في مواصلة خط الجهاد المضني الطويل.

والذي نريد أن نلقي الضوء عليه الآن، هو ان هذا الشك تفاقم وتصاعد (بحكم ظروف الإمام الحسن الجديدة والتي سيمر ذكرها)، من شك بسيط ـ ذي دوائر بسيطة (سلبية) إلى شك واسع ذي دوائر متنامية (إيجابية).. كان شكاً (سلبياً بسيطاً) انعكس في زمن الإمام علي على مستوى التخاذل والتميع، والتثاقل لنداء الجهاد، والتلكؤ في تلبية الأوامر العسكرية للإمام (ع).. بينما نرى هذا الشك يأخذ. مدى اوسع ينعكس انعكاساً (إيجابياً متنامياً) ليشمل قطاعات عريضة من المجتمع، وتشتد حالتها بالتدريج وتمتد إلى قواعده الشعبية ، التي كان يفترض بها ان تساهم في مواصلة العمل والجهاد لدعم التجربة السياسية التي يقودها الإمام الحسن (ع).

ونود بعد هذا التمهيد أن نناقش ونحلل بشكل اعمق ظاهرة الشك واسباب تناميها في مجتمع الإمام، بأن نتتبع بداياتها الأولية في عهد الإمام علي، حيث اكتسبت مضمونها ومحتواها من موقف الإمام من معاوية في معركة الإسلام مع مع الجاهلية المقنعة (بإسلام السقيفة) ـ حيث ان معركة الإمام (ع) مع معاوية كانت معركة الصيغة الإسلامية الكاملة للحياة مع منهج الجاهلية واطروحتها الكسروية والهرقلية للحياة، هذه الجاهلية التي لم تكن تؤمن يوماً بالنبوة وبافكار الإسلام في الحياة، إيماناً حقيقياً بل خضعت لسلطان الإسلام، بعد ان أكمل سيطرته التامة على مقاليد كسرى وقيصر، واصبحوا بإزاء حكم الإسلام أمام الأمر الواقع، فكانت مبادرتها إلى تعديل موقفها فبدلاً من ان ترفض الإسلام وتنكره ككل بدأت تتآمر وتحاول ان تنكره على المبدأ القائل «خطوة إلى الوراء من أجل خطوتين إلى الأمام» فانكرت بعضاً أو جزءاً منه وخصوصاً تلك الاجزاء التي تتعارض صراحة مع واقع مصالحها السياسية ومكاسبها الاجتماعية، تمهيد للقضاء على الإسلام.

هذه المعركة كان يدرك خطورة أبعادها الإمام (ع) وقد اعطاها كل وجوده ومشاعره، ولم يكتف (ع) بالقول والشعارات، بل عاش المعركة بكل سلوكه

وعمله المتواصل موعياً قواعده الشعبية على أهداف وطبيعة المعركة، ليجعلهم مواكبين لأهداف الإسلام في مسيرته المظفرة.

وقد أكد الإمام علي (ع) إهتمامه على شعب العراق، لأنه كان حديث العهد بالإسلام، ولم يكن قد عاش الكثير من أيام الإسلام الاولى (أيام الوحي)، حيث نجح الإمام علي في كسب قواعده ـ بدرجة ما ـ إلى قناعاته، ولكن سرعان ما أخذت هذه القناعة (المترئبقة) بالتميع والنزول، وذلك بظهور حالة الشك التي ترافقت مع صراع الإمام علي ومعاوية، حيث ثم تصوير هذا الصراع في نظر الأمة على أنه صراع بين شخصين أو اتجاهين متحاربين قبل الإسلام، واستئنفا صراعهما وخلافاتهما بعد الإسلام، وما هي ـ في نظرهم ـ إلا استمرار لذلك الاتجاه التأريخي من الصراع، وهي نتاج لعلاقة تاريخية متأخرة بين قبيلتي بني هاشم وبني أمية.

هذه الحالة من الشك (الذاتي) ـ الذي كان سببه انقطاع نفس خط الجهاد عند اصحاب الإمام علي (ع) ورغبتهم الجامحة لايقاف النزيف وموادعتهم وحبهم ورغبتهم في حياة السلامة والدعة ـ بدأت تستفحل وتشتد ـ كما وكيفا، بعد عهد الإمام علي، وباستسلام الحسن (ع) لمسؤولية الحكم، وذلك بتأثير عوامل عديدة نذكر منها ما يلي :ـ

صـراع بيـن كيانيّـن:

اولاً : عندما تسلم الحسن (ع) مقاليد الحكم، تسلمها وهناك كيان سياسي (منشق) قائم وحاكم في جزء من العالم الإسلامي، متمثلاً بحكم معاوية في الشام، وقد اكتسب هذا الكيان (المنشق) في نظر كثير من أهل الشام، وحاكمها معاوية بن أبي سفيان شرعية الخلافة على أثر حادثة التحكيم المشهورة في معركة صفين، ومن هذه الواقعة بالذات رأينا ان معاوية أخذ يسلك ويعيش مع قاعدته كما يعيش الخليفة مع رعيته.

وعندما خلت الساحة السياسية من الإمام، وجاء ابنه الحسن (ع) بعده، كان احساس العامة من الناس بضرورة ملىء الفراغ السياسي، وكانوا أمام خيارين:

أما الشروع ببناء كيان سياسي جديد، أو الالتحاق بهذا الكيان القائم.

هذا الاحساس أو اللون من التفكير لم يكن موجوداً أيام حكم الإمام علي، لأن الكيان السياسي (المنشق) في الشام بزعامة معاوية كان كياناً طارئاً (لا شرعي) بينما الآن أصبح كيان الإمام الحسن (ع) يعتبر غي ذهن الانسان المسلم العادي هو الطارىء.

هذا الواقع النفسي، استغله معاوية بمكر ودهاء، وضمنها في رسالة مطولة ارسلها للإمام (ع)، استخدم فيها كل ادوات الخداع والتضليل، وحاول فيها ان يضع لنفسه فيها مخرجاً مما خطط له تجاه الرأي العام الإسلامي، وان يحمّل الحسن (ع) تبعة كل خلاف وشقاق كما يبدو ذلك من رسالته التالية، نقتطف منها ما يلي : -

«لقد بلغني كتابك وفهمت ما ذكرت به محمداً رسول الله من الفضل.. وقد والله بلّغ وأدى ونصح وهدى حتى انقذ الله به من الهلكة وأنا ربه من العمى وهدى به من الجهالة والضلالة فجزاه الله أفضل ما جزى نبياً عن أمته . . . وقد ذكرت وفاة النبي وتنازع المسلمين الأمر من بعده وتغلبهم على أبيك فصرحت بتهمة أبي بكر الصديق، وعمر الفاروق، وأبي عبيدة الأمين وحواري رسول الله وصلحاء المهاجرين والانصار فكرهت ذلك لك، انك آمرىء عندنا وعند الناس غير الظنين ولا المسيء ولا اللئيم، وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل.

ومضى يقول: أن هذه الأمة لما اختلفت بينها لم تجهل فضلكم ولا سابقتكم ولا قرابتكم من نبيكم ولا مكانتكم من الإسلام، فرأت الأمة أن تخرج هذا الأمر لقريش لمكانتها من نبيها ورأى صلحاء الناس من قريش والانصار وغيرهم وسائر الناس وعوامهم ان يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها اسلاماً واعلمها بالله وأحبها إليه وأقواها على أمر الله فاختاروا أبا بكر وكان ذلك رأي ذوي الدين والفضل، فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة ولم يكونوا متهمين ولا فيما اتوا بالمخطئين، ولو رأى المسلمون ان فيكم من يغني غناءه ويقوم مقامه ويذب عن حريم

الإسلام ذبه ما عدلوا بالأمر إلى غيره رغبة عنه ولكنهم عملوا في ذلك بما رأوا صلاحاً للإسلام وأهله والله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيراً . . . وقد فهمت الذي دعوتني إليه من الصلح والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال الذي كنتم عليها انتم وأبو بكر بعد وفاة النبي (ص) فلو علمت أنك اضبط مني للرعية واحوط على هذه الأمة وأحسن سياسة وأقوى على جمع الأموال وأكيد للعدو لأجبتك إلى ما دعوتني إليه ورأيتك لذلك أهلاً ولكني قد علمت أني اطول منك ولاية وأقدم منك بهذه الأمة تجربة واكبر منك سناً، فأنت أحق ان تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني فأدخل في طاعتي ولك الأمر من بعدي ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغاً ما بلغ معونة لك على نفقتك. . ولك ان لا يستولى عليك بالاساءة ولا تقض دونك الأمور ولا تعصى في امر أردت به طاعة الله، اعاننا الله وإياك على طاعته انه سميع مجيب الدعاء».

وكتب معاوية رسالة ثانية بعد تلك الرسالة، والتي لم يتلق ردها، مما أثار الحسن (ع) بإهماله له اخلاقيته الدنيئة، فجاءت رسالته متوعدة الإمام ومهددة إياه قائلاً فيها:

«أما بعد: فإن الله يفعل بعباده ما يشاء، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب، فاحذر ان تكون منيتك على أيدي رعاع الناس، وان انت أعرضت عما أنت فيه وبايعتني وفيت لك بما وعدت، وأجريت لك ما شرطت. . . ولك الخلافة من بعدي فأنت اولى الناس بها»(١).

هذا الاسلوب الاستعلائي الماكر لم يكن يستعمله أو يجرأ عليه مع الإمام علي (ع) من قبل ولم يخاطبه بمثله، أما في عهد الحسن (ع) فلقد كان يتكلم لغة الخليفة المهيمن على الكيان السياسي للدولة الإسلامية، وقد اطمأن معاوية على

---

(١) راجع سيرة الائمة / الحسني/ص: ٥٦٤.

مصيره، وعلاقته المتينة مع أكثر القادة الذين التمسوا الأمان لأنفسهم وعشائرهم»[1].

هذا الواقع الذي تحدثنا عنه اصبح مثار شك لدى المسلمين العاديين (غير الواعين) وأثار تساؤلهم فيما إذا كان من الضروري الحفاظ على هذا الكيان القائم بزعامة معاوية الوالي القديم والحاكم المجرب، أو بناء كيان جديد إلى جانب ذلك الكيان الذي سيكلفهم حرباً ونزيفاً جديداً من الدماء أم بالامكان الانسحاب من ذلك الكيان؟!

«وخصوصاً بعد ان تعود المسلمون تدريجاً من خلال حكم الخلفاء الثلاثة على النظر إلى أهل البيت (ع) بوصفهم اشخاصاً اعتياديين، أمكن الاستغناء عن مرجعيتهم أساساً واسنادها إلى بديل معقول، وهذا البديل ليس هو شخص الخليفة بل الصحابة وهو بديل يستسيغه النظر بعد تجاوز المرجعية المنصوصة لأن هؤلاء هم الجيل الذي رافق النبي (ص) وعاش حياته وتجربته ووفى حديثه وسنته»[2].

وهذا المعنى واضح من خلال رسالة معاوية الآنفة للإمام (ع).

- ٢ -

الإمام (ع) يتريث في معالنة معاوية بالحرب

ثانياً: بدأ الحسن (ع) حكمه مع جماهير شاكة مترددة لا تؤمن إيماناً واضحاً وكاملاً برسالية المعركة وبأهدافها، ولا تتجاوب دينياً واسلامياً مع متطلبات هذه المعركة.

ومن الاسباب التي عمقت (الشك) بأهداف المعركة هو ان الإمام الحسن (ع) (وذلك طبقاً لظروفه الموضوعية) لم يبادر بالاسراع، باعلان عزمه لمواصلة القتال ضد معاوية مع معرفته التامة بنوايا معاوية، وما ينطوي عليه من الكفر

---

(١) ن. م/ ص: ٥٦٦.

(٢) بحث حول الولاية/ الشهيد الصدر/ص: ٨٨.

والألحاد والعداء لمحمد ورسالته مع إدراكه لهذه الحقائق، فقد تريث باعلان الحرب عليه، إلا بعد ان كتب إليه أكثر من مرة يدعوه إلى جمع الكلمة وتوحيد الصف. حتى لا يبقى لأحد عذر أو حجة في التخلف عن نصرته.

فكتب الإمام (ع) إلى معاوية رسالة يقول فيها : -

«أما بعد فإن الله جل جلاله، بعث محمداً رحمة للعالمين. . ينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين، فبلغ رسالات الله وقام بأمر الله حتى توفاه الله غير مقصر ، وبعد ان اظهر الله به الحق ومحق به الشرك وخص قريشاً به خاصة، فقال له، وانه لذكر لك ولقومك، فلما توفى تنازعت سلطانه العرب، فقالت قريش نحن قبيلته واسرته وأوليائه، ولا يحل لكم ان تنازعونا سلطان محمد وحقه، فرأت العرب ان القول ما قالت قريش، وان الحجة لهم في ذلك على من نازعهم أمر محمد فأنعمت لهم وسلمت إليهم، ثم حاججنا نحن قريشاً بمثل ما حاججت به العرب، فلم تنصفنا قريش انصاف العرب لها، إنهم اخذوا هذا الأمر دون العرب بالانصاف والاحتجاج، فلما صرنا آل بيت محمد وأولياؤه إلى محاجتهم وطلب النصف منهم باعدونا واستولوا على الخلافة بالاجتماع على ظلمنا. لقد كنا تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا في حقنا وسلطان نبينا، وان كانوا ذوي فضيلة وسابقة في الإسلام، وامسكنا عن منازعتهم مخافة ان يَجد المنافقون والاحزاب في ذلك مغمزاً يثلمونه به أو يكون لهم بذلك سبباً إلى ما أرادوا من افساده واليوم فليتعجب المتعجب من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله لا بفضل في الدين ولا أثر في الإسلام محمود وانت ابن حزب من الاحزاب وابن اعدى قريش لرسول الله (ص) ولكتابه الكريم. - والله حسيبك فسترد وتعلم لمن عقبى الدار، وبالله لتلقين عن قليل ربك ثم ليجزينك بما قدمت يداك وما الله بظلام للعبيد».

«إن علياً لما مضى لسبيله. . ويوم منّ الله عليه بالإسلام، ولاّني المسلمون الأمر من بعده، فأسأل الله ان لا يؤتينا من هذه الدنيا الزائلة

شيئاً ينقصناه في الآخرة بما عنده من كرامة، وإنما حملني على الكتابة إليك الاعذار فيما بيني وبين الله عز وجل في أمرك، ولك في ذلك ان فعلته الحظ الجسيم والصلاح للمسلمين فدع التمادي في الباطل وادخل فيما دخل فيه الناس من بيعتي، فأنك تعلم أني احق بهذا الأمر منك عند الله وعند كل أواب حفيظ ومن له قلب منيب واتق الله ودع البغي واحقن دماء المسلمين وادخل في السلم والطاعة ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق له منك ليطفىء الله الثائرة ويجمع الكلمة ويصلح ذات البين، وان انت ابيت إلا التمادي في غيك سرت إليك بالمسلمين فحاكمتك حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين»[1].

فتريث الإمام (ع) في اعلان الحرب على معاوية كانت من المسائل التي استغلها معاوية بدهائه ومكره (الميكافيلي) الخبيث، حيث خطط لاشاعة دسها بين اصحاب الإمام (ع)، بأن الحسن (ع) يفكر بالصلح معه مما ادت هذه الاشاعة دوراً مخرباً ومعمقاً لحالة الشك عند المسلمين (غير الواعين) وترددهم في محاربة معاوية.

- ٣ -

الفارق التأريخي بين شخصية الإمام علي والحسن (ع)

ثالثاً: الفارق التأريخي بين شخصية الإمام الحسن (ع) وشخصية أبيه الإمام علي (ع)، ونعني بالفارق التأريخي، هو رصيد كل واحد منهما في اذهان الناس، إذ ليس هناك فارق بينهما في حساب الله عز وجل، فإن كل واحد منهما معصوم، ولكن بمنطق وحساب الجماهير لم يكونا سواء، فالجماهير كانت تحمل وتعيش اعتبارات كثيرة عن الإمام علي (ع) دون ان تعيش نظيرها عن الإمام الحسن (ع).. فسوابق الإمام على ايام رسول الله وصحبته الطويلة له ومواقفه العظيمة في أيام الرسالة الاولى للإسلام، وسلطته الروحية والعلمية على كثير من الصحابة، كل هذه الاعتبارات جعلت من الإمام علي (ع) في نظر الجماهير

---

(١) نقلاً عن سيرة الأئمة الأثنى عشر / الحسني ج١ ص: ٥٦٢.

رجلاً عظيماً وقائداً مؤهلاً لتسلم مقاليد الحكم.

اما الحسن (ع) لصغر سنه، وعدم وجود تأريخ مماثل من هذا القبيل،وهو بعد لم يملك القدرة النفسية والتجربة التأريخية التي امتلكها أبوه (ع) في اخضاع المسلمين لقيادته.

والمسلمون وبمرور الزمن بعد وفاة النبي (ص)، وتعودهم تدريجاً على النظر إلى أهل البيت بوصفهم اشخاصاً اعتياديين، أمكن الاستغناء عن مرجعيتهم المنصوصة عليها في كثير من الاحاديث الواردة عن النبي (ص) وإسنادها إلى بديل معقول، حيث وضع بالتدريج مبدأ مرجعية الصحابة ككل بدلاً من مرجعية أهل البيت، والمسلمون انذاك وبسبب ـ سياسة الخلفاء الثلاثة ـ لم يكونوا يؤمنون بفكرة النص على إمامة أهل البيت، سوى القلة منهم، ولذلك لم يعاملوا الإمام الحسن (ع) كإمام ـ مفترض الطاعة ، منصوص عليه، وإنما عاملوه على ان إمامته إمامة عامة وامتداد (لخط السقفية) ومفهومها للخلافة.

وكذلك الفارق الذي جاء من البيعة التي حصل عليها الإمام علي (ع)، كانت اوضح شرعية في نظر الجماهير (هذه الجماهير التي آمنت ـ بحكم الواقع ـ بخط السقيفة ومفهومها للخلافة). من بيعة الإمام الحسن (ع)، وخصوصاً ان بيعة الإمام علي تمت في المدينة التي كانت مركز الكثير من الصحابة حيث لم يتخلف **عن بيعة الإمام علي (ع) إلا القلائل أما الباقون فكلهم بايعوا،مما اعطى لخلافة الإمام علي** من الشرعية والوضوح، القدرة على التأثير والنفوذ واخضاع النفوس لسلطانه، وهذا الأمر ما لم يمتلك نظيره الإمام الحسن (ع) في نظر الجماهير.

ـ ٤ ـ

نفاقم «ظاهرة الشك» بعد استلامه للحكم

رابعاً: تسلم الإمام الحسن (ع) لمقاليد الحكم بعد استشهاد أبيه مباشرة، كان الدافع والسبب المباشر في تقوية وتعميق موجة الشك في رسالية المعركة التي يخوضها الإمام الحسن (ع) حتى ان ايحاء الشك كان لديهم قوياً بأن المعركة هي معركة بيت مع بيت، امويين مع هاشميين، وهي بالتالي ليست معركة رسالة مع رسالة.

هذه الحقيقة بالذات هي التي دعت الإمام علي (ع) بأن يكتم أمر معالنة الجماهير ـ رسمياً ـ بخلافة ولده الحسن (ع) واشغاره لمركزه السياسي حتى يتفادى أي حساسية أو شعور ذاتي، ولكنه عالن (ع) فقط ثلة من جماعته المخلصين ممن يؤمنون بالنظرية الإسلامية الصحيحة لمفهوم الإمامة، حيث أوصى إليهم بإمامة ولده الحسن (ع) وعرفهم بأن الحسن هو الإمام والحجة من قبل الله من بعده، ولكن الإمام علي (ع) بوصفه حاكماً ورئيساً للدولة لم يعلن اعلاناً رسمياً بضرورة تسلم الإمام الحسن (ع) الأمر من بعده[1].

هذه العوامل هي التي أدت إلى توسيع نطاق الشك الذاتي (المصطنع) في عهد الإمام الحسن (ع) حيث توسع كما وكيفا، ليتحول من شك يعيشه بعض الافراد والجماعات إلى شك تعيشه قطاعات واسعة من المجتمع الإسلامي الذي حكمه الإمام (ع)، هذه الظاهرة اتضحت معالمها بشكل مكبر منذ اللحظة الأولى لتسلم الحسن (ع) لمقاليد الحكم وحتى اللحظة الأخيرة من صلحه مع معاوية.

لماذا قبل الحسن البيعة؟!

وهنا نحن أمام هذا الحشد من الحقائق التأريخية نتساءل لماذا قبل الحسن (ع) عرض الخلافة والبيعة ـ وهو يعيش كل هذا الوضوح (المتزايد) لحالة الشك المتنامي، وهي حالة سوف تعجزه بالضرورة عن تحقيق اهدافه ورسالته بنجاح؟

فالسؤال بشكل أدق، لماذا وافق الحسن (ع) باستلام الخلافة وهو في لحظة يائسة؟!.

ويمكننا ان نجيب هذا السؤال وذلك بملاحظة بعض الحقائق وهي:

لو ان الإمام (ع) لو لم يقبل ممارسة الحكم بعد استشهاد أبيه، رافضاً البيعة لقيل: ان ظاهرة الشك التي كان يعيشها المسلمون ـ بدرجة من الدرجات ـ قد تسربت إلى الإمام الحسن نفسه، واصبح كغيره من المسلمين يعيش حالة الشك في صحة واهمية المعركة وضرورتها الرسالية.

---

(١) راجع نص تعيين الإمام لولده ص: ١٣٣ من هذا الكتاب.

ومن هنا جاء قدر الإمام الحسن (ع) بضرورة التصدي للأمر وان يحاول توعية المسلمين بأنه وأهل البيت (ع) ما زالوا يؤمنون بالقضية واطروحتها، بنفس مستوى الإيمان بها منذ الساعة الأولى لنشوء الفتنة في حياة المسلمين، وهو مستعد لتحمل كامل المسؤولية في الحكم وتحمل تبعاتها في مواجهة المنحرفين والضالين، فقد تحمل امامنا (ع) مسؤولية الخلافة (بعد أبيه) بالرغم من حالة الشك ـ المتزايدة ـ حتى لا يفهم أو يقال، بأن الإمام (ع) أيضاً كان شاكاً أو متردداً في صحة المعركة وأبعادها الرسالية.

ولكن الذي حدث ان الإمام الحسن (ع) بعد استلامه مسؤولية الحكم ـ بعد ابيه ـ قرر التريث وعدم الاسراع في خوض المعركة مع معاوية، بل اراد ان يتفرغ لمواجهة حالة الشك بالعلاج والتصفية، ومواجهة ظروفه الداخلية محاولاً التخفيف ـ بقدر الامكان ـ من حالة الشك الذاتية، بعد ان يقضي على مقدماته ويعالج بعض اسبابه، حتى يتمكن ـ آخر الشوط ـ من ان يكسب القواعد الشعبية الموالية ويقنعهم بصحة اطروحته، وبعدها يتفاهم معها بضرورة استئناف المعركة مع معاوية من موقع الوعي والقناعة التامة.

هذه الحقائق كانت خلفية دوافع كتمان الإمام (ع) وعزمه لأعلان الحرب في اللحظات الأولى من استلامه للحكم.

ولكن الإمام (ع) واجه انفعال وتسرع بعض اصحابه والحاحهم بضرورة معالنة معاوية بإرادة القتال دون ان يعطي معاوية فرصة اتخاذ قرار الحرب من جانبه.

«وقد كتب عبدالله بن عباس إلى الإمام الحسن (ع) من البصرة كتاباً يحرضه فيه على قتال معاوية، وجاء في كتابه إليه: أما بعد فإن المسلمين ولوك أمرهم بعد ابيك فشمرّ للحرب وجاهد عدّوك وقارب اصحابك واشترمن الظنين دينه بما يثلم دينك وولّ اهل البيوت والشرف تستصلح به عشائرهم حتى يكون الناس جماعة. واعلم بانك تحارب من حارب الله ورسوله في ابتداء الإسلام حتى ظهر امر الله فلما وُحّد الرّبّ ومحق الشّرك وعزّ الدين اظهروا الإيمان وقرأوا القرآن مستهزئين

بآياته وقاموا إلى الصلاة وهم كسالى وأدوا الفرائض وهم لها كارهون. . فجاهِدْهُم ولا ترضَ دنيّةً ولا تقبل خَسْفاً ، فإنّ عليّاً أباك لم يجب إلى الحكومة حتى غلب على أمره ، وهم يعلمون انه اولى بالأمر ان حكموا بالعدل، فلما حكموا بالهوى رجع إلى ما كان عليه حتى أتى اجله ولا تخرجن من حق أنت أولى به حتى يحول الموت دون ذلك والسلام»[1].

ولكن الإمام (ع) أعلن رفضه لهذا العرض وغيره من العروض التي جاءت من اصحابه، وكان رفضه (ع) مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالظروف النفسية التي كان يعيشها المجتمع الإسلامي انذاك.

لقد أدرك الإمام (ع) الظروف النفسية التي كان يمر بها المسلمون انذاك، وكان شعوره بان الأمة كانت تحتاج إلى علاج وتروّ أكثر مما هي بحاجة إلى قرار سريع ينقلها إلى ساحات الحرب والاقتتال، بل بحاجة إلى توعية على اهداف الحرب واطروحتها الرسالية وهم بحاجة إلى فرصة لكي يدرسوا ويتبينوا ملامح اطروحته واهدافها، ويدركوا بقناعة تامة خيراتها وبركاتها لهم، قبل ان يكلفوا مكرهين بقتال جديد.

هذه الاسباب هي التي جعلت الإمام (ع) يتريث في موضوع اعلان الحرب مع معاوية، إلا ان معاوية لم يمهله، بل حاول ان يمسك زمام الأمر بيده، وكتب ـ معمماً إلى جميع عماله في بلاد الشام، يطلب منهم التجهز والاستعداد لغزو العراق، علّه يستفيد من الفراغات السياسية والفكرية والنفسية التي خلقتها تلك الظروف والملابسات وان يحقق من خلالها مكسبه السياسي في كسب نتائج المعركة لصالح اطماعه وشهواته. ففي رسالة بعثها إلى عماله في بلاد الشام يقول فيها ـ :

«أما بعد: فأني أحمد إليكم الله الذي لا إله غيره، والحمدلله الذي

---

(١) شرح النهج / ابن أبي الحديد نقلاً عن سيرة الأئمة / الحسني ج١ ص: ٥٥٨.

كفاكم مؤنة عدوكم وقتلة خليفتكم، ان الله بلطفه وحسن صنيعه اتاح لعلي بن أبي طالب رجلاً من عباده فاغتاله وقتله، وترك اصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب اشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم فأقبلوا إلى حين يأتيكم كتابي هذا بجهدكم وجندكم وحسن عدتكم فقد اصبتم بحمد الله الثأر وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغي والعدوان والسلام عليكم ورحمة الله»[1].

فأجتمعت إليه الوفود من كل الجهات وسار بهم باتجاه العراق، وعندما سمع الإمام الحسن (ع) بنبأ الحشود وخبر وصولها إلى جسر (منبج) تحرك فوراً، وكتب إلى عماله يدعوهم للتحرك السريع وطلب من مناديه ان يدعو المسلمين إلى اجتماع في المسجد فأقبل الناس حتى امتلأ لهم فناء المسجد، وخطب بهم الإمام (ع) قائلا:

«لقد كتب الله الجهاد على خلقه وسماه كرهاً، واوصى المجاهدين بالصبر ووعدهم النصر وجزيل الأجر. . إلى ان قال: وقد بلغني ان معاوية كان قد بلغه أنّا ازمعنا على المسير إليه فتحرك نحونا بجنده فأخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم النخيلة حتى ننظر وتنظرون ونرى وترون».

بعد ان انهى الإمام خطابه ، كان رد فعل الجمهور المحتشد هو الوجوم والسكوت المطبق دون ان يتكلم منهم أحد بحرف لأن حالة الشك وقفت حائلاً دون استجابة نداء امامهم (ع) لقرار قتال معاوية، حتى قام الصحابي الجليل عدي بن حاتم مخاطباً الحاضرين بقوله:

«انا أبي حاتم، سبحان الله ما أقبح هذا المقام، الا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم، اين خطباء مضر الذين السنتهم كالمخاريق في الدعة فإذا جد الجد فمراوغون كالثعالب، اما تخافون مقت الله وعيبها وعارها» ثم استقبل عدي بن حاتم الإمام (ع) بوجهه مخاطباً إياه قائلاً:

---

(١) سيرة الائمة/ الحسني ج١/ص: ٥٦٧.

«لقد أصاب الله بك المراشد وجنّبك المكاره ووفقك لما تحمد لقد سمعنا مقالتك وانتهينا إلى امرك، وأطعناك فيما قلت، وهذا وجهي إلى معسكري فمن أحب ان يوافقني فليواف». ثم خرج من المسجد وركب دابته متجهاً إلى معسكر النخيلة، وكان اول من خرج من جيش الإمام إلى الجهاد وتبعه الف من عشيرته».

ثم قام قيس بن سعد بن عبادة الانصاري، ومعقل بن قيس الرياحي، وزياد ابن صعصعة التميمي، فأنبّوا الناس ولاموهم على تخاذلهم وحرّضوهم على الخروج وكلّموا الإمام (ع) بمثل كلام عدي بن حاتم، وقد اجابهم الإمام الحسن (ع) قائلاً ـ :

«صدقتكم رحمكم الله ما زلت اعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة والنصيحة فجزاكم الله خيراً»[1].

وخرج الناس بعد ذلك إلى معسكر النخيلة، فلما تكامل عددهم لحق بهم الإمام (ع) واستخلف على الكوفة المغيرة بن نوفل ابن عبد المطلب وهو (ابن عم الإمام) وطلب منه ان يعمل على تعبئة باقي القرى ويحثهم على الخروج والالتحاق بالجيش فلم يستجب له أحد، فاضطر (ع) ان يرجع بنفسه إلى الكوفة، وحاول ان يعبىء جيش آخر بلغ عدده ـ اثني عشر الفاً ـ من فرسان العرب ودعا عبيدالله بن العباس وقال له:

«يا ابن العم اني باعث معك هذا الجيش فسر بهم على الشاطىء حتى تقطع الفرات وتنتهي إلى ـ مسكن ـ وامض منها حتى تستقبل معاوية فألن لهم جانبك وابسط لهم وجهك وافرش لهم جناحك وادنهم من مجلسك فأنهم من ثقاة أمير المؤمنين ، فإن أنت لقيت معاوية فاحبسه حتى آتيك فأني على أثرك وشيكاً، وليكن خبرك عندي كل يوم».

وارسل معه قائدين من خيرة المسلمين اخلاصاً وجهاداً وتضحية وهما قيس

---

(١) سيرة الأئمة/ الحسني ج١/ص: ٥٦٨.

ابن سعد بن عبادة، وسعيد بن قيس الهمداني وأمره ان لا يقطع امراً دونهما وان يستشيرهما في جميع الأمور وقال له:

«إذا انت لقيت معاوية فلا تقاتله، حتى يكون هو البادىء في القتال فإن أصبت فقيس بن سعد على الناس، وان اصيب فالقيادة من بعده لسعيد ابن قيس».

وسار عبيدالله بالناس إلى الفلوجة ومنها إلى مسكن وكان معاوية قد نزل عليها وفي اليوم الثاني وجه معاوية بخيل اغارت على جيش عبيد الله، فوقفوا لها وردوها على اعقابها، وايقن معاوية بأن الحسن (ع) عازم على مواصلة القتال وتصفيته سياسياً بعد ان رفض كل عروضه السابقة. فحاول معاوية ان يسلك طريق الاغراء والترغيب والتخويف وكان شعاره قائلاً: ـ

«والله لاستميلنّ بالدنيا ثقاة علي ولأقسمنّ فيهم الأموال حتى تغلب دنياي آخرته».

وفعلاً استطاع معاوية بأسلوبه الماكر ان يستميل إليه عدداً من جند الإمام وقادته.

ويذكر المؤرخون بهذا الصدد بأن عبيدالله بن العباس انسلّ من قاعدته ودخل معسكر معاوية ومعه بضعة آلاف ممن كانوا معه فوفى له بما وعده فاضطر قيس بن سعد ان يخطب فيهم آمراً جيشه بالصبر والثبات ومناهضة معاوية مهما كانت النتائج، فأجابوه لذلك، ومضى لقتال معاوية، وفي هذه الاثناء لجأ معاوية بخبثه ودهائه إلى بث اشاعة كاذبة مفادها ان اميرهم عبيدالله مع معاوية في خبائه وان الحسن (ع) قد وافق على الصلح فعلام تقتلون انفسكم، وهنا يدعي المؤرخون بأن الانفعال قد استبد بقيس بن سعد مخاطباً جيشه، قائلاً:

«اختاروا أحدى اثنتين اما القتال بدون إمام، واما تبايعوا بيعة ضلال فقالوا بأجمعهم، بل نقاتل بدون إمام، ثم اشتبك الفريقان، وكانت معركة ضارية وكانت نتائجها لصالحهم.

فالموقف الخياني الذي وقفه عبيدالله بن العباس، والاشاعة الكاذبة ، وتصرف قائد الجيش مع جنده، كل هذه المواقف كانت من العوامل المؤثرة التي تسببت بتفكك جيش الإمام وانهزامه نفسياً أمام معاوية ، مما فتح أبواب الغدر والخيانة والتسلل الجماعي . .

وقد تتالت مواقف خيانية أخرى في صفوف جيش الإمام (ع) وكان بطلها هذه المرة شخص (من قبيلة مرة) حيث اغراه معاوية بالمال وقد فرّ هو ومع صفوة من جنده، مما اضطر الإمام، ان يرسل، قائداً آخر على الفور مع اربعة آلاف مقاتل ليحل محله، ويضيف المؤرخون بأن هذا القائد الجديد هو الآخر، وقبل وصوله إلى مسكن حاول الفرار بمن معه إلى معاوية.

هذه المواقف الخيانية المتلاحقة المصحوبة بالاشاعة الكاذبة ، ادت فعلها البليغ والمشؤوم في نفوس بقية جيش الإمام (ع)، وقد تستر بغدرهم وخيانتهم جميع الطامعين والخونة ـ من أهل العراق ـ ونشط انصار معاوية في نشر وبث الترهيب والترغيب في صفوف جيش الإمام (ع) محاولين استمالة رؤوساء ربيعة الذين كانوا حصناً للإمام علي (ع) في صفين وغيرها من المواقف، وقد راسله خالد بن معمر احد زعمائها البارزين. وبايعه نيابة عن ربيعة كلها، كما راسله وبايعه عثمان بن شرحبيل احد زعماء بني تميم، حتى شاعت الخيانة وتفاقمت ظاهرتها بين جميع كتائب الجيش وقبائل الكوفة، وقد صارحهم الإمام (ع) بالواقع قائلاً:

«يا أهل الكوفة انتم الذين اكرهتم أبي على القتال والحكومة ثم اختلفتم عليه وقد اتاني أن أهل الشرف منكم قد اتوا معاوية وبايعوه، فحسبي منكم لا تغروني في ديني ونفسي»[1].

وفي هذه اللحظات العصيبة والحاسمة، كان وفداً من ثلاثة أنفار يرأسه نويرة ابن شعبة يتقدم لمفاوضة الإمام (ع) بأسم معاوية لطلب الصلح ـ وقد حملوا معهم

---

(١) ن. /م/ج١/ص: ٥٧٣.

برسالة من معاوية مرفقة بمجموعة من رسائل (الخيانة) التي وصلت معاوية من أصحابه (ع) يعلنون فيها استعدادهم للسمع والطاعة ويظهرون تعاونهم لتسليم الإمام الحسن (ع) في أي وقت يشاء».

وفي نفس الوقت، نشاهد ان معاوية يوجه رسالة مفتوحة إلى جيش الإمام (ع) يخاطب فيها الإمام (ع) بقوله : ـ

«إن شئت ان تحقن الدماء ، وتوقف القتال على أن يكون الامر لك من بعدي».

ولكن الإمام (ع) بعد اطلع على الرسائل وفرغ من قراءة مضمونها واطلع على مرفقاتها، اتجه إلى الوفد، محاولاً عظتهم ونصحهم مذكراً إياهم بثواب الله وعقابه وأيام الله شارحاً لهم بأن هذه اللحظات التي يعيشونها هي امتحان للمؤمنين وهي جزء قصير جداً من عمرهم، الذي يجب ان يقيموه ويفهموه على أساس شوط ـ طويل ـ يعيشونه.

وبهذا الموقف الناصح، حاول ان يتجاهل (ع) مضمون الرسالة والرد عليها، ثم سكت برهة (ع) دون ان يعطي الوفد المفاوض أن جواب واضح، لأنه اراد ان يجرب آخر محاولة مع قواعده الموالية لكي يتبين قدرتها واستعدادها على مواصلة خط الجهاد الطويل.

وقد انتهى الاجتماع؛، وقد غادر الوفد المكان، وكان جيش الإمام يتابع نتائجها بفارغ الصبر، وفي اثناء مغادرة الوفد مكان الاجتماع حاول ان يمرر اشاعة كاذبة في صفوف جيش الإمام مشيعين عن نتائج اجتماعهم بالإمام (ع) «بأن الله قد فرّج عن هذه الأمة وقد حقنت الدماء بابن بنت رسول الله ، وان الإمام قد استجاب لطلب معاوية في الصلح».

وما ان سرت هذه الاشاعة (اللعينة) ـ حيث كان لها مفعول النار في الهشيم ـ إلا وعملت عملها في تخريب وثني العزائم ، وفي توسيع دفعة حالة الشك والتميع.

وعقيب هذه الإشاعة المدمرة مباشرة، خرج الإمـام (ع) ـ دون ان يعرف عنها شيئاً ـ وقف خطيباً بين قواعده وجنده، محاولاً استبطان نوايـاهم في مواصلة الجهاد ضد معاوية ، قائلاً لهم : ـ

«إن معاوية دعـانا إلى مـا لا يكون منـه خيرنـا ولا خيركم، فمـاذا انتم فاعلون، فصاحـوا بصوت واحـد، الصلح، الصلح» وهم تحت تأثيـر الإشاعة.

وما ان سمع الإمام (ع) هذا الهتاف الجماعي ؛ احس بـأن بقاء التجـربة السياسية بقيـادته اصبحت شيئاً متعذراً، مـع شعوره بـالعجز الكـامل على حسم المعركة عسكرياً، بجيش يعيش حالة الشك والتردد والـرغبة الجـامحة في مـوادعة العدو ومهادنته.

ولقد ادرك الإمام بوعيه (المعصوم) بأن انحسار تجربتـه مؤقتاً عن الميـدان السياسي اصبحت ضرورة اسلامية وتغييرية من أجل حماية مستقبل الإسلام، لأن التجربة السيـاسية للحكم لا يمكن لهـا ان تعيش وتستمر مـع وجود حـالة الشـك المتنامية.

ومن هنا جاء تقدير الإمام (ع) بضرورة معالجة الاسباب والقضاء عليهـا، ومن ثم العمل على استئناف التجربة السياسية من جديد.

وكـانت خطتـه العلاجيـة (ع) هو ان يتيـح الفـرصـة لأن تتكشف اهـداف واطروحة معاوية ـ الجاهلية ـ أمام الناس، ليحسها المسلمون بأم اعينهم ـ ويدركوا بـأن المعركـة التي قادهـا الإمام علي (ع) مـع معاويـة هي معركـة الإسلام مـع الجاهلية (ابناء الطلقاء)، لا معركة شخص مع شخص.

فكان لابد ـ في منطق تجربة الإمام الحسـن (ع) ان يعالج الشـك بقبولـه الصلح ـ وبعدها يعمل على إعادة تجربته السياسية.

وبهذا الصدد يصرح الإمام الحسـن (ع) بقـوله : ـ

«ان من ابتغاء الخير اتقاء الشر».

لأنه ليس بامكان أي تجربة رسالية ان تنجح ما لم تكتسب مسبقاً قناعة الأمة بصحة أهداف الرسالة واطروحتها ، ولم يكن من المتيسر لتجربة الإمام (ع) ان تكتسب هذه القناعة وهي تواصل القتال في ميدان الصراع الدامي.

خلاصة البحث: اصبح من الضروري ان يصالح الإمام (ع) معاوية وان ينحسر ظاهرياً عن ميدان الحكم حتى ينكشف معاوية بأطروحته **الجاهلية**، ليلمس المسلمون البسطاء ذلك بأنفسهم ، بأن الاطروحة التي جاهد في سبيلها الإمام علي (ع) هي اطروحة كرامتهم ووجودهم ومصالحهم الحقيقية ، وبعدها يكون ممكناً استئناف بناء الوجود السياسي من جديد، وذلك على اساس قناعات واعية تحملها القواعد الشعبية اتجاه قائدها وامامها.

***

- ٧ -

هل كان صلح الحسن مع معاوية تخاذلا؟!

الظروف الموضوعية التي احاطت حكم الإمام الحسن (ع) وملابسات التعقيد والشك ـ والتي برزت على شكل معوقات وتناقضات في حياته السياسية(ع) والتي صارت فيما بعد سبباً في مضاعفة (حالة الشك) من طاقة سلبية ذات أثر محدود إلى طاقة ايجابية متنامية امتدت إلى نطاق واسع في وسط الأمة، ، كل هذه العوامل والظروف عقدت موقف الإمام من مسألة الحكم وبات الإمام (ع) امام خيارات اربع لا خامس لها.

١ ـ الخيار الأول: وهو اغراء الزعامات واصحاب النفوذ باعطائهم الاموال ووعدهم بمناصب لاستمالتهم إلى جانبه، وهذا الخيار اقترحه البعض من اصحابه (ع) ، لكنه رفضه رفضاً قاطعاً وبمبدئية حاسمة بقوله:

«اتريدون ان اطلب النصر بالجور ، فوالله ما كان ذلك ابداً».

٢ ـ الخيار الثاني: وهو ان يتجه الإمام إلى الصلح ، من أول الأمر ما دامت الأمة قد انست بحياة الدعة والاستسلام وما دامت زعاماتها قد بدأت تتصل بمعاوية

متعاونة معه إلى حد تسليمه حياً أو ميتاً، وان يوقف العمل بالخيار العسكري، نزولاً للأمر الواقع ولكن الإمام (ع) استبعد العمل بأحد هذين الخيارين نهائياً لعدم جدواهما ـ كما سيأتي تحليله ـ وبقي عليه أن يفتش في الخيارين الأخيرين.

٣ ـ **الخيار الثالث:** وهو ان يواصل العمل في الساحة العسكرية حتى يستشهد، كما استشهد أخوه الحسين في ميدان القتال بكربلا، وان يخوض معركة يائسة يستشهد فيها هو وجماعته.

٤ ـ **الخيار الرابع:** وهو ان يصالح معاوية بعد ان يستنفذ أطول وقت ممكن ليسجل المواقف وليبين للناس من يثبت ومن ينحرف.

كان لابد للإمام (ع) وهو يدرس هذين الخيارين أن يضع في حسابه كل اعتباراته وما يتمثل بوجوده من الأمور التالية:

اولاً: باعتباره أميناً على اطروحة ـ النظرية الإسلامية ـ وعلى صيغتها الكاملة للحياة، بوصفها الخط الفكري والروحي الذي يجب ان يمتد متجذراً إلى أكبر قدر ممكن من قلوب الناس وعقولها.

ثانياً: باعتباره أميناً على التجربة السياسية، والتي جسدت تلك الأطروحة في واقع الحكم.

فهو أمين على النظرية والتطبيق معاً، ووارث للمفهوم والخط الفكري والتجسيد العملي للنظرية في واقع الحياة.

ثالثاً: باعتباره اميناً على (الوجود الشّيعي) الذي بذره النبي (ص) للحفاظ على مستقبل الدعوة، ونماه ورعاه قائد الدعوة الثاني الإمام علي (ع)، وكان من المفروض ان يواصل على يديه ويد خلفائه نموه الثوري وان يواصل امتداداته عبر التأريخ الإسلامي.

هذه الاعتبارات وغيرها كانت موضع إهتمام وتقييم الإمام (ع) وهو يدرس ويوازن أفضل الخيارين، خيار التضحية والاستشهاد الفاجع أو خيار تجميد التجربة والحركة مؤقتاً.

الإمام يستبعد الاعتبارات العاطفية.

بقيت نقطة نود ان نتعرض إليها باختصار هو ان الإمام (ع) عندما كان ينظر إلى خياراته على ضوء تلك الاعتبارات الموضوعية، كان يدرك في نفس الوقت بأن هناك اعتبارات عاطفية، كان عليه ان لا يوجد لها طريقاً لحساباته وموازناته فهي لا ترتبط من بعيد أو قريب بمصالح الرسالة ومستقبلها، وذلك من قبيل تخوفه أو ملاحظته. لتقولات الناس، ان يقال له بأنه جبان «وغير مستعد لمصارعة اعدائه»[1] أو أنه لا يأبى الضيم كأخيه الحسين (ع)[2] «وانه لم يكن كفؤاً للموقف لميله إلى السلم»[3] وانه كانت تنقصه القوة المعنوية والقابلية القيادية»[4] «وانه لم يكن رجل الموقف فانزوى عن الخلافة مكتفياً بهبة سنوية منحه إياها معاوية»[5].

هذه المشاعر هي من قبيل الاعتبارات العاطفية التي من الممكن ان تؤثر على موقف بعض القادة، ولكن لا يمكن ان تأخذ طريقها إلى قلب القائد الذي يريد ان يرسم طريقه على اساس من الاعتبارات الموضوعية والرسالية فقط. فاعطاء صفة (أبي الضيم) عند المؤرخين للإمام الحسين (ع) وصفة مذل المؤمنين للحسن (ع) يمكن مناقشتها وردها عندما نعرف بأن هذا الاباء يجب ان يراد به حينما ينسب لموقف الحسين (ع) بكربلاء دون الحسن (ع) اباء ورفضاً عندما تنتهك حرمة الرسالة ويراد إذلالها، أو ان تفقد الرسالة مكسباً كان بالإمكان ان يتحقق بالنسبة لهذه الرسالة.

وأما المفهوم (العاطفي) الشائع بين الناس لاباء الضيم فهو مفهوم جاهلي لا يقره الإسلام، فإن موقف قبول الضيم يجب ان يكون عندما تقتضي الرسالة من

---

(١) راجع اقوال ثلة من المؤرخين المستشرقين في هذا المجال في كتاب سيرة الائمة/ الحسني /ج١ /ص: ٦٠٢.

(٢) اليمين واليسار في الإسلام/ أحمد عباس صالح/ ص: ١٤٢.

(٣) المستشرق هوكلي/ سيرة الائمة/ ص: ٦٠٣.

(٤) رونلدنسن في كتابه عقيده الشيعة الإمامية.

(٥) صانعوا التأريخ العربي/ فيليب حتى.

القائد ان يمتحن بتحمل هذا الضيم، فمثل هذا الاباء والرفض يكـون موقفـاً غير رسالي وغير انساني بل هو موقف اناني، كما ان العكس صحيح أيضاً.

فأي اعتبار عاطفي لا ينبع من اهـداف وقيم الرسـالة يجب ان لايـدخل في حساب الانسان (الرسالي) وأي انسان أحق بهذا الوصف من هؤلاء القادة العـظام من أئمة أهل بيت الرسول (ص).

أما الحسن (ع) فكانت اعتباراته في اختيار الموقف ذات إبعاد رسالية قائمة على الاعتبارات الموضوعية الثلاثة الآنفة الذكر، والتي سنتناولها بالتحليل والنقاش فيما يلي: -

مناقشة الاعتبارات الموضوعية:

اولاً: أما على الاعتبار الأول، بوصفه أميناً على الاطروحة النظرية بصيغتها الكاملة للحياة فقد برزت على هذا الصعيد بعض المفارقات في الحياة الاجتماعية عندما رأينا ان هذه الصيغة الإسلامية (الكاملة للحياة) وهي تعيش التطبيق العملي في تجربة سياسية حاكمة كيف انها اضطرت ان تغـادر الساحـة السياسيـة بعد ان انحسرت في قلوب واقتناع القواعد الشعبية بالتدريج، ولم يكن سبب الانحسار لأن وصول التجربة إلى المرحلة الحكميـة كشف عن قصور أو انحـراف أو سلوك غير منطبق على النظرية أو غير منسجم مع قيمها وأهدافها بل ان القاعدة الشعبية التي اعتمدها الإمام في تسيير دفة الحكم لم تكن تستطيع مواكبة حياة الكفاح والجهاد إلا إلى مرحلة قصيرة من شوط حياتها الجهادي.

ولذا نرى ان الإمام علي (ع) حينما مارس تطبيق نظريته على كل مستويات الحياة الإسلامية اجتماعياً وسياسياً واقتصاديا واخلاقياً بدأت المتاعب والملابسات وبدأ الناس بالشك والتميع، لأنهم ارهقوا بتكاليف هذه النظرية وتميعت قناعاتهـا بالتدريج بصحة هذه النظرية.

ومن هنا جاء قرار الإمام (ع) باعطاء الاولوية إلى استرجاع ثقة واقتناع الأمة بالنظرية لأنه ادرك بأن النظرية الكاملة لكي تعيش في نفوس الأمة، لابد من اتخاذ قرار اخلاء الميدان السياسي لمعاوية وافساح المجال (لابناء الطلقاء) وقواها المتمثلة بخط السقيفة، تستولي على العالم الإسلامي لكي تتكشف بواقعها الجاهلي المقنع واطروحتها المبرقعة بالإسلام معرفاً هؤلاء المسلمين ـ البسطاء ـ والذين لم يكونوا يعرفون إلا ما يرون باعينهم وحواسهم من هو معاوية . . وما هو واقعه وواقع حكمه واهدافه في الحياة، ومن كان علي بن أبي طالب، وماذا كانت تعني اطروحته العادلة.

وهنا يلح علينا سؤال يتطلب منا معالجته بعجالة، هو هل ان كل نظرية صالحة، حينما تأخذ مجراها للتطبيق تفقد ثقة واقتناع قواعدها الشعبية بها بالتدريج وهي لكي تبدأ من جديد تضطر ان تتخلى عن تجربة الحكم مفسحة المجال لتجربة منافسة تمارس الحكم على اساس نظرية جاهلية منحرفة حتى يكون ذلك سبباً لتحريك الأمة ومنبهاً لها بصحة نظرتها الاولى؟ وهل ان هذا الحل هو قدر حتمي للنظرية الإسلامية دائماً؟.

وجوابنا هو ان هذا الحل ليس هو قدر النظرية الإسلامية وإنما هذا قدر لازم على النظرية الإسلامية عندما تمنى بتلك الظروف والملابسات التي مر بها حكم الإمام علي (ع) فعندما بدأ الإمام (ع) حكمه وممارسته لتطبيق نظريته بشكل كامل غير منقوص، جاء معتمداً على قواعد شعبية لم تتفاعل بوعي كامل وحقيقي مع اطروحته ولهذا لم توات هذه القواعد فرصة التفاعل بكل وجودها ولم تبذل معه جهداً كافياً في سبيل حماية هذا التطبيق.

ومن الجدير بالذكر أن قواعد الإمام علي (ع) الموالية لحكمه كانوا من شعب العراق وبالرغم من انهم كانوا يبدون من أكثر الشعوب الإسلامية اخلاصاً وتفانياً للإمام (ع): إلا ان استجابتهم واستجابة شعوب أخرى في مصر والجزيرة العربية كانت استجابة قائمة على اعتبارات عاطفية مبنية على الرصيد التأريخي الكبير الذي كان يتمتع به الإمام علي (ع) في اذهانهم ونفوسهم.

فهؤلاء المسلمون الذين شاهدوا محنة انحراف عثمان بن عفان عن كتاب الله وسنة نبيه (ص) وبعدها شاهدوا مقتله احسوا بمشاكل كبيرة تتحدى طاقة الانسان العادي مما حملهم هذا الاحساس بالتوجه صوب صحابي كبير مقتدر يستطيع بما يحمل من تراث محمد (ص) ان يتغلب على هذه المشاكل ويملأ لهم الفراغ السياسي بعد مقتل خليفتهم ويعيد الأمور إلى وضعها الطبيعي، فوقع اختيار الكثير منهم على شخص الإمام علي (ع)، لأنه كان ابرز الصحابة على المسرح السياسي والاجتماعي، تدعمه صفات نادرة وتجربة تأريخية ثرة لا يتمتع بها أي صحابي آخر.

فكانت استجابة الناس منذ البدء استجابة عاطفية قائمة على أساس الشهرة والتقديس الذاتي، لا على اساس التفاعل الواعي أو التربية المباشرة من قبل الإمام علي (ع) لذا كان من بداهة الأمور أن تأتي استجابتهم فجة ذات شوط قصير، اخذت بالتميع والذوبان تدريجياً، بعد ان اصطدمت بأعباء الجهاد ومسؤولياتها الجسام، أما حينما تجيء النظرية الإسلامية إلى الحياة على أثر تفاعل واسع النطاق في الأمة متفاعلة بوعي مع مضمونها تفاعلاً واعياً وصحيحاً، ففي هذه الحالة سوف لن تحتاج هذه النظرية مرة أخرى إلى أي تنازل عن قيمومتها للحكم أو الانحاء للعاصفة ـ ولكن الذي حدث أن الظروف الموضوعية ـ والتي سبق الكلام عنها ـ هي التي فرضت ظاهرة الانحسار وتلاشي التجربة السياسية والتنازل عنها لاسترجاع قناعة الأمة ثانية وكسب ثقتها، وهي ولدّت ضرورة اسلوب فسح المجال لأعداء الإسلام (من ابناء الطلقاء) لكي يعبروا ويفصحوا عن ذواتهم الجاهلية أمام المسلمين البسطاء ـ بشكل حسي مباشر ـ ولقد ارتكبها بالفعل معاوية عندما صعد المنبر أمام حشد من المسلمين لكي يخاطبهم بكل صلف ووقاحة قائلاً لهم : ـ

«إني لم احاربكم لكي تصلوا أو تصوموا أو تحجوا أو تزكوا، بل حاربتكم لكي أتامر عليكم وقد اعطاني الله ذلك وأنتم لذلك كارهون».

وفي هذا المجال يمكن ان نفترض طريقين في تعيين انحسار تجربة الإمام السياسية وفسح المجال لاعدائه بالانكشاف على المسرح الاجتماعي والسياسي أمام المسلمين وذلك: .

أ ـ يواصل الإمام معركته المسلحة حتى يستشهد في ميدان الجهاد؛ ثم يفتح المجال لمعاوية ليحكم من بعده.

ب ـ ان يجمد تجربته السياسية بقبول الصلح (المشروط) وايقاف العمل العسكري ضد معاوية.

والسؤال الآن لماذا لم يختار الإمام (ع) أحد هذين الطريقين، وخصوصاً ان كلا الطريقين يحققان حاجة الرسالة بالانسحاب المؤقت حتى تسترجع القيادة ثقة الأمة بها وبأطروحتها ويزداد الحاح هذا السؤال في ذهن القارىء حينما يقارن موقف الحسن (ع) بموقف الحسين (ع) الذي واجه هـذين الخيارين، فاختار طريق الشهادة دون ان يختار طريق ايقاف الجهاد ولو مؤقتاً.

ويمكن ان نصل إلى الجواب بإدراك الفارق الاساسي بين موقف الإمامين (ع) وذلك بالبحث في الظروف الموضوعية لواقعهما، وأخذ الاعتبارات الموضوعية الثلاثة (السابقة) بنظر الاعتبار.

مقارنة بين موقفين

فعلى صعيد الاعتبار الأول حينما جاء اختيار الحسين(ع) لطريق الشهادة وذلك لأن الأمة في زمنه لم تكن تعيش حالة الشك لأنها شفيت منه ولكنها ابتليت الأمة بحالة مرضية جديدة هي حالة «فقدان الإرادة».

وهناك فرق موضوعي كبير بين المرضين، فمرض الشك كان يعني ان الأمة تفقد اساساً واعتقادها الواعي برسالية المعركة، ولو ان الحسن (ع) واصل

خوض معركة يائسة ويخرّ صريعاً في ساحة الجهاد لما حقق أي مكسب أو فعل للإسلام كما حققه دم الحسين (ع) المراق بكربلاء، لأن استشهاد الإمام (ع) سوف يتم في ظل شك الجماهير برسالية معركته.

ومن هذا الواقع المرير جاء لوم كثير ـ من المؤرخين ـ للإمام الحسن (ع) منددين بتكاسله وضعفه (المزعوم) وتنازله عن حقه حسماً للموقف وقبوله لحياة الدعة والراحة.

ولكننا نرفض هذه الادعاءات والافتراءات، مؤكدين بأن خوض الإمام (ع) ودخوله في معركة يائسة سلفاً، سوف لن يحرك ضميراً في الأمة ولن يغيّر من اوضاعها شيئاً ولربما كانت معركته (ع) في نظر كثير من المسلمين بمستوى المعركة التي خاضها عبدالله بن الزبير الذي كانت له وقفة مع جيش عبد الملك بن مروان، حيث واصل حربه وقتاله حتى خرّ صريعاً في الميدان وقتل معه كل اصحابه الخواص وأهل بيته.

ولكننا نسأل، هل ان احداً من المسلمين فكر بابن الزبير؟ وهل ان معركته التي خاضها تركت اثراً في ضمير الأمة الإسلامية؟ وهل حركت مشاعرهم؟ وهل حققت مكسباً حقيقياً للإسلام أو قدمت زخماً جديداً للعمل؟

ونرى من جانب آخر ان عثمان بن عفان واصل تجربة الحكم اثناء خلافته وطلب منه معارضوه بالاستقالة والتنح عن الحكم، وقد أجابهم عثمان بأنه غير مستعد لذلك، لأن الخلافة في مفهومه.

«هي ثوب البسه الله إياه» حتى كان نتيجة اصراره بمواصلة الحكم، الثورة بمقتله.. وكلنا يعلم لو ان عثمان استقال لما قتل، إذاً هل يمكن ان نقول بأن عثمان كان شجاعاً في إصراره على تمسكه بالحكم حتى قتل بيد المعارضة، فقد بذل عثمان دمه ونفسه في سبيل الحكم، ولكن نسأل بدورنا هل هناك انسان يتجاوب مع امثال هذه الشجاعة هل استطاعت هذه الشجاعة (القصيرة النظر) ان تهزّ ضمير الأمة الإسلامية أو ان تحرك شيئاً من أوضاعه؟.

الجواب: لا . . ولكن لماذا؟ لأن ابن الزبير أو عثمان أو أي شخص آخر من هذا القبيل، كان الناس يعيشون اتجاههم مفهوماً واضحاً ، فهم في نظرهم خاضوا المعركة لزعامتهم الشخصية ضد المعارضة، ولم تكن معركتهم من أجل انقاذ الرسالة أو حماية الإسلام أو تعديل الحكم المنحرف، فالأمة كانت تعيش حالة شك بأهدافهم.

فهل كان استسلام عبدالله بن الزبير أو عثمان بن عفان للموت لأنهما رفضا الضيم ورفضا أن يطأطئا رأسيهما أمام الأعداء؟ أم أنهما واصلا القتال من أجل المظلومين والمسحوقين الذين أذلهما حكم عبد الملك بن مروان.

ولكن حقيقة الأمر ان الأمة لم تملك قناعة بالنسبة لأهداف ابن الزبير أو عثمان وأمثالهما ولهذا ذهب مقتلهما دون ان يحدث أي أثر حقيقي في محتوى الأمة النفسي والفكري والروحي.

فنفس هذه الحالة من الشك ـ بل بدرجة أقوى ـ قد وجدت عند الجماهير التي عاشت مع الحسن (ع) كانت تجعلهم ينظرون إلى استماتة الحسن (ع) من لون استماتة أي شخص آخر يأبى الضيم والركوع أمام عدوه، فهي من قبيل الدوافع العاطفية، ولو ان الحسن (ع) اختار طريق مواصلة القتال حتى الاستشهاد لما حرك معه شيئاً في نفوس واوضاع المسلمين.

وهناك أرقام تأريخية كثيرة! تؤكد لنا أن الإمام (ع) كان مدركاً لموقفه وعارضاً ان معركته مع معاوية مستحيلة الانتصار مع وجود ظاهرة الشك في الجماهير.

والإمام الحسن (ع) ببياناته التأريخية يرسم لنا أبعاد سياسته بوضوح في معالجته الواعية لأزمة الوضع مع أصحابه وفي مقارعته لاعدائه في بيان سياسي مؤثر نلحظ فيه عمق المرارة وبليغ الرفض ليؤكد من خلال كل كلمة من كلماته الحق الذي اطمأن إليه، ونحن نعطي دور الإيضاح والبيان للإمام(ع) ليكلمنا بكل شيء عن مجتمعه وموقفه من مشاكل زمانه وعن الحلول التي خرج بها لحسم المشكلة.

«عرفت أهل الكوفة وتلونهم، ولا يصلح لي منهم ما كان فاسداً، انهم لا وفاء لهم ولا ذمة في قول ولا فعل انهم لمختلفون ويقولون أن قلوبهم معنا وان سيوفهم لمشهورة علينا»[1].

«غررتموني، كما غررتم من كان، من قبلي من أي إمام تقاتلون بعدي، مع الكافر الظالم الذي لا يؤمن بالله ولا برسوله قط»[2].

وفي مجال آخر يشير الإمام (ع) إلى استحالة خوض معركة منتصرة، وهو في هذا الجو من الشك، وقلة الاعوان المخلصين.

«والله أني ما سلمت الأمر إلا لأني لم أجد أنصاراً، ولو وجدت أنصاراً لقاتلته ليلي ونهاري حتى يحكم الله بيني وبينه»[3].

«أن معاوية نازعني حقاً هو لي دونه، فنظرت لصلاح الأمة وقطع الفتنة فرأيت أن اسالم معاوية وأضع الحرب بيني وبينه وقد رأيت أن احقن الدماء خير من سفكها ولم أر إلا صلاحكم، وان ادرى لعله فتنة لكم ومتاع إلى حين»[1].

فكل الحقائق تشير بأن أية معركة يخوضها الإمام لا تؤدي إلى أي نتيجة على الاطلاق ولن تؤدي مفعولاً على مستوى اهداف الإمام (ع) من التغيير الذي تتطلبه الرسالة كحضارة وممارسة حياتية لكل الاجيال وعلى مدى العصور.

ولابد من التساؤل في هذا المجال عن أهداف هذه المعركة خصوصاً وان الأمة تعيش ظروف محنة الشك وقوة المواجهة واستحالة النصر.

ما هي أهدافها؟ وما هي طبيعتها؟ أهي مجرد عناد أم هي رسالة وأمانة؟ يقول الإمام (ع) بهذا الصدد:

«أن من ابتغاء الخير اتقاء الشر»[٢].

ويجيب (ع) سائلاً في معرض رده وتفسيره لمفهوم الجهل قائلاً:

«سرعة الوثوب على الفرصة قبل الاستمكان منها، والامتناع عن الجواب ونعم العون الصمت في مواطن كثيرة وان كنت فصيحاً»[٣].

وفي حديث آخر يبين لنا الأمر بشكل اوضح عندما يسئل عن معنى العقل قائلاً:

«التجرع للغصة حتى تنال الفرصة»[٤].

وعلى ضوء هذه الحقائق التأريخية الثابتة بحق لنا أن نطمئن إلى النتيجة القائلة لو ان الحسن (ع) خاض المعركة اليائسة لكانت معركته تشبه - إلى درجة كبيرة - معركة عبدالله بن الزبير أو عثمان بن عفان، اليائسة التي لم تكن لتقدم أي عطاء للإسلام ولرسالته الخالدة.

وبناء على هذه الحقائق استجاب الإمام لدعوة الصلح في وقت اصبحت فيه الاستجابة نصراً على معاوية وفضحاً لسياسته المخادعة، وكشفاً لخلقه أمام الجماهير فقد كان معاوية في ذلك الوقت يتلبس وجه من يريد حقن دماء المسلمين بعد أن أدرك أن نتائج الحرب ستكون لصالحه وهو يرى تصلب الحسن (ع) وإصراره على خوض المعركة، فأراد ان يبرز كمحب للصلح ولحقن دماء المسلمين، ولكن سرعان ما فاجأته استجابة الإمام (ع) لعقد الصلح، فشعر بخيبة واخفاق في تحقيق سياسته الماكرة خاصة أن بنود الصلح الزمته بأمور لم يكن له بد إلا القبول بها(*) وقد نجحت خطة الإمام الحسن (ع) وبدأ معاوية يساهم إلى

(*) ما يلي بنود صلح الحسن (مأخوذ عن كتاب - صلح الحسن - للشيخ راضي آل ياسين/ص: ٢٥٩ - ٢٦١.

درجة كبيرة بكشف نفسه وواقعه المنحرف ولم ينتظر الوقائع والظروف لتساهم بكشف حقيقته بل أعلن منذ اليوم اولال عن مضمون اطروحته .

المادة الاولى: تسليم الأمر إلى معاوية على ان يعمل بكتاب الله وبسنة رسوله (ص) وبسيرة الخلفاء الصالحين.

المادية الثانية: ان يكون الأمر للحسن من بعده، فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين، ولبس لمعاوية أن يعهد به إلى أحد.

المادة الثالثة: أن يترك سبّ أمير المؤمنين والقنوت عليه بالصلاة وان لا يذكر علياً إلا بخير.

المادة الرابعة: استثناء ما في بيت مال الكوفة، وهو خمسة آلاف ألف فلا يشمله تسليم الأمر، وعلى معاوية أن يحمل إلى الحسين كل عام ألفي ألف درهم وان يفضل بني هاشم في العطاء والصلات على بني عبد شمس، وأن يفرق في اولاد من قتل مع أمير المؤمنين يوم الجمل واولاد من قتل معه بصفين ألف ألف درهم، وان يجعل ذلك من خراج دار (اجرد) ولاية بفارض على حدود الأهواز.

المادة الخامسة: الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم، وأن يؤمن الاسود والأحمر وان يحتمل معاوية ما يكون من هفواتهم وان لا يتبع احداً بما مضى، وأن لا يأخذ اهل العراق باحنة وان لا ينال أحد من شيعة علي بمكروه وان اصحاب علي وشيعته آمنون على انفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم، وان لا يتعقب عليهم شيئاً ولا يتعرض لأحد منهم بسوء، ويوصل إلى كل ذي حق حقه وعلى ما أصاب اصحاب علي حيث كانوا، وعلى ان لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله غائلة، سراً ولا جهراً، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق . انتهى وأخذ يواصل الاعلان وفي مختلف المجالات السياسية وبكل استهتار قائلاً:

«والله اني ما قاتلتكم لتصلوا ولتصوموا ولتحجوا ولا لتزكوا، ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم، وقد اعطاني الله ذلك وانتم لها كارهون».

اختيار الحسين (ع) لطريق الشهادة.

أما اختيار الحسين (ع) لطريق الشهادة جاء لأن الأمة في زمنه كانت قد تخلصت وشفيت من مرض (الشك) بعد انكشاف واقع الأمويين وافتضاح واقع اطروحة معاوية وشعورهم بأنها ما هي إلا امتداد للجاهلية، وغدت تجربة الإمام علي (ع) في الحكم املاً وحلماً في نظر الجماهير، واخذت تدرك وتعي بأن الإمام علي كان يحارب في معاوية بن أبي سفيان جاهلية الأصنام والاوثان، ولم يحاربه قبيلة أو شخصاً.

فالأمة قد شفيت من مرض (الشك) ولكنها منيت بمرض آخر وهو مرض (فقدان الإرادة) وقد اصبحت الأمة لا تملك ارادتها في الرفض والاحتجاج، بل اصبحت يدها ولسانها ملكاً لشهواتها، قد فقدت إرادة التغيير لأوضاعها الفاسدة قلوبهم مع الإمام ولكن سيوفهم عليه «كما قال، الشاعر الفرزدق».

لقد اصبحت الأمة تدرك وتعي بأن الإمام علي (ع) هو طريق الجهاد والخلاص وهو المثل الأعلى للحكم العادل، حتى غدا شعار «لا نريد إلا حكم علي» شعاراً جماهيراً شائعاً على السنة الثائرين.

ولكن مع كل هذا الوضوح في الموقف كان هؤلاء لا يمتلكون إرادتهم لقد استكانوا وهانت عليهم فيهم ومثلهم حيث انطفئت فيهم شعلة الجهاد وكانوا يشعرون بالذل والتبعية لجلاديهم من الحكام ولم يعد يحملون هم الرسالة بقدر اهتمامهم بمصالحهم واعطياتهم وشؤونهم الفردية ، لقد نسوا همومهم الرسالية وتضاءلت بالتدريج لتحل محلها تلك الهموم الحقيرة.

ففي هذه الحالة كان لابد لشخص أن يرجع للأمة إرادتها، فكان خيار الثورة والمجابهة العنيفة اسلوباً موضوعياً اتبعه الإمام الحسين (ع) في معالجة مرض (فقدان الإرادة) عند المجتمع الإسلامي.

أما الحسن (ع) فكان موقفه موقف المهادن المصالح ليفسح المجال لمعاوية في ان يكشف ويفضح واقعه وواقع اطروحته الجاهلية ليسترجع من خلالها ثقة الأمة واقتناعها بموضوعية واحقية اطروحة الإمام علي (ع) في الحكم.

وبهذا الفارق نكـون قد اجلينـا ـ للقارىء المـريم ـ الفرق المـوضوعي بين الـظرف الذي عـاشه الحسن (ع)، والـظرف الذي عـاشه ـ بعـد عشرين سنـة ـ الحسين (ع)، وقد تجلى هذا الفرق في نوعيـة مرض الأمـة، وكان لابـد لعلاج مـرض (فقدان الإرادة) من اختيـار الطريق الأول، بينمـا مرض (الشـك) لم يكن علاجه إلا بانحسار التجربة السياسية ، وقبول الصلح المشروط.

ثانياً: أما الاعتبار الثاني بوصفه أميناً على التجربة السياسية فكان من الواضح ان مواصلة تجربة الإمام السياسية اصبحت صعبة ومستحيلة وعاجزة من الاستمرار والمضي في الحكم والمعروف، ان الدولة العقائدية ـ ذلات الأطروحة الرسـالية ـ تعيش بمستوى أكبر من مستوى مصالح الأفراد ووجوداتهم الذاتية، ولما كانت هذه التجـربة لا يمكن ان تـواصل وجـودها مستقبـلاً إلا إذا اكتسبت وحضيت بقنـاعـة عقائدية واعية من قبل قواعـدها (المـوالية) حتى تتمكن ان تحمـل أبعاد التجـربة وتحميها من اعدائهـا وتتحمل التضحيـة من أجلها ، وعنـدما تفقـد التجربـة هذا الاقتناع تصبح التجربة عاجزة عن الفعل والعمل، غير قادرة عن الدفاع عن ذاتهـا وكيانها.

فالدولة العقائدية يجب ان تدخل في وعي وقناعات قطاعات عريضة من الأمة وتستهويهم فكرياً وروحياً، وإذا افتقدت الدولـة اقتناع الأمـة بها، فبمـادا تستهوي جماهيرها؟! هل تستهويهم بالمصالح الفردية الخاصة ولذائذها الرخيصة؟!.

نعم كـان بالامكـان ان يستويهم الإمـام ويستدرجهم إلى حكمـه عن طريق دغدغة مصالحهم الخاصة، ويدخل نفس المداخل التي دخلها معاوية ، يشتـرى ضمائرهم، يكتب إلى رؤوسائهم في الشام والعراق، ويخادع، ويماطل ، ويوزع الأموال والاعطيات!!

ولكن كل هذه الممارسات (اللاأخلاقية) كانت خروجاً صريحاً ومبتذلاً على مضمون رسالة الإمام (ع)، لأن ديمومة أي تجربة سياسية (عقائدية) تعتمد اساساً على اقتناع القواعد الشعبية بها.

هذه القناعة لم تكن موجودة ـ في ظروف الشك والتعقيد التي عاشها الحسن

(ع) لذا انتهت تجربته السياسية في الحكم إلى ما انتهت إليه[1].

فــارق آخــر:

ونشير إلى فارق آخر ميز مـوقف الحسن عن موقف أخيـه الحسين (ع) ، فالحسين لم يكن قائداً لتجربة سياسية ولم يكن أميناً على حكم قائم (كما الحسن (ع) وإنما كان شخصاً محكوماً ومضطهداً ولم يكن معه إلا اصحابه المتعاطفين مع اطروحته.

أما الحسن (ع) فكان حاكماً ووجوداً سياسياً قائماً بالفعل، وقد تمثل وجوده السياسي بأجهزة الدولة ومؤسساتها المختلفة، هذا الوجود السياسي هو الذي دعـا معاوية لأن يفكر ويخطط بطريقة مناسبة لمـواجهتها. أيـواجهها بـطريقة الحيلة أم السيف لأن معاوية كان متخوفـاً من نتائـج اختياره لأحـد الموقفين وعـدم تحقيقها لأهدافه واحلامه في التوسع والزعامة.

ولكن بالرغم من قيام هذا الوجود السياسي الضخم إلا انه كان كياناً سياسياً (هشاً) مشتتاً من الداخل إلا ان هذا الوجود كان يضفي على الحسن (ع) قوة وعزّة وهيبة، مما دعا الإمام ان يدخل مع معاوية في تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب لتجربته واهدافها السياسية في الحكم.

أما الحسين (ع) بوصفه فرداً عادياً ومحكوماً من قبل سلطة الدولة لم يكن بامكانه ان يدخل في تحقيق مكاسب لرسالته عن طريق المفاوضات السياسية مـع يزيد بن معاوية بينما الحسن (ع) كان زعيماً لجبهة سياسية عريضة، كان بامكانه ان يفـرض على معاويـة بعض التنازلات في مقـابل ايقـاف العمل مؤقتـاً بتجربتـه السياسية في الحكم، فكان في صالح التجربة ان تتوقف مؤقتاً، مع اخذ الضمانات الكافية برجوعها رسمياً وقانونياً[2] من ان تنتهي انتهاء ساحقاً، وذلك نتيجة لاصرار

---

(١) راجع نفس الكتاب الظروف الموضوعية التي مر بها حكم الإمام الحسن (ع).

(٢) راجع نفس الكتاب /بنود وشروط صلح الحسن (ع).

الإمام الحسن (ع) على خيار استمرار الاقتتال حتى الشهادة، بل يدخل مفـاوضاً ومصالحاً معاوية، ليستبقي ما يمكن استبقائه من مكاسب لتجربته السياسية.

وعلى ضوء هذه الحقيقة جاء اختيـار إمامنـا الحسن (ع) للطريق الثاني ، مؤكدين بأن كل من يعيش ظروف وملابسات حكم الإمـام الحسين (ع) لابد ان يختار ما اختار.

والملفت للنظر ـ عندما ندقق في بنود وشروط الصلح نرى بأن الحسن (ع) اشترط على نفسه لمعاوية ان ينسحب عن ميدان الحكم، ولكنه لم يشير أو ينص ـ لا من قريب أو من بعيد ـ على أي نوع من البيعة لمعاوية أو اظهار التبعية السياسية له، وخصوصاً بالمعنى الذي كان موجوداً لعلي (ع) بالنسبة لخلافة أبو بكر وعمر وعثمان، وإنما كل شرطه مع معاوية، هو ايقاف العمل بتجربتـه السياسيـة ما دام معاوية على قيد الحياة، وبمقابل ايقاف المعركة، اشترط الحسن (ع) على معاوية كثيراً من الشروط والتعهدات، بعض هذه التعهـدات ضمانـات امنية تخص كيـان (شيعة اهل البيت) والبعض الآخر، كانت تتعلق بتجربته وكيـانه السيـاسي، حيث اشترط على معاوية بأن لا يوصي من بعده لأحد غير الإمام الحسن (ع) وهذا الشرط يوضح بـأن تنازل الحسن (ع) عن الحكم كـان من اجل ان يستـرجع ثقـة الأمة واقتناعها بصحة اطروحته لكي ترجع تجربته السياسية مرة ثانية إلى سيادة الحكم.

ثالثاً : أما الاعتبار الثالث بوصفه قائداً وزعيماً للكتلة التي بذرها النبي (ص) ونماهّا ورعـاها الإمـام علي (ع)، هذه الكتلة التي كـانت تمثل الجـزء الطليعي الواعي من الأمة الإسلامية انذاك، والتي كان من المفروض ان تواصل امتدادها عبر التاريخ ، حاملة للأجيال أمانة الإسلام بكامل صيغته ومضمونه. هذا الاعتبـار كان في حساب اختيار افضل الطريقين.

وعلى ضوء هذا الاعتبار يظهر فرق آخـر بين موقف الحسن واخيـه الحسين (ع) في اختيار كل منهم لطريق مختلف.

ربّ قائل يقول ان الإمامين متساويين في هذا الاعتبـار لأن الحسين كأخيـه الحسن (ع) كان أيضاً هـو الزعيم والإمـام الثالث لهـذه الكتلة والأمين عليها في

مرحلتها التاريخية اللاحقة، إلا ان بينهما فرقاً جلياً، وحاصل هذا الفرق هو ان الحسن (ع) كان يستقطب كل هذه الكتلة بينما الحسين (ع) لم يكن يستقطبهم جميعاً، فالحسن (ع) عندما كان يحارب كانت كتلة (الشيعة) تدخل ضمن إطار سيادة دولته، ولم يكن معقولاً ان يحارب عدواً ويتوقف عن قتاله إلا بعد ان يستنفذ كل قواه وطاقاته وكل رصيده الشعبي. حتى يسقط شهيداً في ساحة المعركة.

أما الحسين (ع) فلم يستشهد إلا بعد ان استنفذ طاقة قواته (الصغيرة) والتي تمثلت حينذاك بتلك المجموعة الطاهرة حيث خرّوا صرعى ثم خرّ الحسين بعدهم صريعاً.

ومعنى قولنا هذا ان الإمام الحسن (ع) لو اراد ان يواصل قتاله حتى الموت كان لابد له ان يستنفذ كل طاقاته، من قواعده الشعبية وكل ما يملك من موالين. ومعنى هذا انه سوف لن يبقى هناك وجود إسلامي قادر على ان يسترجع ذلك الاقتناع المفقود باطروحة الإسلام الحقة.

ومن هنا جاء مفترق الطريق، حيث قدر للإمام الحسن (ع) ان يسلك طريق الصلح - الذي تمثلت فيه اقصى الوان التحدي والقسوة للنفس البشرية التواقة لاقامة العدل، ولكن الحسن (ع) لم يتردد لحظة في ان يتحمل كل هذا الأذى والضيم في سبيل إن يحقق اقصى درجة ممكنة من المكاسب للاعتبارات الثلاثة التي ذكرناها سابقاً.

* * *

الإمام يطالب بفسخ الهدنة:

لقد نجحت خطة الإمام الحسن (ع) بقبوله بشروط الصلح لكي يفرض معاوية بأظهار نواياه الجاهلية ، وفعلاً بدأ معاوية يساهم إلى درجة كبيرة بكشف نفسه وواقعه المنحرف وقد أعلن منذ اليوم الأول من استقلاله بالحكم عن مضمون اطروحته، وأخذ يواصل الاعلان عنها وفي مختلف المجالات ضارباً عرض الحائط شروط مع الحسن (ع) قائلاً بكل تحد وصلف:

«الا واني كنت منيت الحسن واعطيته اشياء وجميعها تحت قـدمي، لا أفي بشيء منها»[1].

وعندما اخل معاوية علانية بشروط الصلح المتفق عليهـا أمام نـظر واسماع المسلمين متحدياً بذلك مشاعرهم، اخذ كثير من المسلمين يطالبون الإمام (ع) بفسخ الهدنة ومواجهة معاوية من جديد، ولكن الإمام (ع) كان يجيبهم بقوله : ـ

«أن لكّل شيء أجل ، ولكل شيء حساب»[2].
ولعله فتنة لكم ومتاع إلى حين»[3].

ولم يكن الإمـام (ع) يرفض بشكـل مطلق فكـرة نقض الهدنـة ولكن كان يؤجلها بالمنطق الذي يجعل لكل شيء أجل ولكل شيء حساب، لأنه كان يريد أن تتكشف شخصية معاوية بشكل اوضح، وان تكون اهدافه الجاهلية قد بانت لكـل انسان.

إلا ان معاوية احس بخطة الإمام (ع) وعرف ان الحسن (ع) سيكشفه أمام الملأ ويلعب ورقته بنجاح أمام الجماهير المسلمة وعند ذاك ينفضح امره للجميع، ولهذا بادر معاوية لتحصين نفسه ضد هذه الفضيحة والعمل على افساد خطة الإمام حتى لا يكون مصيرهُ مصير عثمان.

ولما كان معاوية يريد التمتع بالدنيا من خلال ملكه إلى اقصى ما يمكن ان يتمتع به الملك فهو لابد اذن ان ينكشف للناس، فعمد إلى اخفاء فضيحته بالعمل والتخـطيط الدائب إلى امـاتة ومصـادرة ضمير الأمـة وارادتهـا وقـابليتهـا بتحـدي الظالمين، فكانت سياسته على مدى عشرين سنة، تخطيطاً دائباً لتمييع ضمير الأمة وإرادتهـا بأن يجعلهم ينصـرفون عن التفكيـر في الهموم الكبيـرة وينقـطعـون إلى

همومهم اليومية الصغيرة وينصرفون بها عن الأهداف التي حملوها مع نبيهم العظيم في تحطيم جاهليات العالم إلى الاهتمام بعيشهم ومصالحهم الشخصية وإلى اعطياتهم التي يتقاضونها من بيت المال.

وفعلاً افلحت بعض خطط معاوية في تحطيم معنويات بعض المسلمين، حتى اصبح المسلم الذي كان يفكر بتحطيم عروش الظالمين في بلاد كسرى وقيصر أصبح الآن لا يفكر إلا بعطائه الرخيص وحياته المبتذلة.

وقد وصل الحال ـ كما مر شرحه ـ بشيوخ بعض قبائل الكوفة أن أصبحوا جواسيس لمعاوية بالرغم من تشيعهم لامير المؤمنين (ع) وأخذوا ينقلون الأخبار أولاً بأول عن أي بادرة تحرك أو تمرد من قبل رجال قبائلهم ثم تأتي شرطة الحكومة وتلقي القبض عليهم وتخنق انفاس المعارضة.

هذه الأعوام العشرون التي حكمها معاوية قد تكون من أخزى وأحرج الفترات التأريخية التي مرت على الأمة الإسلامية أصبح خلالها الانسان المسلم يحس احساساً مدمراً بأنه مظلوم وامته اصبحت مهددة بخطر الفناء، وان احكام الشريعة يتلاعب بها، واصبح الفيء والسواد بستاناً لقريش والخلافة كرة يتلاعب بها صبيان بني أمية.

كلمة اخيرة عن الإمام (ع):

مع الأسف أن كثيراً من مؤرخي التاريخ العام يؤكدون تصوراً شائعاً حول قيادة الإمام الحسن (ع) وضعفها وتراجعها أمام ضغط الاحداث، أو انه تنازل عن حقه راضياً حسماً للفتنة[1] أو انه خان الإسلام وسلم تجربتها السياسية دون قتال إلى معاوية عدو الإسلام ركوناً للدعة والراحة.. هكذا وبكل بساطة!!

وبخصوص هذه المزاعم والتقولات الرخيصة فقد تكلفت الدراسة السابقة بالرد عليها وتفنيد مزاعمها، ولكن الذي نريد ان نؤكده الآن بأن هذا الاعتقاد

الشائع ـ أغلب الظن سببه ـ اعتقاد هؤلاء المؤرخين بأن دور الائمة في حياتهم كان دوراً سلبياً على الأغلب بسبب اقصائهم عن الحكم.

وهذه التفكير بالرغم من انه خاطىء إلا انه يدل على جهل هؤلاء المؤرخين بظروف وتأريخ حياة الأئمة (ع).

فالأئمة بالرغم من اقصائهم من مسؤولية الحكم كانوا يتحملون باستمرار مسؤوليتهم في الحفاظ على الرسالة وعلى التجربة الإسلامية وتحصينها ضد التردي إلى هاوية الانحراف والانسلاخ من مبادئها وقيمها انسلاخاً تاماً»[1].

فالإمام الحسن (ع) ـ كما مر تفصيلاً . عندما هادن معاوية وتنازل عن الحكم اتجه إلى تغيير الأمة وتحصينها من الأخطار التي كانت تهددها والاشراف على القاعدة الشعبية وتوعيتها بمتطلبات الشخصية الإسلامية وتعبئتها بمحتوى التغيير الرسالي للإسلام ولبعث الأمة من جديد.

هذا الدور الايجابي للإمام (ع) وتحركه الفاعل على مسرح الاحداث كلفه الكثير من الرقابة والحصار ومحاولات اغتيال متكررة، وهذه المحاولات ان دلت على شيء فأنها تدل بكل وضوح إلى مخاوف السلطة من تواجد الإمام (ع) كقوة معبرة عن عواطف الأمة ووعيها المتنامي، ولربما حملت معها خطر الثورة ضد ظلم بني امية.

واغتيال الإمام في سنة ٤٩ هـ بالسم دليل صارخ بتواجده عملاً ونشاطاً دائباً في بعث الأمة وانهاضها من جديد.

فالإمام لم ينعزل ولم يتخاذل عن قيادة الأمة ومتطلباتها في الكفاح.

ومعاوية أدرك ذلك جيداً بأن الإمام (ع) هو صاحب رسالة ومبدأ فلابد انه عامل لاعطاء رسالته من جهده وعرقه سيادة الحكم من جديد بما يبذله من اساليب العمل والتغيير.



«مصـادر الكتـاب»

حـرف الألـف

١ ـ القرآن الكريم..............................

٢ ـ أعيان الشيعة.............................. محسن الأمين العاملي

٣ ـ أسد الغابة.............................. علي بن محمد بن الأثير

٤ ـ احياء العلوم.............................. محمد ابو حامد الغزالي

٥ ـ الأضـواء.............................. مجلة النجف الأشرف

٦ ـ الاحتجـاج.............................. الطبرسـي

٧ ـ اعلام الورى باعلام الهدى.............................. الطبرسـي

٨ ـ الانتصار.............................. عبدالرحمن بن محمد الخياط

٩ ـ انساب الاشراف.............................. البلاذري

١٠ ـ الامامة والسياسة.............................. ابن قتيبة الدينوري

١١ ـ الاسلام ومنطق القوة.............................. السيد محمد حسين فضل الله

١٢ ـ الاسلام يقود الحياة.............................. السيد محمد باقر الصدر

١٣ ـ الامامة في التشريع الاسلامي.............................. محمد مهدي الأصفي

١٤ ـ الاجتهاد والتقليد.............................. ميرزا غلام رضا

١٥ ـ أمير المؤمنين.............................. لجنة التأليف في دار التوحيد

١٦ ـ أهل البيت.............................. توفيق أبو علم

١٧ ـ الأئمة الاثني عشر، دراسة تحليلية.............................. عادل الأديب

حـرف البـاء

١٨ ـ بحث حول الولاية.............................. السيد محمد باقر الصدر

١٩ ـ البحـار.............................. محمد باقر المجلسي

حـرف التـاء

٢٠ ـ تأريخ اليعقوبي.. أحمد بن أبي يعقوب

٢١ ـ تأريخ الطبري.. محمد بن جرير

٢٢ ـ تاريخ ابن الأثير.. علي بن محمد الجزري

٢٣ ـ تاريخ أبي الفداء.. إسماعيل بن علي بن محمود

٢٤ ـ تاريخ الخطيب البغدادي.................................. أحمد بن علي

٢٥ ـ تفسير الطبري.. محمد بن جرير

٢٦ ـ تفسير الثعلبي.. أحمد بن محمد

٢٧ ـ تفسير الكشاف.. محمود بـن عمـر جار الله الزمخشري

٢٨ ـ تهذيب التهذيب... ابن حجر أحمد بن علي

٢٩ ـ تذكرة الخواص... سبط ابن الجوزي

حـرف الثـاء

٣٠ ـ ثورة الحسين، ظروفها الاجتماعية وآثارها النفسية......... محمد مهدي شمس الدين

حـرف الحـاء

٣١ ـ الحكمة.. مجلة، لبنان

٣٢ ـ حياة الامام الحسن....................................... لجنة التأليف في دار التوحيد

حـرف الـدال

٣٣ ـ دائرة المعارف الاسلامية الشيعية.......................... حسن الأمين

٣٤ ـ الدر المنثور.. عبدالرحمن بـن أبـي بكر السيوطي

٣٥ ـ دراسات في نهج البلاغة.................................. محمد مهدي شمس الدين

٣٦ ـ الدولة العربية إلى نهاية الدولة الاموية..................... يوليوس فلهاوزن

حـرف الـراء

٣٧ ـ روح المعاني.. محمود الألوسي

حـرف السيـن

٣٨ ـ سلم الوصول إلى علم الاصول.............................. عمر عبدالله

۳۹ ـ سيرة الرسول.. ابن هشـام
٤٠ ـ السقيفة.. محمد رضا المظفر
٤١ ـ سيرة الأئمة الاثنا عشر.................................. هاشم معروف الحسني

حـرف الشيـن

٤٢ ـ شرح نهج البلاغة.. عبد الحميد ابن أبي الحديد

حـرف الصـاد

٤٣ ـ صفين.. نصر بن مزاحم
٤٤ ـ صانعوا التأريخ العربي.................................. د. فيليب حتى
٤٥ ـ صحيح مسلم.. مسلم بن الحجاج القشيري
٤٦ ـ صحيح البخاري... محمد بن اسماعيل

حـرف الطـاء

٤٧ ـ طبقات ابن سعد.. ابن سعد

حـرف العيـن

٤٨ ـ عقيدة الشيعة الامامية.................................. دونالدسن
٤٩ ـ عثمان... طه حسين
٥٠ ـ علي بن أبي طالب، نظرة عصرية جديدة.................. د. محمد احمد خلف الله
٥١ ـ العدالة الاجتماعية...................................... سيد قطب

حـرف الفـاء

٥٢ ـ الفصول المهمة.. ابن الصباغ المالكي
٥٣ ـ فضائل الخمسة من الصحاح الستة.......................... مرتضى الفيروزي آبادي
٥٤ ـ الفتنة الكبرى... طه حسين

حـرف الكـاف

٥٥ ـ كشف الغمة... علي بن عيسى الأربلي
٥٦ ـ الكامل... ابن الأثير

حـرف الـلام

٥٧ ـ اللمعة الدمشقية... العاملي

حرف الميم

حرف النون

حرف الواو

حرف الياء

فهـرس الكتـاب

الكتـاب الثـاني

الفصـــل الرابـــع









